الشيخ الصالح

تأليف

علي حسني علي

المفتش بوزارة المعارف

وأستاذ علوم التربية بدار العلوم والمعلمين العليا سابقاً

الطبعة الثانية

١٣٥٧ هـ – ١٩٣٨ م

obeikandl.com

الشيخ الصالح

تأليف

على حسنين على

المفتش بوزارة المعارف

وأستاذ علوم التربية بدار العلوم والمعلمين العليا سابقاً

الطبعـــة الثانيـــة

١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهـــداء

إلى كل من ينصُر دولة الأدب ، وينشُر لغة العرب أهـدى رواية «الشيخ الصالح» ثمرة يراعتى وسليلة قريحتى اعترافاً بأثره ، وتشجيعاً لغيره

المؤلف

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لسنا إلا معبّرين عن الحقيقة المرة حين نقول إنّ ركناً عظيما من أركان الأدب العربي ناقصٌ ، وإن خِزانة أهل الضّاد خالية من ذخيرة من أنفس الذخائر وأشدّها أثراً فى ترقيـة الحياة العقلية ألا وهى « الروايات المُمتِعة »

ومن ذا الذى ينكر ما لعبت وتلعب الروايات فى ميادين الحياة الأجنبية ، أو يتجاهل ما لها على ثروة الأدب الغربى من فضل ؟

وكيف نَعْمَى عن آثارها وهى مُسْترادُ[1] الخيال الصائب والفكر الثاقب ، ومرآةُ الحياة ، وصورةُ العصور ، ودارسة النفوس ، وممثلة العالم وضاربةُ الأمثال ، وباعثةُ الآمال ؟

كم ضُمّنت فضائل فى سطورها ، وحَملتْ على رذائل بين طيّاتها ، وكم بثّت من مبدأ قويم ، ورقّقت من وجدان سقيم !

---

(١) مجال

ألم تكن عوناً للنشء بل غير النشء على تحسين لغتهم وتجويد أسلوبهم وسعة خيالهم وصقل ذوقهم ؟ أَنُنْكر أنها سَلْوة الحزين البائس وفُرجة المدْهُور[1] اليائس ، تُنسى ذا الوصب وصَبه ، وتزيل عن المكدود تعبَه ؟ وأيُّ شيء أحبُّ إلى نفوس القراء من أسلوب قصصى خلاب ، وطريق يملك على الناس المشاعر والألباب ؟

إن الكاتب القصصى القدير كالنطاسى البارع الخبير ، يتتبّع مواضع الأدواء ليصف لها ناجع الدواء ، وإن المِرْقَم[2] فى يد البليغ كالريشة بين أصابع المصور الماهر ، فالأول يَسْحَر القارئ بسحر أسلوبه ولا يزال به حتى يقوده قَسْرا إلى غرضه . والثانى يبهر البصر ببديع ألوانه ورائع تصويره ليحمل صاحبه من الجمال الظاهر ، إلى باطن الفن الآسر ، ومن منشور المثال ، إلى مطوىّ وَحْى الخيال

والآن كيف السبيل إلى إقامة ذلك الركن المفقود ، وسد ذلك الفراغ الموجود ؟ إن الخطب ليس باليسير فهو يتطلب أقلاما متضافرة وعقولا مفكرة وأخيلة واسعة

بهذا يمكننا أن نجارى كتاب الغربيين والأمريكيين أولئك الذين يَفْنَوْن وتبقى قصصهم على ممر الدهور زاهية خالدة تحلو بتكرارها وتلبث عزيزة على قرّائها

---

(١) من نزل به مكروه (٢) القلم

انا لا ننكر أن بين ظهرانينا نفراً ليس بالقليل من المعرّبين القديرين ممن نحن فى حاجة اليهم ، ولكن يُعوزنا عنصر آخر هو أجدى على دولة الأدب ذلك هو عنصر المؤلفين المبتكرين الذين يرُوننا الدهور الغابرة ، فى ثيابها المتغايرة ، والعصور الحاضرة ، فى صورها المؤتلفة والمتناكرة ، من اجتماعية وخُلقية ، وفكرية وعلمية ، ودينية وسياسية ، فى لفظ مختار وأسلوب خلاب

ولسنا ندعى أن كِنانتنا خلو من هذا الصنف من البلغاء ، ولا أن أعمادنا صِفرٌ من المفكرين الأذكياء ، ولكن أغلبهم مخبوءون يفتقرون إلى شجاعة وثقة بالنفس ليظهروا ، وإلى تشجيع وقدْر لأعمالهم ليزْهَروا

فليبرُز كل ذى موهبة إلى الميدان ، وليَعرض بناتِ فكره للعِيان وليعلم أن كل ثمين سيشُق له فى عالم الأدب طريقا ، وكل ممتع سينال عند الجمهور رضا وتوفيقا ؟

المؤلف

الفصل الأول

الطريق المهيب

السماءُ صافية الإهاب ، زرقاء الجلباب ، قد بدا فيها البدر كما يبدو الملك يصحبه الجلال وتكتنفه العظمة ، فدبَّ الحياء إلى الكواكب فتوارتْ بالحجاب اللهم الا قليلا كان يُبَهْبِهِ (١) هناوهناك كأنه رقباء الملك

بسط القمر رداءه الفضى على تلك الحقول الخضراء المترامية الأكناف ، وبعث بأشعته اللجينيّة إلى تلك المجارى المائية التى تتخللها كما تتخلل العروق جسم الانسان ، فزاد المنظر جمالا على جمال .

كان السكون ضاربا بجرانه (٢) فوق ذلك الطريق الممتد من الزقازيق إلى ميت غمر فكنت لا تسمع إلا حفيف النبات والأشجار تستجهلها (٣) الرياح الخصِرَة (٤) وإلا عواء بعض الذئاب يخترق الفضاء أحيانا .

لم يكن ذلك الطريق طريقا معبَّداً مأمونَ العِثار ، بل كان كثير المرتفعات والمنخفضات والمنعطفات ، قد نبتت الأشواك على كثير من جوانبه ، ومالت الأشجار وأغصانها كثيراً نحو جادّته فكانت عقبة كأداء فى طريق السّابلة .

ومما امتاز به هذا الطريق وحشتهُ وكثرة مخاوفه وتعدد حوادثه

---

(١) يتلألأ (٢) الجران مقدم عنق البعير (٣) تحركها (٤) الباردة

فلطالما أُهرِقَت[١] فيه دماء طاهرة ، وفاضت أرواح بريئة ، وسُلِب المارون فيه فى وَضَح النهار .

وقصارى القول أنه كان مذ كاراً[٢] مأوى للصوص الأئمة الذين لم تردعهم قوانين البلاد ولم يكن لهم من دينهم زاجر أو واعظ ، وملجأ للعاطلين المشردين الذين آثروا الكسل والنهب على العمل والشرف .

ولهذا كان الناس يهابون المرور فيه ، وإذا اضطُرّ أحد إلى ركوب مَتْنه اجتهد أن يكون فى جماعة وأن يكون معه سلاح يدفع به عن نفسه شر الطوارىء . ونَدَر أن ترى من المسافرين من يجرؤ على اختراق هذا السَّمْت[٣] فى أثناء الليل بعد أن رأى ما رأى وسمع ما سمع من الحوادث المروّعة والأخبار المفزعة .

فى تلك الليلة القمراء ضم هذا الطريقُ ثلاثة رجال أحدهم مترجّل والآخران راكبان اشتملا بثيابهما اشتمال الصمّاء[٤] توقيا من البرد القارس ولم يظهر من وجهيهما إلا شفا حتى إن الناظر إليهما لا يستطيع تمييز أحدهما عن الآخر .

أما المترجل فقد كان فتى أمرد[٥] يعدّ من العمر ثمانية عشر عاما

---

(١) سالت (٢) ذا أهوال فلا يسلكه إلا ذكور الرجال (٣) الطريق (٤) اشتمال الصماء أن يرد الرجل الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعا (٥) لم ينبت وجهه

كبير الرأس ، رقيق الحاجبين ، ضيق العينين ، أفطس الأنف ، غليظ الشفتين موجّنا[1] ، صليب القناة مفتول العضل ، قست عليه الشمس قسوتها فصبغت إهابه[2] بصبغ أسود لماع . وكان يلبس جلبابا أسود لم يصل إلى ركبتيه ولم يعدُ كمّاه مرفقيه فوقه صدار مفرَّق بالقصب . قد انتعل الغبراء وفى رأسه الكبير بكُمّة من الصوف معصوبة بمنديل أحمر تدلَّى طرفاه فوق ظهره ، وحول وسطه حزام من جلد ، وقد حمل على كتفه اليسرى عصاً غليظة مقمّعة بالحديد .

فى هذه الملابس غير الكافية وفى تلك الليلة القَرَّة[3] كان يسير هذا الفتى أمام الفارسين وعلى بعد خُطُوات منهما كأنْ ليس للزمهرير عليه من سلطان ، أو كأنه خلق من طينة غير التى خلق منها رفيقاه

ومع حالته هذه ومع ما فى الجو من برد كنت تلمح على جبينه العريض الناصع قطرات من الماء تترقرق ثم لا تلبث أن تنحدر على صفحتى وجهه أو تسقط تحت قدمه . فهل بالرجل يا تُرى مسٌّ من الحمّى وعهدُنا به سليم الجسم ؟ أو هل دمعتْ السماء فأصاب وجهَه دمعاتها ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك . وما تلك القطرات المائية إلا بخار الجسم دفعته حرارة العَدْو فبدا على محيّا ذلك المسكين . وكيف لا يَنْضَح[4] ذلك العرق وقد قطع هذا العدّاء خمسة أميال جريا على طريق كثير العثرات بدون تنفيس[5]

---

(١) عظيم الوجنات (٢) جلده (٣) الباردة (٤) لا يرشح (٥) راحة

إيهِ أيها الأغنياء القساة ! أنَضبتْ [١] موارد الرحمة من قلوبكم حتى اتخذتم من بنى أمكم خدما يبارون الخيول فى عدْوها ؟ أم هى المظاهر الكاذبة والأبهة الزائلة لا تكمل إلا باستخدام « سائسين » يفسَحون فى الطريق أمامكم ؟

تلك عادة قبيحة من عادات الغابر من العصور ، ولكن آثارها لا تزال تتجلّى اليوم فى بعض البلدان وأمام جنازات المَسيحيين . وهاهو ذا بعد إجازة [٢] تلك الشقة قد استبدل الذَّميل [٣] بالوَخْد [٤] أخيراً وأهوى بيديه نحو الأرض كأنما يفتش عن شىء فقد .

وإذ هو كذلك سمع صوتا من بعد يحمل هذه الكلمات : « ماخطبُك يامرجان ؟ ألم يكفك مانعانيه من هذا البرد الذى يُجمد الدم فى العروق ؟ أسرع فقد تأخرنا كثيراً ولا يزال بيننا و بين ميت غمر جَذْبَة [٥] » .

وسمع الرفيق الآخر يضحك ضحكة غريبة و يقول : «ما إخاله إلا قد بلغ منه الأيْن [٦] وله العذر إذا التمس الراحة قليلا فقد عدا الليلة كالفرس الجموح لا يلوى على شىء . ولكن هؤلاء الأرقّاء لم يخلقوا إلا لهذا الصِّنف من الأعمال ؛ فهم كالحيوان يسخره صاحبه و يشعرون بالسعادة فى الذل و يجدون الحرية فى العبودية .

---

(١) نضب الماء غار (٢) قطع (٣) السير اللين
(٤) السير السريع (٥) مسافة طويلة (٦) التعب

طرقت هذه الألفاظ الجارحة مِسْمعى [١] مرجان ، وشعر كأن سهما مسموماً صوّب إلى قلبه فمزقه ، فانتصب فجأة متنفسا الصُّعداء [٢] وصاح بصوت ممزوج بالألم والحسرة : إنى لست بمتعب يا سيدى ولـكن . . . . . .

ولم يتم جملته بل عطف نحو شجرة على جانب الطريق وضرب يده إلى جيبه فأخرج كِبريتا أوقد به فتيلا .

وما سرى صوت الثُّقاب إلى الفارسين حتى التفتا وراءهما مذعورين . نظرا فرأيا على ضوء البدر مرجانا وقد أسند ظهره إلى شجرة وانحنى قليلا ، ورأيا بيده نارا فأخذهما الدَّهَش . وما هى إلا بضع ثوان حتى كانا أمامه . فقال السيد بصوت تمازجه الشفقة : ماذا حدث لك يامرجان ؟ فأجابه الخادم : ليس علىّ من بأس يامولاى ، ولـكنها قطعة من الزجاج على ماأظن قدشجت أخْمَصَ قدمى شجا صغيراً ، وسأكون على أهبة السير في . . . .

فقاطعه سيده قائلا : ولـكن ماذا تفعل بهذه النار ؟ فأجابه « إنى أكْوى الجرح ياسيدى فهذا دواء قد جربته كثيراً فوجدته ناجعا » فتقدم سيده نحوه مترجّلا وقال : أرنى جرحك يا مرجان فانى عهدتك تستصغر الـكبير . فشعر الوَصيف [٣] بشىء من الخجل والاضطراب وقال : لاتُقلق خاطرك ياسيدى فما حدث لى هين جدا . ولـكن اصرار سيده جعله يذعن أخيرا لإرادته .

---

(١) أذنى (٢) تنفسا ممدودا (٣) الخادم

نظر السيد على غير هوى عبده فزفر إذ رأى الجرح بليغا ، ورأى قطرات الدم قد تجلّلت[١] القدم في بقع مختلفة ، فقال لرفيقه الذي لم يزايل[٢] ظهر جواده والذي لم يظهر أقل اهتمام بالحادث :

« إنّ أخمص قدمه قد شُقّ شقا عميقا ولا أدرى أيستطيع وهو على هذه الحالة مواصلة السعي معنا »

فأجابه الآخر وفي صوته رنة الاستخفاف والاستهزاء : وماذا نفعل ؟ أنقترح أن نبقى معه هنا حتى تلتئم جراحه[٣] أم نربطه في ذيل فرسنا ونجرّه جرا ؟ .

فامتعض[٤] حينئذ كلا السامعين الخادم والسيد ، ونظرا إليه نظرة الدهش ، ثم قال السيد : ليس أمامنا إلا رأى واحد لا ثاني له وهو أن تردِف المسكين خلف أحدنا .

فصاح الآخر خلف أحدنا ؟ ما أعجبَ هذا الاقتراح ! وماذا يقول الناس حينما يرون سيداً وعبداً فوق فرسين فضلا عن فرس واحد ؟ إن هذا مستحيل ، والرأى عندي أن يسير خلفنا حتى قرية « النخاس » فلقد سرنا على مقربة منها ثم نتركه هناك ، وإنه لا يعدَم أن يجد له مبيتاً ومواسياً ثم نستمر في السير وحدنا ، فاني لا أخشى السُّرَى[٥] ولا أظنك تخشاه . على أن القمر لا يزال يحرس السكون بعين ساهرة وإن سلاحنا

---

(١) عَلَتْ (٢) يفارق (٣) جروحه (٤) غضب
(٥) السير ليلاً

معنا . وإذا رِينَ بنا [١] — لا قدر الله — فهل تظن أن خادمك يخلصنا ؟ لقد قطعنا إلى الآن شوطاً بعيداً ، ولم يحدث شيء ما يعكّر صفونا اللهم إلا ما أصاب عبدك وإنى على يقين من أن سفرنا سيتمّ بسلام .

فأجابه الآخر : آمل أن تتحقق نبوءتك ، غير أن إباءك أن تردف خادمى لا يمنعنى أنا من أن أشركه معى . انه خادم يستأهل كل عناية ، وإن حالته تستحق العطف لا اللوم .

وما انتهى من هذا الحديث حتى نهض مرجان وصاح بصوت ينبىء عن مقدار كَلَفه [٢] برب نعمته وقدْره لاقتراحه : أشكرك ياسيدى ولكن ذلك لن يكون أبدا ، على أنى والحمد لله أشعر الآن بتمام المقدرة على معاودة المسير بل العدو . . . .

ثم نظر إلى الراكب الثانى بعد أن عصب قدمه بمنديل رأسه نظرةً تشفّ عما فى قلبه نحوه من البغض والمقت وقال : لا حَاجة الآن إلى جرى أو تركى ، على أنى لو مُنيت [٣] بشرّ مما أصابنى الليلة ما فكرت فى أن أترك ولىّ نعمتى ونعمة أبى يسير وحده فى هذا الطريق الموحش

ثم انطلق أمام الفرسين كأن لم يصبه شيء ، ولم يسمع دعوة سيده له « بورك فيك يامرجان »

استمر الخادم على سيرته الأولى بل زاد من سرعته مدة ليست بالقصيرة

---

(١) وقعنا فى ورطة (٢) غرامه (٣) أصبت

كان يفكر خلالها فى رفيق سيده العجيب وفيما سمع من حديثه ويدفع ماتخالج [١] فى صدره من أمره ، ثم تغلبت عليه عوامل الشك فصاح فى أعماق نفسه الطيبة : إنى لا أظن هذا الرجل إلا شيطانا خبيثا قد استدرج سيدى الحسن النية ليوقعه فى حبالة من حبائله ، وإلا فلماذا أراد أن يتركنى وراءه تحت رحمة الليل؟ أشفقةً منه علىّ ، أم ليخلى الطريق منى حتى يستطيع أن ينفذ ما قد بيّت من سوء ؟ ولكن لا . إن سيدى أثقب نظرا وأبعد من أن يُخدع بمثل تلك الخدعة . ولو أنه داخله خَلْجَة شك فى أمر هذا الرجل لما أمِن أن يركب معه هذا الطريق ، ولآثر أن يقضى سحابة ليلته بالزقازيق ، وما أدرى لعلهما صديقان قديمان قد جمعتهما يد المقادير بعد أن فرقتهما يد النوى .

وكان قد هدأ سيره قليلا ، ثم جمع قواه واستحثّ رجليه واندفع إلى الأمام كأن شبحا من الخطر يتعقبه . وما وراءه إلا الجوادان يَدِرّان دريرا [٢] .

وإنه لكذلك تتقاذفه الهواجس ، وتتهاداه الوساوس ، إذ سمع صوتا يناديه أن قِفْ فقد بلغنا « النخاس » وإذا كنت لاتزال تجنح للراحة فما عليك إلا أن تعرّج عليها وتقرع أحد أبوابها .

عرف مرجان مصدر هذا النداء فلم يُعره اهتماما ، بل كان جوابه عليه أن أطلق لساقيه الريح حتى غاب فى ظل القرية ثم برز فى وسط الطريق . وحملت الريح إليه قهقهة سيده العالية فصاح فى نفسه : تُرى ماذا يُكِنّ لنا هذا الليل فى جوفه ، وماذا يضمر القضاء فى صدره ؟

---

(١) يقال تخالج فى صدرى شىء أى شككت (٢) يعدوان عدوا شديدا

الفصل الثانى

الفارس

أنشأ المزَمَّلان [١] يتحادثان فقال أحدهما لرفيقه . ألم أقل لك إنه سيهزأ بهذه الفكرة و إنهُ يؤثر أن يكون بجانبى كسيراً أو طريحاً على أن يكون بعيداً عنى سليما معافى ؟ إن هذا القَين [٢] نشأ فى فِنائى فربيته مثلما أهوى كما أدبت أباه من قبل، فلم ينسيا رب نعمتهما ولم يألوا جهداً فى راحتى ولولا أن قتِل أبوه لرأيته يعدو وراءنا الليلة كما يتقدمنا ابنه الأمين .

ولم يتم كلامه حتى رأى فرسه قد صر [٣] أذنيه، و بدأ يضرب الأرض بحوافره ، ثم سمع وقع سنابك جواد منبعث من الخلف ، كأنما العبد المقتول قد بُعِث من مرقده ليحقق ظن سيده .

وكان الصوت قد سرى إلى أذن مرجان ، فتراجع حتى كان على مقربة من سيده ، وهمس فى أذنه ببعض كلمات ظهر أثرها فى الحال ، إذ قد مال سيده إلى جانب الطريق مُظهراً من تحت عباءته غدارة فيها الموت

أما الرفيق الثالث فلم يظهر عليه أقل اهتمام بالحادث كأن الأمر لا يعنيه أو كأنه أخذ عهداً ألا يهدَّد فى حياته .

وأما مرجان فقد وقف فى الطريق متعرضا قابضا على عصاه بيده

---

(١) زمّله فى ثوبه لفه (٢) العبد (٣) نصبهما للاستماع

اليمنى قائلا : دعانى أقابل هذا القادم ، ولا تتدخلا حتى تريا ذلك لِزاما .

فابتسم سيده حتى لمعت أسنانه الذهبية ، ولم يَرُم الآخر ببنت شفة بل ساق فرسه إلى الجانب الآخر ، ولبث كأنه أحد الأنصاب[١]

وإنهم لكذلك إذ نظروا زوبعة من مثار الرَّهَج[٢] تتقدم نحوهم وتبينوا خلالها شبحا ما لبث أن بان عن فارسٍ يركُضُ جواده مِلْءَ فُروجه[٣]

فصاح مرجان بأعلى صوته ملوّحا بعصاه : قف أيها القادم وأخبرنا من أنت ، وإلا فالويل لك ...

وما أتم كلامه حتى وجد نفسه يدور على نفسه كالدُّوَّامة[٤] ثم وجد نفسه لَصِيق جواد سيده . ولولا لطف الله لخرّ صريعا مبقور البطن أو مهشم الرأس ، لأن القادم لم يأبَه بإنذار العبد ، وربما لم يسمع منه كلمة ، وهفا بالجمع كالبرق صادما فى أثناء ذلك مهدّده صدمة كادت تفقده صوابه ، وكان من أثرها أن طارت الكُمّة والعصا معا فى الهواء ثم استقرتا فى قناة على كَثَب من الطريق .

حدث ذلك فى أقلّ من لمح البصر ، ثم استغلق الكل من ذهوله . نظر مرجان إلى وجه سيده فلمح فيه سَوْرة الغضب والسخط ، ونفذت عيناه المتألقتان إلى قلبه فقرأ فيه آيات الارتياب والقلق ، ولاحظ أن

---

(١) جمع نُصُب وهو ما نصب ليُعبد (٢) الغبار (٣) يستحث فرسه بقوة (٤) فَلَكَة يرميها الصبي بخيط فتدوّم على الأرض أى تدور

الغدّارة لاتزال بمكانها من يده لم يندلع لسانها ولا أسمعت صوتها . وشاء سيده ألا يضيع وقتاً أكثر فأمره بالمسير فأطاع .

ودار حديث بين الرفيقين فقال أحدهما للآخر : لقد كان حرِيًّا بك ألا تمنعني من إطلاق غدارتي، فإن ذلك الرجل يستأهل العقاب بل القتل على مافعل . ألا ترى أنه كان ينوي أن يطرح خادمي تحت سنابك فرسه ولو استطاع لفعل ؟ إني شممتُ ريحَ الغدر من أردانه(١) وإني أتوقع شراً من مروره في مثل هذه الساعة ، وما أحسبه إلا جَرِيّ(٣) سوء يحمل الموت في صدره ، أو أحد هؤلاء الأبالسة الذين يفجعون السابلة في أموالهم وأرواحهم تحت أرْواق الليل(٢) وفي بياض النهار، و إلا فلماذا لم يحيِّ أفراداً ضمهم و إياه طريق واحد مَهيب ، وحواهم جوف الليل الفسيح ؟ أما كان من الحزم أن يُعَقِّبَ(٤) ولو بضع دقائق حتى يُزيل ماعاق بأذهاننا من الريب في شأنه ؟ إنه لو فعل لكان خيراً لنا وله وربما كانت وجهتُه وجهتنا ، وحينئذ ينضم إلينا فيزداد بنا ونزداد به قوة .

وصمت برهة ثم أردف يقول : ألستَ على رأيي يازميلي ؟

فأجاب الآخر بصوت الرزين الواثق من كلامه : نعم . لست على رأيك ياصديقي . وما أحسبك إلا ركبت متن الشطط في حكمك، وقَفَوْتَ(٥) رجلا لاتعرفه، و إنما جمعتك و إياه ساعة عصيبة . وما يدريك لعله يكون

---

(١) جمع رُدْن وهو أصل الكم (٢) رسول
(٣) في أثناء ظلمته (٤) يعطف (٥) قذفه بالفجور

بريئاً من كل ماوَصمته به ، وأن حَدْسك ليس بكَهَانة [١] . إنى لا أظن ذلك الراكض إلا خابطَ ليل ساقته ظروف كظروفنا لاختراق هـذا السبيل ، ولو لم يتعرض له ذلك العبد الأخرق بتلك الحالةالمريبة لمضى المسار بسلام ، ولو صرعه ذلك الجواد لكان إثمه على نفسه . وكيف ترتقب من سارٍ أوحدَ مثل هذا أن يعطف على جماعة لا يعلم من أمرهم شيئاً ولا يتوقع منهم نفعاً ؟ ألا يُوحى إليه العقل وحب الحياة أن يكون حذِراً كغراب ، سيِّء الظن بمن يقابله حتى لا يقع فى أحبولة لاخلاص له منها ؟ إن فرداً هذا شعوره وتلك حاله ليتصور كل شبح عدواً ، وكل ظل كمينا ، وكل حفرة قبرا ، وكل همس غدرا . وما حالنا بخير من حاله فلماذا ونحن جماعة ننتظر من غيرنا مالا ينتظره منا ؟

وفى هذه اللحظة أصرّ الجوادان بأذنيهما ، ووقفا فجأة كأنما كانا على اتفاق ، وصهلا صهيلا تجاوب بصداه الخافقان ، وأخذا ينكتان الأرض سنابكهما . فنظر كل من الصديقين إلى صاحبه نظرة استفهام مازجها الشك ، ثم انحنيا إلى الأمام محدّقين ببصرهما ، ولكنهما لم يتبينا شيئاً مما حير لبهما . ثم أعادا الكرة وإذا بهما يريان على بعد وخلف شجرة ضخمة مرجاناً مطروحاً على الأرض ، فعلقا أنفاسهما برهة رأياه فى أثنائها مرتفقاً [٢] وواضعاً يده أمام جبينه كأنما يستكف [٣] شبحاً أو يستطلع خبراً . فصاح

---

(١) أى أن ظنك ليس بيقين (٢) متكئا على مرفق يده (٣) يستوضح

المولى : الحمد لله لقد حسبته طارت نعامته[١] وسكنت نأمته[٢]. ثم رأياه ينهض و يستأنف[٣] السُّرَى بقدم مطمئنة .

وصل المحدّث ما كان قد قطع من الحديث قائلا : على أنى لم أقبض على يدك وأحُلْ بينك و بين ماتريد من رَمْى ذلك العابر برصاص غدارتك إلا لأدفع شراً نحن في غنى من أجْله[٤] على أنفسنا ، ألا ترى معى أن فى كل لُقْمة من لُقم[٥] هذا الطريق مكمناً للصوص من كل شاطر عيار[٦] وذئب فى صورة الأبرار ، وأن فى أطلاق الرّصاص تنبيهاً للآذان النائمة و إيقاظا للعيون الساهية ؟ فلو أنى تركتك وشأنك لوقع مالم يَدُرْ بخَلَدِنا وأحْدَق بنا أولئك الأشرار من كل صَوْب . فاشكر الله على أنى كنت أحضرَ منك ذهناً وأبعد مَرْمَى ، ولا تعذُلني على أن دفعت شراً مستطيراً وصنت يدك من سفك دم ربما كان طاهراً .

فوقعت هـذه الـكلمات من سامعها محل القبول ، واعترف أن فيها نصيبا من الصحة ، ثم استدفع الله الأسواء[٧] ورجا من كل قلبه أن يصلوا إلى مقصدهم بدون أن يحدث مايعكر الصفو

وسمع صديقه يلفظ « آمين »

---

(١) نفسه (٢) النأمة النغمة والصوت (٣) يبتدىء (٤) جلبه
(٥) لقم الطريق بنياته اللاتى تفرعن منه (٦) كثير الطواف والحركة
(٧) طلب من الله دفع السوء

الفصل الثالث

الانتقام

سار الركب بهدوء لأن وعورة الطريق وكثرة مرتفعاته ومنخفضاته وتقارب حافتيه هنا وهناك ، وتراكم أشواكه لم تكن تسمح للمار بغير ذلك .

ولقد عانى مرجان من الألم فى طىّ تلك البقعة ما يعانيه خارط القتاد[١] والماشى على قطع الزجاج ، فكنت تراه يقفز من جهة إلى أخرى قفز النمر ، يعلو تارة ويهبط أخرى ، ويشرّق مرة ويغرّب مرة ، وآناً يبدو وآناً يغيب ، ووقتاً يلتوى ووقتاً ينحنى ، كأنه أعشى[٢] يختبط أو مرنّح[٣] عقلُه اختلط .

وما زالوا سائرين على هذا النحو حتى انشعب بهم الإمام[٤] غير المُبين إلى طريقين شَجيرين لا يسمح كلاهما لغير راكب واحد بالمرور فى وقت واحد ، قد نبت على جوانبهما أشجار ضخمة من الجميز والتوت والسِّدر[٥] حجبت ضوء البدر الساطع ، ووراء تلك الأشجار التى تَصْفِقها

---

(١) الشوك (٢) الأعشى من لا يبصر ليلا (٣) المتمايل سكراً (٤) الطريق (٥) شجر النبق

الرياح فتصطفق[١] وعلى مدى البصر امتدت مئات الأفدنة من القصب والذرة، تداعب خاماتُها[٢] الهواء والهواء يداعبها فتميل طوراً وطوراً تنتصب وتلتزم[٣] حيناً وحيناً تفترق .

عطفوا يَسْرة وما هى إلا بضع خطوات حتى سمعوا حركة حيوان أجْفَل[٤] لرؤيتهم وانساب بين الأشجار فرارا بحياته، ثم نشروا آذانهم كما ينشر الكلب أذنيه حينما يسمع دبيبا يدنو من مسكن سيده ، وإذا تَصْريخ[٥] كأنه منبعث من أعماق القبور عقبه أنين كأنين العود لعبت به أيدى البلى ثم سكوت عميق

فعرا الكلَّ ما يعرو كل فرد فى مثل هذا الموقف من الذهول والدَّهَش، وأشار أحد الراكبين إلى مرجان إشارة تنبىء عن رغبته فى مغادرة هذا المكان حالا ، ولكن الخادم المُجَلْجِل[٦] لم يأبَهْ بها بل نظر إلى سيده نظرة المستفهم الذى لا ينتظر جوابا .

وما هى إلا لمحة حتى بَطَح[٧] نفسه على الأرض ، وفتح مَنْخِرَيه كحيوان يشم ريح فريسته، ودوّمت[٨] عيناه، ثم استوى على أربع وأخذ يدِبّ دبيب القط يريد أن ينقض على قنيصته ، ثم اختفى بسرعة البرق .

---

(١) تهزها فتهتز (٢) الخامة من الزرع الشجرة الغضة
(٣) تتعانق (٤) فر وهرب (٥) صوت المستصرخ
(٦) الشجاع (٧) القى (٨) دارت حدقتاهما

فأوجس الآخران فى نفسيهما خيفة ، وسَرَتْ رهبة المشهد إلى رهبة الليل فأثرتا تأثيرهما فيهما .

وبعد لأْيٍ ما وجد بعضُ الكلمات طريقة إلى شفتى أحدهما فقال بصوت منخفض : إن هذا العبد المنحوس الطلعة كالساعى إلى حتفه بظلفه وإنه سيَجَلِّبُ (١) علينا بهوسه هذا كل ضرر . لم يكفه أن كان سببا فى تأخرنا هذا التأخير حتى قيدنا بمكان يحلق فى سمائه طائر الموت وتحفه الأخطار من كل جانب . وأنه لخير لنا أن نَرِيم (٢) عن هذه الأرض تواً ولو أدى الحال أن نتركه هنا يقطف ثمرة مخاطرته ، وإلا فلست أتحمل تبعة ما عسى أن يقع من جراء هذا الرَّيْث (٣) .

فأجابه الآخر بهدوء الحذِر : هوِّن عليك فما أظن أن فى الأمر شيئا يهدد حياتنا ، وإن هو إلا بائس ألقاه سوء طالعه فى قبضة أحد المجرمين المنتشرين بين هذه الأرجاء ، فلم يستطع دفع الشر عن نفسه ، فرفع بالاستغاثة صوته المختنق ، لعله يصادف قلب شجاع كريم فينتشله من ميتة فظيعة . وإن المرء لتصاريف القضاء أطوعُ من ظله لنفسه ولإنفاذ القدر أحثُّ (٤) من الماء إلى منحدَره ، وما ساق هذا الذى تسميه عبداً إلى تركنا هنا إلا عامل الشفقة وخُلُق الشجاعة ، وإنى أتمنى أن يدرك ذلك المسكين قبل فوات الفرصة وألاَّ يكون عونه دِباراً (٥) .

---

(١) سيجلب (٢) نرحل (٣) البطء (٤) أسرع
(٥) متأخراً

وما التحقت الكلمة الأخيرة بسابقاتها حتى سمعا صوتا يشبه صوت الماء ألقِي فيه حجر عظيم، فاستحثّا مطيتيْهما نحو مصدره، وقبل أن يتكهنا بما حصل وقعت عيونهما على منظر عجيب رائع فتملكهما الدهش والذعر معا.

أبصرا رجلين كخافيتي [1] الغراب الأسحم [2] في ثياب ممزقة قد علاهما الدم والطين، أحدهما ضخم الجثة طُوال [3] ترمى عينه بشرر، والثاني دونه حجما، قد التفّت سيقانهما بعضها على بعض والتحم صدراهما.

رأياهما يتبادلان اللطمات المميتة بضعَ ثوان، ثم يردِيان [4] إذ يردِي بهما الجرف المنهار في الماء

وعند هذه اللحظة و بسرعة دونها سرعة البرق تمكن مرجان من أن يفلت من قبضة خصمه و يعلو ظهرَه لافا ساقيه حوله ومطوقا لدِيدَيْه [5] بذراعيه الحديدين وناشبا أنياب ضِرغام في قفاه

وعندئذ صاح العبد الطُّوال صيحة مزعجة، ورطن رطانته، ثم استدعى من وسائل الدفاع ما يستدعيه امرؤ حريص على حياته، فهز نفسه هزة عنيفة قَصْدَ أن يزحزح حمل كاهله، ثم أخذ يلتوي على نفسه مزمجرا، و ينحنى و يعتدل مُرغيا ومُزبدا

وما كانت تلك الحركات إلا مُحرجةً لمركزه، مُدنيةً له من منيَّته فقد

---

(١) الخوافي مادون الريشات العشر من مقدم الجناح

(٢) الأسود (٣) مفرط الطول (٤) يسقطان

(٥) اللديدان صفحتا العنق دون الأذنين، وجانبا كل شيء

ثاخت [١] رجلاه فى الطين إلى ركبتيه ، ثم هاج هيجة الجاهل [٢] وقع فى الشرك ، ودار على نفسه نصف دورة ضاربا خصمه بمرفقيه آنا ومحاولا عصر عنقه آخر حتى وهت منته [٣] ، وفتر نشاطه ، وخرخرت [٤] حنجرته ، واندلع لسانه ، واسترخى ذراعاه ، وجحظت [٥] عيناه ، وزَبَّبَ [٦] شدقاه ، ثم هوى بعبئه كالجمل جثة هامدة .

مُثِّلت هـذه الفاجعة أمام شاهديها بسرعة ، وأنستهما روعة المشهد نفسيهما فجمدا جمود الصنم لا يحركان يداً ولا يبديان نصحا

نهض مرجان من مهواه بشكل تُذْعَر منه الأبالسة بَله الأناسىّ . وجه جهم [٧] كوجه الموت ، وجسم قد غطاه الحالـكان من سواد وطين وجرى فوق سطحه السائلان من دم وماء ، وأعضاء مجروحة ومخدوشة فى مِزَق [٨] قذرة . حال ترعب وتضحك وتستحق الرثاء والإعجاب .

نهض وعلى فمه الوالغ فى الدم ابتسامة تبرأ منها الابتسامات ، ينبض كل عرق فى صفحة وجهه ، ويعلو صدرُه ويهبط كبركان أوشك أن ينفجر ، وقفز على شفا القناة منبهرا [٩] ومنتفضا كعصفور بلله القطر أو كمحموم به أرْض [١٠] وقال بصوت الظافر من غير أن يحوّل نظره عن

---

(١) غارت (٢) الأسد (٣) ضعفت قوته
(٤) الخرخرة صوت المختنق (٥) برزت (٦) إجتمع الريق فيهما
(٧) كالح (٨) قطع ممزقة (٩) متتابع النفس (١٠) رعدة

تلك الجثة الغارقة فى الطين والماء كأنه يتوقع منها ضررا : لقد انتقمت لأبى من هذا الشيطان الغادر المذل ! ولقد نَضوت [١] البلاد طولا وعرضا مدة طويلة طمعا فى أن أظفر بطلعته فأغمد النصل فى كبده فما وقفت له على أثر وهاهو ذا القدر قد ساقه إلىّ الليلة من غير ماتوقع ومن غير أن أهىء للأمر . فليهدأ بالى الآن ، وليعلم أبى أن دمه لم يذهب جبارًا [٢] وأن ابنه لم يَحْنَث بيمينه

نعم ثأرت لوالدى ولهذا البائس المسكين أيضا ! !

وأومأ بيده إلى جسم منبطح [٣] بين أعواد القصب

---

(١) قطعت (٢) هدرا (٣) ملقى

الفصل الرابع

المعركة

لبث ذلك الجسم فى مكانه طول مدة العراك ، ومع أنه على كَثَب من ميدانَ القتال لم يسترع من الحاضرين نظراً ، ولم يستخلص منهما آهة ولم يستجرّ على ديباجتيهما [١] دمعة . ذلك لأن ما دار من القتال لم يترك منهما حاسة إلا شغلها فلم تعدُ مُلاحظتهما تلك الدائرة الضيقة دائرة الحرب

نظر السيد إلى حيث أومأ المنتصر نظرة المكتئب الحزين وقال : حقا لقد انتصرت العدالة على يدك أيها المَرير [٢] . إنك لم تثأر لأبيك ولهذا القتيل فحسب ، بل إنك ثأرت لى يا مرجان أيضاً ، فإن دين أبيك كان لايزال فى عنقى حتى فككته أنت بشهامتك .

طنت كلمات سيده الأخيرة فى أذنه طنين الذباب، والحقيقة أنه لم يفهم لها معنى إذ أحس كأن الأرض الفضاء تدور به وكأنه سيمرّ إلى مكانه فما يستطيع حراكا ، ثم خَدِرت أعضاؤه وخشِى السقوط فمال نحو الأرض ليلتقط عصاه ولكنه لم يقم ، بل ارتمى ارتماء المريض فنال منه الهُزال ، والمنهوك شفَّه [٣] طول الجلاد واللغوب [٤] ما بين ميت وحى .

---

(١) خديهما (٢) القوى (٣) هزله (٤) التعب

وسرعان ما كان سيده بلصقه [١] يمسحه ويحنو عليه حنو الأب الشفيق على ابنه الوفى البار صابا الماء البارد على وجهه .

وأخيراً حرك الطريح عينيه ، ومال إلى رأسه بكلتا يديه فعصبه ووجدت هذه الكلمات طريقها إلى أذنه : ألم أقل لك إن هذا البربرى مجلبة للشر ، وإنه سيوقعنا فى فخ لا خلاص لنا منه ؟ ما لنا ولرجل يأكل آخر ؟ لسنا حرّاس طرق فنسأل عما يقع فيها ، وإن هذا السفّاح لخليق بما حل به وأكثر ، وإذا كان فى عزمك البقاء بجوار خادمك أكثر مما ضيعنا من الوقت فأنت حر فيما تفعل ، أما أنا فراحل .

وسمع صوتاً آخر محبوباً يجيبه : ارحل إذا شئت ، أما أنا فلن أترك خادمى على هذا الحال ، وانى أستحبّ بقائى هنا على ما فيه من غرَر [٢] على السير بدونه .

سمع مرجان هذه الكلمات كما يسمعها الشخص أدركته سِنة من النوم، ثم فتح عينيه على إثر قطرات من الماء تحدرت من عيون السماء وما لمح وجه سيده يُظله [٣] حتى استوى جالساً وقال عفوا يا سيدى إن هى إلا غَشْية عرتنى ، ومد يده إلى عصاه فالتقطها واستوى على قدميه ، وقال وهو يتمايل كسكران لعبت برأسه نشوة الإثم [٤] : إنى مستعد للرحيل .

ولكن سيده كان أعلم بضعفه من نفسه فأبى إلا أن يكون رَدِيفه [٥]

---

(١) بجانبه (٢) خطر (٣) أظله دنا منه حتى ألقى ظله عليه
(٤) الخمر (٥) راكباً خلفه

و بعد لأىٍ ما خضع مرجان مكرها لإرادة سيده ومؤاسيه .

* * *

ولنرجع الآن قليلا لننظر كيف وقع هذا الحادث غير المنتظر .

إن مرجانا حين طرق صوت الاستغاثة غِشاء أذنه لم يتردد فى أن يتعرف الحقيقة وَيبْطن [١] الأمر ، فترك الشيخين على نحو ما أسلفنا ، وسار سير الحذر اليقظ حتى كان على كثب من مكان الحادثة، فاذا به يرى منظراً مروّعا يقفُ الدّمَ فى مجراه ، و يقِفّ [٢] منه شعرُ الصنديد ـ منظرَ رجل سُمِّرَ إلى الأرض ، قد ولىّ وجهه نحو القمر كأنما يُشهده على ما سيقع وقبض بيده على ضِغْثَيْنِ [٣] من الحشيش كأنما يستغيث بالأرض أن تفتح له أحشاءها وتحميه من موت محتم ، ومنظرَ رجل آخر من بنى جلدته رازمٍ [٤] فوقه رزوم البعير ينتزع منه الحياة العزيزة انتزاعا، ويمُزّ [٥] دمه مزًّا ، قد أنشب أظفاره فى مُتَلَدِّدِهِ [٦] . فشَخَص بصرُه [٧] برهة كمن فقد صوابه ، ثم خيّل إليه أنه يرى شبح أبيه يدنو منه ، وأنه يسمع صوته يردد « الانتقام ! الانتقام ! »

فثار ثائرُه ، وشعر بغريزة التوحش تعود إلى عِكْرها [٨] واندفع كالسهم. وما هى إلا قفزة وثانية حتى انقض على ذلك الوحش الانسانى انقضاض النّسر تراءت له قنيصته . وكأنّ سَكرة الدماء أنستْ ذلك المُتْرف [٩]

---

(١) يعرف باطنه (٢) يقف من الفزع (٣) قبضتين
(٤) بارك (٥) يمص (٦) عنقه (٧) فتح عينه ولم يطرف
(٨) اصلها (٩) الجبار

العاتى ما يُظِلّه من خطر، وكان تذوق ماء الحياة لم يوقظ فيه غريزة الدفاع عن الحياة فلبث برهة يحتسى [1] تلك الخمر البشرية ، وأبت شفتاه أن تفارقا شفة تلك الكأس الجسدية . ولم يغير من وضعه حتى أحس بقبضتين من حديد تضيقان عليه الخنق ، وبأسنان كالمواسى تنهش لحمه نهشاً . فخلّص أنيابه من عنق ذلك الأسير لينفذها فى جسم ذلك الراشن [2] الملقى بنفسه فى مواطن التهلكة . وهبّ بجمله يسيل رُواله [3] ويتلمّظ [4] هبّ كالبركان المنفجر يهدد ويُرعد ، يرسل فمه بالزبد وترمى عينه باللهب

وبحركة غريبة امّلص من يده كما يمّلص الأسود [5] من جرابه بل كاد يسمِّره الى شجرة قريبة منه لولا أن راغ [6] مرجان على بطنه ضرباً باليمين حتى كاد يفقده النفس. ثم التحم الخصمان ، وحمى وطيس النزال، فمن صفع إلى وكز [7] ، ومن رأس وصدر [8] إلى رفس ، ومن نهش إلى عض ومن هوِىٍّ ونهوض إلى افتراق وتلاق ، حتى سالت الدماء ، ودَحَضت [9] الأقدام بهما فى الماء ، وكان ما كان مما وصفنا بعد قدوم الشيخين .

---

(١) يشرب على مهل (٢) الطفيلى (٣) لعابه (٤) يخرج لسانه فيمسح به شفتيه (٥) العظيم من الحيات (٦) مال (٧) الصفع الضرب بالكف مبسوطة والوكز اللكم (٨) رأسه أصاب رأسه وصدره أصاب صدره (٩) زلقت

الفصل الخامس

السر الرهيب

برح هؤلاء الثلاثة حضرة الشرقية حينما تضيفت[١] الشمس المغيب وذرّ قرن سنيلها[٢] فى المشرق كجبين الحسناء . وها قد مر[٣] هزيع من الليل ولم يزل نصف الطريق مبسوطا ينتظر الطىّ . ولولا ما عاقهم من الحوادث غير المتوقعة لأفلهم أديم[٤] غير الذى يُقلهم الآن ولكانوا أقربَ إلى كعبتهم .

ركبوا والجو هادىء ، وإن كان قرًّا ، ووجه السماء صاف لايعلوه عبوس ، وقطعوا مرحلة طويلة وماتبدّى فى تلك القُبة الزرقاء غير[٥] كِسَف من المبشّرات[٦] كأنها طلائع الحملات ، أو الرسل إلى الأرض المَوَات ، أو النذُر إلى من حوتهم الطرقات

وهاهم أولاء الآن يستأنفون المسير بعد تلك الحادثة المروِّعة وقد اغرورقت عيون السماء بقطرات من الماء تحدّرت كحبات عقود وهتْ أسلاكها ، ثم أرسلت مِدرارها ، وصفّرت الرياح صفيرها وأضعف[٧] البرد أو كاد ، وتوارى البدر خلف السحاب ، بعد أن كان محطوط النقاب ،

---

(١) مالت (٢) طلع القمر (٣) طائفة (٤) حملهم سطح
(٥) قطع (٦) الرياح التى تبشر بالغيث (٧) تضاعف

كأنه كره رؤية حرب شعواء ، كادت تثيرها الطبيعة بين الأرض والسماء ، وكأن الكواكب ألمت بما قام بنفس سيدها ، فانحدرت هى أيضاً إلى مخادعها .

انتشر على السكون رداء من الظلام خفيف ، فانكمش الراكبون انكماش الجُرَذ [١] تراءى له الهر ، وقبعوا فى ملابسهم قبوع القنافذ فى جلودها واستحث تساقط الأمطار الجوادين فاندفعا اندفاع الشهاب يهديهما ما ركب فيهما من غرائز الخيل ، واستمرا على هذه السرعة بعض ساعة وما رفّها [٢] عن نفسيهما إلا تلبية لإرادة صاحبيهما فقد وصل الجمع هنا إلى منعطف خطير ضيق يتطلب الحذر

ولولا جذبة قوية للعنانين فى حينها لهوى الكل فى ظَلِيلة [٣] قذرة يعلوها الطُّحْلب ، وينبت فى أرضها أعواد النبات المتراكمة ، رابضةٍ عند رأس ذلك المنعطف كشرك للغافل .

وكانت السحب بعد أن عَلّت [٤] الأرض نحو نصف ساعة قد تبدد معظمها فى أجواز الفضاء ، وأطلّ القمر من خلالها بين وقت وآخر .

وما جاوزوا ذلك المنعرج بعدة خطوات حتى التقط سمعهم مُكاء [٥] مبعثه حقل قريب منهم لم يلبث أن تجاوبت به الحقول عن أيمانهم وعن

---

(١) الفأر (٢) رفه خفف ونفس

(٣) مستنقع (٤) العَلَل الشرب الثانى وعَلّه سقاه السقية الثانية

(٥) صفيرا

شمائلهم . فداخل الراكبين من الريبة والذعر ما الله عالم به . واستبدل مرجان بظهر الحيوان ظهر الغبراء .

وإذهم حيارى فى أمرهم انفرجت قَصَبات الذرة عن رجل قصير بطين [١] كأن طوله عرضه، قد تلثم بلثام الغدر ، و بيده عصا فى أضعاف طوله ، و بوسطه حزام أسود عريض علق به خَنجر كالهلال هو مِنجل [٢] الأرواح ومصدر الأتراح .

وقبل أن يسألوه ماخطبه صاح بهم صيحة فى ثناياها الموت : قفوا فإن لنا معكم لشأنا . ثم وثب إلى حيث الأسرى واستفسر من أنتم ؟ فرد أحد الثلاثة بصوت رزين أجش [٣] : أنا الكومى !

فعلت لفظة « الكومى » فعلها ، فتقهقر صاحب العصا خطوة إلى الوراء متعثرا فى أذيال الخيبة ولاعنا فى أغوار [٤] نفسه الكومى وتابعيه ثم دار على عقبيه ، ودار معه كَرِشُه الكرىّ البارز كما تدور الكرة الأرضية، ثم اختفى حيث بدا . واختفت فى نفس البرهة وجوه كثيرة مقنّعة كانت تُطل من بين الأشجار ، و يتأهب ذووها للوثوب والانقضاض .

سار الكومى وقد علاه من الزَّهْو مايعلو الظافرَ فى الحروب ، وسار بجانبه رفيقه ولمّا تفارقه دهشة الموقف ولا زايلته [٥] سورة القلق ، وسار خلفهما مرجان .

سار الكل مدة غير قصيرة بخطى رَتيبة ورفيقة شأن من تنتابهم

---

(١) عظيم البطن (٢) مِحصد (٣) غليظ (٤) أعماق (٥) فارقته

الهواجس وتكتنفهم الوساوس ، يرمون وقتاً بعد آخر بنظرة نحو السماء كأنما يستشفّون[1] ماوراء الحجب من الغيْب، أو يستفسرون عن مآتى مايشعرون به من ريب

ساروا وكل فى واد من الأفكار سابح ، وفى ميدان الوهم والخيال غاد ورائح . هذا يتذكر أسماء عزيزة ويتصور وجوها محبوبة تهش للقائه وتعبِس لفراقه ، وذاك يتمثل رجالا تترقب طلعته ، وتستريث[2] أوبته قد أخذ منهم القلق وضرب بهم اليأس فى مجال المظانّ ، وثالث يسبح فى عالم آخر ويصيح فى أعماق نفسه : تُرَى من يكون ذلك المجلَّل[3] بردائه ؟ إن سيدى لم ينفُض إلى شيئاً من حاله، وإنه ذو سطوة وبأس. وإلا فلماذا يهابه العتاة الجبابرة وعهدى بهم لايرهبون المنايا ، وتفعل بهم كلماته مالايفعله السحر ؟ أهو ربّ عوارف[4] عليهم فظهروا بمظهرهم اعترافا بفضله واقراراً بنعمته ؟ أم هو من القساة السفاحين فخشُوا بأسه ولم يعارضوا رغبته ؟ وإذا كان يَمُتّ إلى هذه الطائفة بصلة فهل يبيّت لسيدى سوءا أو يُضمر له غدراً ؟ إنه لايستطيع مسه بأذى مادام فىّ عرق ينبِض. اللهم لقد عميَتْ[5] علىّ سبل التفكير، فما أستطيع لهذا اللغز حلا .

هذا ما كان يمر بخاطر ذلك العبد ويجول بمناحى نفسه ، وما أحسب الطبيعة إلا أرادت أن تسخو على عقله بما ضنّت به على جسده، فقد استبدلت

---

(١) يستطلعون (٢) تستبطىء رجوعه (٣) الملتف (٤) جمع عارفة وهى الصنيعة والمعروف (٥) خفيت

نقاء سريرته ببياض بشرته ، وصفاء قريحته بجهله وأميته ، وحبته الوفاء والإخلاص ، وإن سلبته الحسن ورقة الاحساس .

يالله ! كم فى الحياة من رقيق يسود الأحرار ، وكم تضم تحت جناحها من صعاليك يعظمون عند الاختبار ! !

وأخيراً نبهه وقع السنابك من غفلته ، فأرى قدمين قد تطاير منهما الوَحَل ، ومضى الجماعة فى طريقهم بسلام . ولم يحدث لهم مايعكر الصفو أو يعوق المسير، اللهم إلا حادثا أشبه بحادثهم الأخير ، إذ ماوصلوا إلى « ميت القرشى » حتى راعهم منظر عُصبة من جنّ الإنس قد انبرَوْا[1] لهم مُقعين إقعاء الوحوش الضارية توشك أن تنقضّ على فريستها، ثم ناهضين معا بوجوه لم تعلُها القُنَع، كأنهم رأوا فى التقنع سُبّة وعاراً ، وفى التنكر جبنا واحتقارا ، شاهرين أسلحة يلمع من فِرِندها الموت، وهازّين عصيا كأن لها ترة[2] عند الجاجم .

وشعر صاحبنا بخُرق المُنبرين وهَوَجهم، فما زاد على أن قال بصوت يرسل الرعب إلى الأبدان: افسَحُوا فى الطريق أنا الكومى ! !

فنكصوا على أعقابهم يحرُقون الأرْم[3] إلا قَزَما[4] تلوح عليه مخايل الاستهتار[5] والبَرَم[6] بالحياة لم يزايل مكانه بل قلد الناطق متهكما « أنا الكومى » ثم صاح بصوت ماؤه اليأس : لقد قطعتَ أرزاقنا

---

(١) تعرضوا (٢) ثأرا (٣) يحكون الأضراس بعضها ببعض من شدة الغيظ (٤) القزم الصغير الجثة (٥) عدم المبالاة (٦) برم به سئمه

واستأثرتَ بكل غنيمة، فهل كل شيء لك طِلْق(١) وعلينا محرّم .

ثم هوى إلى الأرض يتخبط فى دمه إذ أصابته رَصاصة فى سويْدَاء قلبه من ذلك الراكب الأثيم

أطلقت هذه الرصاصة المُصمية(٢) ولا يعرف أحد كيف أطلقت على ملأ من الأشرار الفجّار والشجعان الجرآء وعلى واحد من زملائهم ، فهل أطلقت منهم لسانا بكلمة أو حركت يدا بضربة ؟

ما هذه السطوة الخارقة التى تَعُزّ(٣) سطوة القاهرين ؟ وما تلك الإرادة الحديديّة التى تفُلّ عزَمَات الصادقين ، وتذوب الشياطين أمامها ذوبان الملح فى الماء السخين؟ إنه لسر عجيب ذلك الذى كان بين الضارب والشهود لم تشأ الحوادث أن تكشفه لمرجان وسيده الآن

---

(١) حلال (٢) القاتلة (٣) تغلب

obeikandl.com

الفصل السادس

بين فكّى الموت

انسحبت العُصبة بقتيلها ، ومر القاتل ومن معه كأن لم يأت أمراً نُكراً ، أو يُثرْ فى النفوس سخطاً مُرًّا . ولا يعلم إلا الله ما الذى كان قائما بنفسه ودائرا بخَلَده

وهاهم أولاء المسافرون بعد اللّغوب والنصَب وبعد ما عانَوا من الأخطار يدنون من قبلتهم ، ولكن بين رعد السماء وبرقها ، وزمجرتها ووعيدها ، وتحت مطر وابل [١] وسَفِيف لاذع [٢] .

غامت السماء ، وغابت ذوات الضياء ، فانغمس الكون فى ظلام دامس [٣] وسار السارى فى طريق طامس [٤] . فهل كُتِبَ عليهم أن يشتفّوا [٥] الكأس حتى الثُمالة [٦] ؟ أو هل لعناصر الطبيعة القاسية لديهم تِرَة فهى لا تتركهم أو تبوء بدمها [٧] ؟ لقد طفح الكيل حقا ، ولم يبق فى جعبة الصبر مِنْزَع [٨]

أهرعوا [٩] فى ذلك الدّيجور [١٠] على غير هدى يخبطون خبط عَشْواء حتى وصلوا إلى ترعة « الصافورية » . وهناك تريثوا وأخذوا

---

(١) غزير (٢) ريح باردة (٣) شديد (٤) غير واضح (٥) يشربوا (٦) النهاية (٧) تثأر لنفسها (٨) المنزع السهم (٩) أسرعوا (١٠) الظلام

يتحسّسون[١] المعبرَ حتى كشفه مرجان على كَثب منهم .

كان ذلك المعبر مركبا ولكن على غير شكل المراكب المعهودة، قد هجره سُكّانه ، وطار عنه شِراعه . وإن هو فى الحقيقة إلا صندوق ضخم مستطيل ، تعلوه ألواح ذات دُسُر[٢] لا تحمى حافاتُها الراكبَ من الهوىّ فى الماء إذ ليس عليها أسوار ، قد أعد لحمل الانسان والحيوان معا ، يسير بجذب حبل يربط شاطئى الترعة مثبتٍ فى قائمتين من الخشب شرقا وغربا .

وكان هذا المعبر على تواضع تركيبه وخلوّه من فن بناء السفن نعمةً من نعم الله على كل عابر ، ولم تكن أهميته فى ذلك الوقت الذى نكتب عنه أقل من أهمية القنطرة المقامة فى مكانه الآن .

أخذ العبد والجواد « سيسى » مكانهما من المركب ، ولحق بهما السيد مترددا ومتلفتا ، وسرعان ما ألمّ العبد بما فى دخيلته ، فتقدم خطوة والحبل فى قبضته ، وهمس فى أذنه : إنه لن يَشْرَكنا فى عبرتنا . إنّ صديقنا قد هجرنا لأمر فى نفسه ، وإنى ألمح شبه جواده يرعى هناك .

وكأن الطبيعة أبت إلا تحقيق قالته[٣] فخطف[٤] البرق حينئذ خطفة كشفت عن حصان بلا راكب واقفٍ حيث أشار الخادم على مقربة من دَفْواء[٥] تُظِلُّ أشباحا تتهامس .

---

(١) يبحثون عن (٢) جمع دسار وهى خيوط تشد بها ألواح السفينة وقيل هى المسامير (٣) مقاله (٤) لمع (٥) شجرة كبيرة

وكانت تلك النظرة السريعة كافية لإشعار السيد بخطر التريث فقال بصوت مضطرب « هيّا ! »

وما كان مرجان ليقف منتظرا تلك الـكلمة، فجذبة واحدة من يديه الأيدّتين[١] حملتهم إلى منتصف المجرى قبل أن تجرى «هيا» على لسان صاحبها .

وفى هذه اللحظةِ سمع صوت صُور[٢] ، يحمل فى أمواجه الويل والثبور[٣] ، ورُئيت أشباح كأنها منبعثة من قبور ، تَنْسِل إلى الشاطىء حيث يتـكبّدون[٤] .

ارتعش الحبل فى يدى العبد على الرغم من تجلده واستبساله إذسرت إليه رِعشة الأعصاب ، وعلا محيا الرّبّان صفرةُ الوجل (إن صح هذا التعبير عن مرجان) وشعرا بالخطر يضيق عليهما الحصار . ولـكن ذلك لم يكن ليثنى عزم الرُبّان عن اللحاق بالشاطىء كأنه صخرة النجاة .

وماذا يفعل المسكين وقد قُطِعَتْ عليه السبل ، وغدا كما يقول المثل الانجليزى « بين الشيطان والبحر العميق » ؟ وهل يُجديه التقهقر نفعا ووراء الأكمة ما وراءها ؟ إنه آثر أن يرتمى بين فكى الموت مستسلما للمقادير وراكنا إلى ما قد تلده الحظوظ من فرص .

صهل الفرس الـكريمُ مسمعا صوت سنابك قد أعياها الصبر وحنّت إلى أديم الغبراء حيث المُضطَرَب[٥] واسع، ومجال الحرية فسيح، ومتمسحا

(١) القويتين (٢) بوق (٣) الهلال (٤) يقصدون (٥) المجال

بسيده كأنما يَرفوه[١] من رعبه ، وكأن لسان حاله يقول : امتط متنى وأنلنى ظهر الثرى ثم دع أى إنسان يلحق لى بغبار !

وما صدق الأخرس لو حُمَّ[٢] له أن ينطق فعلى قِيدِ رَتْوَة[٣] واحدة منه وقفت ساقان طالما لحقتا بمثار نقعه[٤] .

لم يمهل الأشرار غنيمتهم حتى تصل إلى أيديهم ، وهى لابد واصلة بعد بضع ثوان ، بل رئى أحدهم يحتضن الماء على برودته و يقبض على حافة المعبر محاولا الوثوب فوقه . ولكن يد مرجان حالت دون مراده إذ عاجلته بضربة من العصا على أم ناصيته فهشمتها تهشيما وسرعان ما ضمه جوف الماء الذى لا يرحم

وعندئذ صاح رفقاؤه صيحة الوعيد وهزوا أذرعا تشتاق لتمزيقه . وصل المركب أخيرا بحمولته ووثب مرجان ولكن لا إلى الشاطىء بل إلى أحضان بعض الشياطين المرَدة و إن شئت فإلى حضن الموت !

وقبضت يد فولاذية على معصم الشيخ الذى لم تبد عليه أيّة علامة للمقاومة بل اكتفى بترديده بين وقت وآخر : وماذا تريدون من رجل ضعيف مثلى لا يملك لكم نفعا ولا ضرا . ؟

« حقيقة إنك لا تملك الآن لنا ضرا ولكنك تستطيع أن تنفعنا » انبعثت هذه الكلمات من فم رجل تلوح عليه أمارات السيطرة والنفوذ وتبدو مخايل[٥] القيادة .

---

(١) يسكنه (٢) قدر (٣) بعد خطوة (٤) متطاير غباره (٥) أمارات

شعر الشيخ بشيء قليل من الاطمئنان على حياته وقال : ولكن هل لسيدى أن ينبئنى كيف يمكننى نفعه ؟ فأجابه الآخر بصوت هادئ رزين : بتسليمك كل مامعك من أوراق . فقال ولكن إذا تبين أنى خِلو مما ترومون فهل تطلقون سراحى وسراح خادمى ؟ فأجاب الآخر : عندئذ ننظر فى الأمر .

وإشارة إلى القائد وإلى اثنين من جنوده جعلتهم يقبضون على أسيرهم ويفتشونه تفتيشا دقيقا أسفر عن خيبة موجعة ، ودهشة مروعة

وكأن الآمر لم يثق بتابعيه فتقدم وأخذ بنفسه يعيد التفتيش قالبا الجيوب رأسا على عقب وممزقا الثياب فى عدة مواطن ولم يثمر تعبه إلا ما أثمر تعب الآخرين قبله .

وحينئذ سمع صوت خلفه يقول : وهل فتشت خادمه ؟ لعل مانبغى معه،وإن لم يكن معهفما أحسب إلا أن ثالثهما (يعنى سيسى) قد ابتلعه .

فأمر الرئيس ثُلّة من أعوانه بإحضار الخادم والتنقيب عن تلك الأوراق فتفرقوا فى كل ناحية يفرّون عنه[1] ولكنهم لم يجدوا له أثرا فى أى مكان كأن الأرض انشقت وابتلعته أو كأنه صَعِد إلى السماء بسلم .

وبعد لأىٍ مَا رجعوا بخفّى حُنين غضابا أسفين وقالوا « لقد فر »

وحينئذ صاح الوكيل : وكيف وقد تركته فى مخالب ثلاثة من رجالنا الغلاظ الأشداء ؟ وما توقعت أن نِضْو[2] أسفار وفَل[3] زوابع وأمطار

---

(١) يبحثون عنه (٢) النضو المهزول (٣) الفل المنهزم

بل جريحاً نَهَكَه العراك يتغلب على تلك السواعد الفتيّة و يستطيع الفرار بحياته اللهم إلا إذا كانوا أطفالا ..... فالويل لهم منى !

وهنا تقدم أحد المبعوثين قليلا وقال : هوّن عليك أيها الوكيل فلن يلحقهم منك ولا منى ويل .

فغضب المخاطب غضبة المجنون وقال : وماذا تعنى أيها الأبله ؟ فقال أعنى أنهم أبعد من أن تصل إليهم أيدينا بعقاب فان « دعبسا » دَرَجَ[1] فى كفن من الماء كما درج أخوه « سعيد » منذ برهة كأنما كانا على ميعاد وأما « الببّ » فقد أدركناه وهو يلفِظ النفس الأخير والدم يَذِمّ[2] من جنبه وأنفه ، وأما « وحش » فلا نعلم من أمره شيئا ، ولعله لحق بزميله أو لعله فى أثر ذلك العبد يطارده

ثم سمع صوت من خلفهم كأنه صوت سقوط جسم فنظر الكل و إذا « بوحش » ممدد على الأرض تفيض روحه وتتطلب من الله أن يغفر لها ما ارتكبت من آثام ! !

---

(١) مات (٢) يسيل

الفصل السابع

الأسنان الذهبية

صمت المشاهدون برهة مكتئبين لفقدان أربعة من إخوانهم الباسلين ثم سمع صوت الوكيل مرة أخرى والأسى يقطُر من نَبَراته يقول : أيها الشجعان ، أقرأ فى وجوهكم آياتِ الحزن لما حَل بأفراد منكم ، وأسمع من أفواهكم آهاتِ اللوعة والحسرة عليهم . وحق علينا جميعاً أن نَرثى لحالهم وحال أهليهم ، ولكنكم ستكونون أشد حزناً وأسفاً وأعظم غضباً حين تعلمون أنا فقدنا أيضاً فى هذه الليلة الحَصَّاء[1] غير هؤلاء الأربعة يداً باطشة وقلباً فياضاً بالحب لكم والإخلاص لمهنتكم ، وأحد وكيلَىْ عصابتكم . وأن اليد التى غالته[2] هى نفس اليد التى غالت إخوانكم الأربعة ! !

وحينئذ تعالت صيحات الغضب والسخط من كل جانب وصاح الرئيس مع الصائحين : أحَقٌّ ما أسمع ؟ إن هذا لهو العجب العاجب !

قصَّ الكومى على الحاضرين جميع ماحدث ففاضت صدورهم غليان الماء فى المراجل ، وصعِد الجنون إلى رءوسهم حتى كاد يُفقدها صوابها وهرول كثير منهم فى جهات مختلفة يَعضون الشفاه ويشمون ريح الآبق[3] اللعين . وصاح الرئيس : إن هذا لأعظم مما أحتمل . آه ما أعظم اليد

---

(١) المشئومة (٢) اغتالته (٣) الهارب

التى امتدت إليه ، ولـكن ما أقواها وأبطشها أيضاً ! !

جرى كل هذا أمام الأسير المغلوب على أمره، وكان القمر قد غالب السحب حتى غلبها ، وبدا يحفُّه الجلال ، كأنه أبى إلا أن يكون شاهداً على مايهضمه الليل فى جوفه ، وما يرتكب تحت جُنْحه . وانغمرت الأرض مرة أخرى بردائها الأبيض ، وكشف ضَوء البدر عن رجل جاثٍ على ركبتيه تحت يد قوية تكاد تضغط الحياة منه ، وبين نفر من النمور الكاسرة تنتظر الإشارة لتمزيقه إرْباً إرْباً . يطلب الرحمة ممن لم يتذوق لها طعماً ، فـكان كمن يبغى الماء من الصخر ، أو يستنطق أبا الهول فى ذلك المَهْمَهَ القفر .

ازداد الضغط على كتفه فصاح : خذوا كل مامعى من نقود وملابس خذوا جوادى الأصيل ، فـكل ذلك لـكم بِلٌّ[1] ولـكن أبقوا على حياتى فان ورائى أطفالا ليس لهم سواى عائل .

فتحركت شفتا الجبل الضاغط : هذا كله حسن ولـكن الذى له قيمة كبيرة عندى إنما هو الأوراق ، فأين هى ؟ وشفَع لسانه بصفعة جعلت أذن البائس تطنُّ طنيناً . ومكث برهة لايُحير جواباً كأنما أصابته غَشية ثم نبَس متضوِّراً : إنها مع الخادم فخذوها .

فأجاب الآخر : ولـكن العبد قد فرَّ بها . فصاح وقد انطفأ آخر شعاع من أمله : إذن فأجهزوا على ولا تُبقوا فى هـذا العذاب المبرِّح

---

(١) مباح

والأمر لله الواحد المنتقم ! ثم أغمض عينيه كمن لايستطيع رؤية الضربة القاضية .

ورئيت فى تلك اللحظة سكينتان تهبطان نحو سَحْرِه[١] ونَحْره[٢] ، ولم تكن إلا طرفة عين ويسبق السيفُ العَذَل لولا أن امتدت يمين حالت دون وقوع الجريمة .

وما كانت تلك اليد غيرَ يد الكومى الذى لم يشأ لأمر فى نفسه أن يراق دم رفيقه فى السفر مكتفياً بتجريده من أربعمائة من الأصفر الرنان .

لحق الكومى برئيسه الذى كان يذْرَعُ[٣] الشاطىء ذاهباً وآيباً كرجل شفَّه[٤] الفكر العميق ، فلما كان لصيقه صاح الرئيس : لقد خسِرْنا الصفقة ، ولا أدرى من المسئول عن ضياعها ، وخسرنا فوق ذلك رجلا هو أعز على من نفسى ، ولا أدرى هل نفس ذلك الدنيوى الرِّبوىّ كافيةٌ للتكفير عن كل هذه السيئات . وإذا لم نستطع الحصول على تلك الوثائق قريباً فعلى سمعتنا العفاء[٥] وعلى مكافأتنا ألف سلام .

فزفر الكومى قائلا : إن الأمر أهون مما تتصور ، ولولا أن القضاء شاكسنا فى هذه الليلة العاثرة لكانت تلك الوثائق فى حَوْزتنا الآن ولو علمتُ أنها كانت فى حيازة ذلك العبدالملعون لما ترددت فى قتله ، فلقد لاحت لى فى الطريق عدةُ فرص للخلاص منه .

ولكنى لم أشأ أن أقتنصها لاعتقادى أن ذلك لا يُجدينا كثيراً أما

---

(١) رئته (٢) منحره (٣) يقيس (٤) هزله (٥) التراب

obeikandi.com

وقد فرّ بها الآن ، وقارف[١] ما قارف من آثام ، فذرنى وحدى أنصب الشرك له ، وأدبّر لنيل تلك الأوراق . وما دامت المصانعة لم تُنلنا ما نهوى فليس أمامنا إلا طريق الشدة والقتل . قسما لأخوضنّ المعركة وحدى ، فإن انتصرت فقد كفّرت عن خطأ سابق ، وإن أخفق المسعى فلستُ جديراً بأن أحمل لقب «الكومى» الذى حمله أعمامى ، والذى رنّ فى الآفاق رنيناً ، وسيّر الرعب إلى الأبدان تسييراً .

فابتسم الرئيس عند ذلك ابتسام الفخور برجله ، ووضع يده على ذراع محدثه قائلا : إنى لاأنكر بسالتك ياعيسى ، ولا أشك فى تفانيك فى خدمتك ، وأربأ بنفسى أن تحمّلك وِزراً ، أو تعزو إليك تقصيرا ، ولقد أصبحت أعتمد عليك بعد فراق محبوبنا « بخيت » فى البعد والقرب ، اعتماد الملاح على نجم القطب ، وأثق بك ثقة الزبيدى[٢] بالصمصامة[٣] ، والحارث بالنعامة[٤] .

والآن مارأيك فى ذلك اليهودى عباد الدينار ؟ فقال : رأيى أن تطلق سراحه ، فإن ذلك خير وسيلة لتحقيق أربنا ، وإن قتله يفقدنا مساعدته لنا ولبعض رجالنا ، فضلا عن أنه يثير الظنون حولنا ، وحسبُنا ما سلبناه إياه الليلة وما إخاله إلا سيذوب حسرةً على فقدانه ، فإن هؤلاء المرْبين حياتهم فى مالهم ، ومثل الجنيه فى قبضة يدهم مثل العظم فى فم الكلب دون نيله نهشُ الأعضاء .

---

(١) ارتكب (٢) عمرو بن معد يكرب الزبيدى (٣) الصمصامة السيف (٤) النعامة فرس للحارث بن عباد

فقال أسرع إليه إذن ، فانى أخشى أن تكون الأيدى قد اختطفت روحه فقال مُهرعا نحو الأسير : لقد أوصيتهم به خيراً .

وما وصل إلى مكان زملائه حتى رآهم قد أحدقوا بجسم مطروح على الأرض يسيل الدم من شِدْقيه ، فصاح : هل خالفتم أمرى وقتلتموه ؟ فقال أحدهم بهدوء : إنا ياسيدى لم نعص لك أمراً ، و إنما استحسنّا ألا نترك فاه مملوءا ذهباً فاقتلعنا أسنانه ، ولو أتحفنا بها عن طيب خاطر لما امتدت إلى فمه أصابعُنا .

و بسط المتكلمُ كفه المقبوضة ، فأرى قطعًا ذهبية تتلألأ فى ضوء القمر . فلم يتمالك الكومى نفسه عندئذ من الضحك .

وكان الرئيس قد وصل ،فأخبر بالأمر ، ولكنه بدل أن يبتسم مال نحو الطريح فجس نبضه ، ثم نهض قائلا : لايفوتنكم قبل أن تغادروا هذا المكان أن توارُوا جثث زملائكم الذين ضحّوا بنفوسهم فى سبيل الواجب .

الفصل الثامن

ميت غمر

كانت بلدة ميت غمر فى الوقت الذى وقعت فيه حوادث روايتنا تختلف كل الاختلاف عن ميت غمر الحاليـة منظراً وهندسة وطرقا ومساحة وأحوالا .

أزقةٌ طويلة ضيقة تلتوى هنا وتستقيم هناك ، وحارات ذات عِوَج وأمتٍ[١] تغوص القدم فى أتربتها وقُمَاماتها[٢] ، تَـكْتِفُ[٣] الغريبَ الغافل نواتئُ من حيطانها ونوافذها ، وبيوت عالية وأخرى غير عالية لم تعرف للاتساق معنى ولا لقواعد الصحة أثرا . تنـكمش إلى الوراء تارة كأن بها ذعرا ، وتبرز إلى الأمام أخرى كأنها تستطلع خبرا ، وقامت معظم المبانى متلاصقة على أرض كـكُفَّة الحابل[٤] تعرف الآن « بوش البلد »

وما تجمعت وتلاصقت بهذا الشكل لضيق فى الرقعة ، ولـكن ليشدَّ بعضُها بعضا حين يُدق ناقوس الخطر . وكأنما أرادت أن تتخذ من النهر جُنَّة[٥] لنفسها ، فارتدت حتى شغلت « قطاعا » من الأرض قوسه ماء النهر ، و بذلك حمت مؤخرتها وجناحها الأيسر من هجمات العصابات الشقية إن عُدَّ ذلك حماية

---

(١) انخفاض وارتفاع (٢) كناساتها (٣) تضرب الكتف
(٤) حبالة الصائد (٥) وقاية

وقامت ترعة «الصافورية» على بعدها القليل مقام حامى الجناح الأيمن و بقى الصدر وحده محتاجا للدفاع

هذه صورة تقريبية رسمناها للقارىء ليعرف مبلغ الذعر الذى كان ينتاب السكان فى ذلك الحين . وفى يقينى أنها صورة معبّرة عن حقيقة الحال فى كثير من بلدان ذلك المهد المرعب

وكان يقوم على رأس كل حارة من تلك الحارات الطويلة ذات المدخل الواحد بوابة ضخمة متينة تنباق[1] إلى الداخل عند كل صباح ثم تعاود دورتها نحو الخارج بعَيْدَ حلول المساء ، درءاً لكل طارق أن يَلِج ومقاومة لما عسى أن يهدد السكان من خطر

ووراء ذلك الحصن كان يجلس خفير يشاركه أحيانا بعض المتطوعين الشجعان من قاطنى الحارة . وكانت وظيفة ذلك البواب ألا يسمح لمخلوق أيا كان أن يمر بعد الميقات المعلوم ولو كان مهددا فى حياته أو فريسة لمرض طارىء ، وأن ينذر السكان بنفخ بُوق معلّق إلى كتفه إذا ناب خطب أو حُمّ قضاء .

كانت ميت غمر كغيرها عرضة لهجمات الأشقياء الفينة بعد الفينة[2] نُهْبى[3] للحوادث المروّعة . فلقد تعالم[4] الكلُّ ثروتها وطمع اللصوص فيها فى أرضها من كنوز ، وفى جدرانها من مال مدفون .

---

(١) تنفتح (٢) الحين بعد الحين (٣) غنيمة (٤) علم

بيد أن ماعرف عن أهلها من البسالة النادرة وحماية الذِّمار[١] طالما صد هجمات المعتدين ، ورد كيد الخائنين ، ودَمَّر[٢] أولئك السفاكين دَمْر المسلّح لقرنه الأعزل

ولكن هل آبُوا من كل تلك الملاحم الدموية بدون أن يُثَلَّ[٣] واحد منهم للجبين ، أو يُقطع من ثان الوتين[٤] ، أو يتزايل عضو من الأعضاء ، أو يُنكَب برىء من الأبرياء ، أو تساق ماشيتهم إلى الفضاء ، أو يسلب ثرِىّ من الأثرياء ؟

اللهم إن التاريخ والعدل يقضيان علينا أن نجيب « لا » فلكم أسفرت المعارك عن هَامٍ[٥] متطايرة ، وأجسام مُخْتَرمة[٦] ، وأشلاء[٧] مكدّسة وأرواح سائلة ، ودماء متلاطمة

ولكن هل يغلو شىء فى سبيل الذّبّ عن الشرف أو يعزّ نفيس دون صون مساقط الرءوس

إيهِ ميت غمر العزيزة ! كم لك فى الماضى البعيد من يوم مشهود تقشعر من هوله الجلود ، وكم لك إبّان النهضة الوطنية من موقف مجيد سطّر لك فى صحائف الخلود !

وأين كانت عيون رجال الشرطة فلم تبصر تلك الجرائم ترتكب

---

(١) مايلزمك حمايته (٢) دفع (٣) يصرع (٤) عرق القلب إذا انقطع مات صاحبه (٥) رءوس (٦) مقتطعة (٧) جمع شلو وهو العضو

ولم تحتط للأمر قبل وقوعه ، بل تركت حظيرة الأمن تُعلى ويعبث بها العابثون ؟

وأين كانت أيدى القضاء ملاذِ المستجير وقبلة المظلوم فلم تمتدّ للقبض على العُتَاةِ الفَجَرة وتقذف بهم فى أعماق السجون ؟

وأين كانت القوانين الصارمة فتثأرَ لما أُزهق من الأرواح وتأخذ من الظالم للمظلوم ؟

إنا لانجشّم مِرْقَمنا[1] مئونة الرد على تلك الأسئلة المُحْرجة ، فالجواب عنها مفصّل فى صفحة التاريخ العادل الذى لايحابى حاكما ، ولا يرحم ظالماً فليطالعها من شاء .

كانت ميت غمر كما سطّرنا مطمحَ أنظار اللصوص الذين ضاقت فى وجوههم سبل الكسب الحلال ، فعمدوا إلى نيل المال بالقوة من طرقه المحرّمة .

ولِمَ انفردت دون غيرها بتوالى الغارات عليها ؟ ألِأن الطريق إلى اختراقها أيسر ؟ أم لأن سكانها أقل وأجبن ؟ أم لأن السلاح فيها معدوم أو مغلول[2] ؟

اللهم إن شيئاً من ذلك لم يكن ، وإنما المال هو الذى هدّها بالدّمار ، كقوة الأخرَق قد تجره إلى الخَسار .

ومن أين أتى لها ذلك المال الوفير ياترى وقد ضرب الفقر بجِرانه على

---

(١) لا كلف قلمنا (٢) مكسور

كثير من البلدان ، ومشت المتربة[1] فى آلاف من الأزقة والشوارع وطوّقَ العَوَز أعناق الزارع والتاجر والصانع ؟

إن الجواب على ذلك هين ، على كل من ألمّ بطرف من تاريخ ذلك البلد العجيب ، وإن يَرَاعتنا لاتتردد فى تلخيصه فى كلمتين : « من الرِّبا » !

حقا لقد ركِب البلد متن الشّطط فى ذلك المضمار ، وتملك حبُّ المال الكبير والصغير ، والحافىَ والناعل ، حتى خيف أن يعبدوه من دون الله فى ذلك الزمان .

ففى البيت والحانوت والشارع ، وفى اليقظة وعند الهَجْعة ، وفى كل مناسبة وعند كل ملمّة ، لايستطيع السامع أن يحول دون سمعه وطرق هذه الكلمات : لقد أخرجت المائة مائة وعشرين ، وقبضت المائة مائة وثلاثين ورهنت كذا على خمسين ، وتنازلت عن كذا رأفة بالمساكين ، وأقرضت الجنيه فى نظير قرش فى اليوم إلى غير ذلك مما مُلئت به أفواههم ، وشُغِلت به قلوبهم !

كان مصدرُ ذلك الشر كله رجلا فى سَحْنة[2] الشيطان ، وجسم عجيب البنيان ، يسمى « الغريب » . وما أدرى هل أسرة الغريب الحالية تَمُتُّ إليه بصلة . أطغاه الربا ، واستولى على لبه الشره والحرص ، فجمع مالا طائلا ، وحصّل دنيا عريضة

---

(١) الفقر (٢) هيئة

وسرت العدوى إلى الجنس الرقيق ، و إن كنت لا أوافق فى إطلاق ذلك الوصف على من نحن بصدد الكتابة عنهن ، فقد كنّ خشِنات فى ملابسهنّ ومعاملاتهنّ المالية ، و إن كنّ أكثرَ من الرجال على مُعامليهن صبراً ، وأقلّ فى الأرباح شَطَطا .

وكأنه قد كُتب على كل السكان أن يعيشوا من ذلك الطريق غير المشروع اللهم إلا أفذاذاً [١] لا يخلو منهم زمان ولا مكان قد نفروا من كل محظور ، وتذمّموا [٢] من ربح غير مأجور . وما كانوا إلا نفوسا طاهرة رأوا الفتنة يندلعُ لسانها بين القوم اندلاع النار فى يابس العَرْفَج [٣] ، ولمحوا آية الله توشك أن تظهر فى عباده الفاسقين والعادلين — والفتنة إذا حلّت لا تصيب الذين ظلموا خاصّة — فرفعوا أكف الضراعة إلى المولى أن يُمهل العصاة لعلهم عن غيّهم يرجعون ، و إلى منزّل آياته يهتدون

وأجاب الله دعواتهم الخالصة ، وأخّر عنهم العذاب إلى أمّة [٤] معدودة فأملَى [٥] لهم عشر سنين ، ولكن لم يرتدعوا ، فسلّط عليهم من المياه المحيطة بهم طوفانا كاد يجرُفهم هم وأموالهم . ثم مَادَاهمْ [٦] عشرَ سنين أُخَر ، فما انزجروا ومضَوْا في طغيانهم يعمَهُون ، فحقّت عليهم كلمة العذاب ، فرُموا بالصواعق وأُصْلُوا نيرانا حامية أكلت النسل والحرث ، وأتت على كل سمين وغث .

---

(١) أفرادا (٢) استنكفوا (٣) نوع من الشوك (٤) حين
(٥) أمهلهم (٦) أملى لهم

وقع ذلك الانتقام الإلهى فى يوم خميس من سنة عشرين وثلثمائة وألف من الهجرة ، أى بعد عشرين سنة من وقوع الحوادث التى نحاول وصفها للقارئ الكريم . ولولا ما بين العصرين من الأسباب الوثيقة لما استطردنا إلى ذلك الحريق الهائل « حريق ميت غمر » فإنه بعيد عن غرضنا .

وكانت تلك الحادثة نعمة للبلد فى ثوب نقمة ، فقد أدرجت فى كَفَن من اللهب أفرادا تملّك منهم الشيطان ، ويُئِس من صلاحهم ، وطَهّرت نفوسا مما عَلِق بها من الأرجاس (١) ، ونفّرتهم من وساوس الخَنّاس (٢) الذى يوسوس فى صدور الناس ، وقوّضت أبنية هى أشبه بالقبور منها بالدور ، وخلقت من الأزقة والحارات طرقا فساحا ، وأوجدت ليد التنظيم مجالا .

وقصارى القول أنها أنشأت البلد إنشاء جديداً ، وجعلت له مستقبلا بين المدن سعيداً .

---

(١) الأقذار (٢) الشيطان

الفصل التاسع

وصيّة المحتضرة

فى حارة من تلك الحارات الملتوية التى التهمتها النار بعد عشرين سنة فيما التهمت تعرف بحارة « الشيخ مِهَنّ » ، وعند رأس أول عطفة على يمين الداخل قام بيت من ثلاث طبقات أحمر اللون قد أكلت عناصر الطبيعة من طِلائه ، وعَبِثت يد البلِى ببعض حيطانه فتركت شقوقا هنا وهناك تحكى الثعابين ، وثقوبا كبيرة وصغيرة عشّشت فيها العصافير .

يشعر الداخل بعد أن يجاوز عقبة الباب بأنه داخل فى قبر مظلم لا بيت يسكن ، ويصعَد إلى منْخِريه رائحة تشبه ما ينبعث من الإصطبلات ويلاحظ على يساره حجرة صغيرة يلوح عليها أنها حجرة خادم بها مقعد خشبى طويل يصلح للنوم والجلوس عليه فروة خروف ، فرشت أرضها بالحصير ، وفى زاوية من زواياها كرسى أفقدته الأيام إحدى أرجله ، يحمل بعض فِنْجَانات وأطباق ، وتحته بُلْبُلة [1] صغيرة وأخرى كبيرة وغير ذلك .

يلمح عابر الدِّهليز أمامه قاعة مظلمة لا منفذ بها غير الباب لا يُشك

---

(١) كوز فيه قناة إلى جنب رأسه (بكرج)

فى أنها إصطبل للخيول ، و بين هذه وتلك صعد سلّم خشبى ذو درجات ضيقة تحمل الصاعد إلى ممرّ صغير يصل بحجرتين كبيرتين نوعاً ما ، ثم يُريه طبقة أخرى لا تختلف عن سابقتها كثيراً منظراً وترتيبا . وأمام البيت شجرة توت ضخمة قد مدت أغصانها إلى نوافذ البيت .

ربّ هذا البيت رجل سلَخ الخمسين من عمره،ولكن لم ينل منه كرّ القرّتين [١] كثيراً ، أبْدَح [٢] القامة ، أملَج [٣] البشرة ، ليس بالبدين ولا الهزيل،مخروط الوجه واللحية [٤] ، مقصوص الشارب،مقرون الحاجبين غزيرهما، جاحِظ العينين واسعهما ، عَبِثَ البلى بأسنانه فاستبدل بها أسنانا ذهبية .

وكان مُعْيِلا رزقه الله ستة من الذكور لا يزيد عمر أكبرهم على اثنتىْ عشرةَ سنة ، و بنتا ناهزت الثامنةَ عَشْرةَ .

يلوح على محيَّاه أنه دائم التفكير والحساب كثير الوسواس والبلابل، وهو على إمساك به وحرص على الدنيا كثير الحَدَبَ [٥] على أولاده عظيم المحبة لهم ، و إن كان بالفتاة أكثر وَلوعا وعليها أكثر إشفاقا .

كان هـذا الرجل فى أول أمره « خياطا بلديا » يأكل من عرق جبينه ، و يكدَح لإمساك حَوْبائه [٦] . تزوج بأم فتاته وعاش معها عيشة

---

(١) الغداة والعشى (٢) طويل (٣) أسمر (٤) فى وجهه طول وفى لحيته قلة (٥) العطف (٦) نفسه

ضَنْكاً ولكنها لا تعتبر غير سعيدة ، ثم فارقته تلك الزوجة الفراق الذى لا لقاء بعده بعد أسابيع قليلة من وضعها .

لما علمت المسكينة أنها قد أنافت على الرحيل من هذا الوجود دعته إلى جانبها وقالت : لم يبق يا محمد إلا دقائق وتصعد روحى إلى خالقها ، وإنى أوصيك بوحيدتنا ، فلا تهملها بل اجتهد أن تكون حياتها أسعد من حياة أمها ، ثم أمسكت ذراعه بيدها اليسرى ومدت الأخرى تحت فراشها فانتزعت صُرَّة بيضاء ، ثم نهضت متحاملة على ذراع بعلها وحدَّقت إليه ببصرها وقالت بصوت المحتضَر « خذ يا محمد » ومدت إليه يداً ترتعش .

فعرا الرجلَ نوعٌ من الذهول وأبدى شيئا من التردد . فقالت : خذها فهى نقود . . . ثلثمائة جنيه ورثتها عن أبى . . . ولم يعلم أحد بمخبئِهَا إلى الآن . . . ادَّخرتها لوقت الحاجة . . . فسامحنى يا محمد إذا كنت دَسَّيتك [1] أمرها . . . استعن ببعضها في قضاء لُبانتك [2] . . . وجمّل بنيتى المسكينة ببعضها . . .

ثم اعترتها قِلة [3] الموت فصاحت : علىَّ بعزيزتى . . لأتزوَّد منها بنظرة . . . آه . . . ما أصعب الفراق ! . . .

فأسرع الزوج المصعوق إلى حيث الوليدة وكانت بمهدها تصيح

---

(١) كتمتك (٢) حاجتك (٤) رعشة

وتخبط بيديها ورجليها ، فحملها . وما وصل فراش المحتضرة حتى كانت قد فارقت الحياة .

* * *

مضت الدَّوْرات تَتْرى ، وأخذ شأن ذلك النَّاصح [١] الخامل ينبهُ فصافحه الجَد ، وأقبلت الدنيا عليه ، وناهيكَ بها إذا أقبلت ، وغامر بما عنده فى سوق القطن فخرج منها بصفقة رابحة . وكانت تلك المغامرة الأولى والآخرة من نوعها ، فانه لم يجرؤ أن يخاطر بمكسبه بل عضّ عليه بالناجذ وعَبِدَ [٢] من مهنته فطلقها ، ورسم له طريقاً آخر فى الحياة .

رأى أن يَبنى على أخت زوجته ففعل ، قافياً أثر حياته الأولى خطوة خطوة كأن الفقر لا يزال حليفه ، فلم يغير من مسكنه ولا من طرق معيشته بل بالعكس زاد شرههُ وضَفِنَ [٣] إلى الدنيا كل الضَّغنِ . ولم يبد فى مظاهر حياته أثرٌ من نعم الله المغدَقة اللهم إلا فى شرائه قَيْنا [٤] أخنى الدهر على سيده فاضطُر إلى بيعه .

دخل عثمان وولده مرجان فى خدمة مالكه الجديد فقام بواجبه خير قيام ، وأظهر من ضروب الاخلاص والأمانة والوفاء والجراءة ما حبّبه إلى أفراد الأسرة جميعاً ، وجعل له منزلة خاصة لدى مولاه .

ولم تشأ المقادير أن تمهله فى حياته الجديدة أكثر من عشر سنين

---

(١) الخياط (٢) أنف (٣) مال (٤) عبدا

فساقت له من انتزع حياته من بين جنبيه لثأر قديم ودِمْن [١] كمين فأكبر الكل ميتته الشنيعة ورقّوا لحال ولده اللطيم [٢] .

قام مرجان مقام أبيه ونجلّت فيه خلاله المحمودة ، ولم تحِنْ فرصة لم يبرهن فيها على مقدار محبته لأولياء نعمته . فكان حقاً خير خلف لخير سلف .

وقف على قبر أبيه بعد أن وُورى التراب ، والدمع من عينيه ينهمل انهمال العارض السَّجِم [٣] ، وبكل عضو من أعضائه رعشة الحزن والغضب صائحاً : أيها الوالد الكريم! نَمْ في أمان وراحة ، وتمتع برضوان الله المقيم ، ولا تحسب أن دمك الطاهر طُلَّ هدَرا . فبحقِّ الجَدَث [٤] الذي يحتويك لا تنتقمن لك من القاتل الجَرِيم [٥] ، ولأشربنَّ من دمه حياً ، ولأرسلنَّه مثلا يتجاوبه الخافقان : لقد انتقم مرجان لعثمان ! !

ثم ارتمى على القبر بضع دقائق يبلّله بالعَبَرَات ، ويمسحه بالقُبُلات ثم نهض فجأة ورفع كفيه إلى السماء وقال : لقد أقسمت . اللهم فاشهد ! وانصرف .

---

(١) حقد (٢) فاقد أبويه (٣) السحاب السائل (٤) القبر (٥) المجرم

الفصل العاشر

خميرة الإثم

شبت فاطمة فشبت معها ثروة أبيها ، ولم تشارف الثامنةَ عشرةَ حتى نَيَّفت تلك الثروة على عشرين ألف جنيه .

ثروةٌ واسعة سريعة فى ذلك الدهر الغابر لا يحلمُ بها إلا كلُّ من واتته المقادير [1] وابتسم له ثغر الزمان . وحسده عليها الكثيرون من معاصريه وذوى مهنته القديمة .

ولكن هل غبطهَ على ذلك الغنى الواسع نفسٌ ورعة تقيَّة قد عصمها الدين ، وآثرت ثواب الآجلة على زخرف العاجلة ؟

ولِمَ ينفر أولئك القانعون من ذلك المال وهو زينة الحياة الدنيا ومفرّج الكروب ، ومنبع السطوة والنفوذ ، وداعية الاحترام ؟

ولِمَ يجانبون صاحبه مجانبةَ الإبل الجرباء ؟ أغيرةً منه ومن ماله ؟ أم توقياً من بطشه وسلطانه ؟ إنهم لم يفعلوا مافعلوا إلا احتقاراً لتلك الثروة وصاحبها ، تلك الثروة التى جُمعت من اليائس والمحروم والمضطرَ والمحرَج ، ورَبَتْ على عجل لامن طريقها المشروع بل من طريق الربا والسُّحْت [2] واستغلال مآزق الشدة ، وعوارض العوَز .

---

(١) وافقته (٢) الحرام

إيه أيها الهِمّ [١] لقد ملكك الشيطان ، ولجّ بك الطغيان ، وطوّحت بكَ المطامع فى كل مكان ، فهل تبوء إلا بالوبال والخسران ؟

إيه أيتها الزوجة البالية ! هل بلغكِ وأنتِ فى حفرتك كيف حَال حالُ زوجك من مَتْربة إلى سعة ، ومن خمول إلى نباهة ، وكيف تبدّلت خلاله من رضاً وقناعة ، إلى حرص وشراهة ، ومن أمن ودَعة ، إلى خوف وقلق ، ومن راحة ضمير ، إلى حساب دائم عسير ؟

ألا فاعلمى إن لم تكونى علمت أن هذا شأنُ أهل هذه الدار ، فهل له مثيل حيث تقيمين ؟

لا تجزعى أيتها الروح فى مسبَحك فما أردتِ إلا الخير ، وما رميتِ إذ رميتِ بتلك الصرّة إلى أحضان زوجك ، ولكنّ الله رمى !

ولو كُشِف لك أن ما قدمته فى ساعة حَشْرجتك ، عند آخر عهدك بالدنيا وأول عهدك بالآخرة ، سيحول دما و بوارا ، بعد أن كان ذهباً نُضارا ، لفضلتِ أن تحمليه معك إلى مَثواك [٢] الأخير حيث لا تصل إليه يد ، ولا يعرف ما آله إنسان ! !

لقد كانت الجنيهات التى قدمتِها بذرَ السوء ، وخميرة الإثم ، وجُرثومة العدوان ، وشجرة الطمع والشّره ، ومبعث الخوف لابنتك وشقيقتك ، ومدعاة الخطر على حليلك . فهل هذا ما كنت تتوقعين ، و إليه ترمين ؟

---

(٣) الشيخ الفانى (٢) مقرك

لا . لا . يا آمنة . لا يدَ لك فى هذا الشأن ؛ فإن ما قدّر كان ، فامرحي أنت فى دار الخلد ، ورَىْ نتيجة أعمالك الصالحة . وقُصْوى ما يُراد منك أن تبتهلى إلى ربك أن يهدى زوجك سواء السبيل ، وأن يمهله ريثما يكفِّر عن آثامه ويهُودَ إليه[1] . وحينئذ تخترق روحه الستار خالصة صافية ، وتلحق بروحك النقية الطاهرة .

نال ذلك الأمىّ الشهرة ولكن فى أسواق المُرْبين ، وبُسِطت كفه بالنقود لكل مُريد إلا ذوى المَسْغَبةِ الطّاوين[2] ، وفُتِح بابه لكل طارق إلا الشحاذين والسائلين ، وازدادت خبرته رغم جهله بحساب العشرات والمئين .

كنتَ لاترى غنياً محرَجاً إلا وله عليه يد ، ولاتاجراً هدده الإفلاس إلا متوسلا إليه أن يُقرضه ليدفع عن نفسه سوء الجدّ ، ولا صانعاً ولا فلاحاً إلاّ ماسحاً يده باللّثمات رجاء أن يقبل رَهينة من عُدَد أو أرضٍ على مبلغ كذا من المال .

وكان الرجل ذا كف ندية ، ونفس سخية ، لايردّ محتاجاً ولايخيِّب سؤْل سائل على شريطة أن يخضع صاغراً لارادته ، ويقبَل عن طيب خاطر باهظ نسبته .

وهكذا الدنيا تقبل لتُطفى ، وتغرُّ لتبُغى ، وتعطى قوماً لتسلبه آخرين ، وتحلو فى أفواه الطامعين لتمرّ فى أفواه اليائسين ؟

---

(١) يتوب (٢) المسغبة الجوع ، والطاوى الجائع

ولـكن على هِينَتِكَ[١] أيها الشاطّ فى طلبه ؛ المستغلُّ ضعف غيره ، فما أخذت على الدّوّارى[٢] عهداً ألا يجردك من غناك ، ولا على الغد الْحُوّل ألا يفجعك فى دنياك !

زادت ثروة الخياط فازداد على طول الأيام غرُ ماؤه[٣] ، وانتشرت نقوده فانتشرت من أجلها أعداؤه ، وكثرت رِخلانه وراء المال فبيّتت له الأسْواء ، وعمّت رقائعه[٤] وقضاياه حتى نَقم[٥] منه الأقرباء والأصدقاء ، وودّ فى بعض الأحايين لو يفتدى نفسه بما ملـكت يداه ، ويشترى روحه بماله عند سواه .

فلعنة الله على الطالب والطلب ، إن كان جمع المـال يؤدي إلى سوء المنقَلب ! !

---

(١) على رسلك (٢) الدهر (٣) مدينوه (٤) جمع رفيعة وهى الشكوى (٥) عاب وأنكر

الفصل الحادي عشر

محاربة فرس

تبدّى الفجر في جَنَبات الصبح، واستحَرت[1] الدِّيكة، وشَفيفُ البرد لم يزل كما كان عامّة الليلة، والخفير منزوٍ في ركنه مستغشٍ[2] بثيابه يَبسخ[3] في نومه ويحلم في اللصوص وسطوهم ومحالهم ومكرهم، وإذا بحركة غير عاديّة بالقرب من البوابة، تلتها هزات شديدة سرت في كل أجزائها أيقظت الحالم من حلمه المزعج.

هبّ الخفير مذعوراً، يفرك عينين قد أرْنَقَ النومُ فيهما[4] ويتلمّس عصاه وبُوقه، وصاح: من بالباب؟

ولما لم يتلقّ جوابا ازداد ريبه، وأضْعَفَ فَرَقُه[5]، وصاح مرة أخرى: من هناك؟ أجب، وإلا فانطلق إلى حيث أتيت. إن الصبح قريب، ولا داعي لإقلاق الناس من مضاجعهم.

وما أتم كلمته حتى سمع الباب يُدفع بشدة عدة دفعات متتالية، كأنما أبى الهاجمون إلا تهشيم أضلاعه، وميّز وقع سنابك.

---

(١) صاحت في السحر (٢) متغط بها (٣) يغطّ (٤) خالطهما

(٥) ازداد خوفه

فرفع البوقَ إلى فيه ، فنفخ فيه نفخات طويلة اختلطت بصهيل فرس قَلِق .

هبّ السكان من فرشهم والذعر مطوّقهم يستفهمون ماالخبر ، وقد حمل كل منهم ما وصلت إليه يدُه من آلات الدفاع من ساطور وسِكّين وغدّارة وسيف إلى أعواد حديدية وعصىّ غليظة الخ ، واندفعوا نحو البوابة اندفاع السهم إلى الرّمِيّة صائحين : ماذا عرا ياحمودة ؟ فقال بصوت يشفّ عما ألم بصاحبه : لصوص خلف البوابة !

فصاحوا جميعاً بصوت المستنكِر للخبر : لصوص فى هذا الوقت ؟ ألم يخشَوْا أن يكشف ضوء الصبح عن سَحَنَاتهم ومعارفهم ؟

وسُمِع صوت شاب متحمّس يقول : هذا لا يَعنينا كثيراً فلنستعدّ لملاقاة هؤلاء المُهوَّسين على كل حال ، افتح البوابة ياحمودة !

وكأن هذا الاقتراح لم يصادف رغبة فى قلوب المحْتَوِشين [1] ، فترددوا برهة فيما ينهَجُون .

ونظر البواب من وجه لوجه ، شأن المتحير فيما يفعل . فصاح الشاب عندئذ بصوت المِدفع « جبناء » ... دعونى وحدى أقابل هؤلاء الهاجمين . وقرن عزيمته بحركةٍ هامّا بفتح الحصن . ولـكن السامعين المعجَبين بشهامة ذلك المتكلم لم يَلقُطوا منه توبيخه بل لقَطوا حماسته فصاحوا فى صوت واحد : إنا معك فإلى الأمام . . . . . .

(١) المجتمعين

شدّ الجميعُ حذافيرَهم [١] للنّزال والطّعان ، ودارت البوابة على عَقِبها مسمعةً أنين مريض هزيل .

وقبل أن يتبينوا مرِبض أعدائهم وقوّتَهم فوجئوا بجسم يثب فى الهواء فوق رءوسهم ، طارحا فى وثبته خمسة من رجالهم إلى الأرض .

وما كان أشدّ ذهولَهُم عند هذه المفاجأة غير المنتظرة فقد لبثوا برهة فارغى الأفواه وقد قيّدهم الدّهَش في أمكنتهم

وسُمِع قائدهم يقهقه قهقة عالية ، وسرعان ماسرتْ عدواه إليهم فتعالت الضحكات من كل جانب ، ثم تقدم الفتى الشجاع إلى الحفير الذاهل ، وأمسك بذراعه الذى لم تفارقه الرّعشة منذ يقظته وقال : كَفَيْتك [٢] ياحمودة أن أيقظت الحارة بأجمعها هذه الليلة ، من حُلو منامها ، وعبّأت السكان جميعا لمحاربة فرس . فما أشجعك وأنفذ بصرك ، فكن أكثر حزما فى أوقات أخرى ، ثم تركه .

همّ المحاربون بالانحدار إلى منازلهم وإذا بوَاعِيَات [٣] عالية تشق أجْواز الفضاء ، وترسل الرعب إلى الأبدان ، فهرول الكل نحو مبعثها .

و بنظرة واحدة إلى جواد واقف أمام بيت الفتى يضرب الباب برأسه و ينكتُ الأرض بسنابكه ، وأخرى إلى نوافذ ذلك البيت حيث أطلت امرأتان تصرخان ، أدركوا أى خطب عرا . وكان حقا عليهم أن يدركوا ذلك قبل هذه الآونة ، لولا ما أصابهم من الدهشة عند انفراج البوابة .

---

(١) تهيئوا (٢) حسبك (٣) صرخات

وكانت تلك الصيحات المتتابعة التى تخللها «زوجى» ... «أبى» ... كافيةً لإيقاظ من لم توقظهم نفخات البوق وقهقهات الضاحكين ، فأمَّ البعض بيت الفتى ، وأطلَّ البعض من النوافذ يستنشئون (١) الأخبار

وإن هو إلا بعضُ ساعة حتى كانت الحارة وما جاورها فى هَرْج ومَرْج . وانقسم الناس طوائف فكان منهم الشامت والمسرور والرائى والحزين . هذا يقول: ذلك ذنب فلان، وإنه لانتقام سريع . وذاك يصيح : دع الأرض تطهر من عبدة الدراهم . وآخر يُحاجّ : وما ذنب أسرته الطيبة القلوب وأولاده الصغار ؟

بينما السكان على هذه الحالة من أخذ ورد ، وإنكار وتصديق وحَدْس وتكهن إذ أقبلت طائفة ممن كانوا نفروا خِفافا إلى البوابة ، ثم تسلّلوا إلى الطريق العام يتنحّسون (٢) الخبر ، وفى وسطهم مرجان بحالة مخيفة محزنة ، يحمل سيده على كاهله .

فصاح المستقبلون هل مات يامرجان ؟ ولكن مرجانا لم ينبسْ ببنت شَفَة ، بل استمر فى سيره كئيبا حتى دخل الدّهليز ، حيث تلقفت حِمْلَه أذرعٌ غضة ناعمة ولكن ليست بأكثر شفقة من ذراعى الخادم ، وتلقاه صدران متلهفان لضمه هما صدرا الابنة والزوجة .

وكان الدهليز قد غَصَّ بكثير من ذوى النفوس الطَّامعة التى لا يهمها تقديم المعونة فى مثل هذه الأحوال ، بل الإلمام بحقيقة الأمر .

(١) يعرفون (٢) يتتبعونه

obeikandl.com

وما خَلَص مرجان من عبئه حتى دار على عقبه وخاطب المجتمعين بصوت متعثّر : أرجوكم أن تتركونا وحدنا قليلا ، فان سيدى أحوج ما يكون للهدوء والراحة ، وليس عليه من خطر .

تسلّل الناس من ذلك المأزق كما دخلوا ، وهم ما بين دهِش لجراءة الخادم ، ومعجَب بحضور ذهنه وشفقته . ومتألم لحالة الأم وولدها ، تلك الحالة التي تذيب الفؤاد وتهزّ الجماد .

تسلّل الناس إلا واحداً وقف برهة متردداً محدّقا فى وجه الخادم كأنما يريد أن يقرأ أمرا فى تلك الصفحة السوداء ، ثم انسلّ مع المنسلين ملقيا وراءه بنظرة عجلَى نحو شجرة كبيرة متهدّلة الأغصان .

وحدّث من لم يشكّ فى روايته أنه رأى ذلك الغريب مرة أخرى فى أصيل ذلك اليوم يحادث طفلا بجوار تلك الشجرة ، وأنه رأى الطفل يهرول نحو بيته صارخاً وباكيا ، وأن الغريب حينئذ اختفى كما بدا بسرعة البرق .

الفصل الثاني عشر

ملك الرحمة

لنعد الآن إلى شاطىء الترعة حيث دارت المعركة الدموية بين مرجان وأقرانه ، وحيث تركنا شيخنا بين ميت وحى

قبل أن تنال قدمُ مرجان ظهرَ الشاطىء وجد نفسه كما ذكرنا فى أحضان ثلاثة أعداء ألدّاء لايقوى على مغالبتهم معا ، ولـكنه مع ذلك قاوم قليلا ، مبعدا المسافة بين اللصوص وأصدقائهم ، ورأى أن يلجأ إلى عقله لالتماس طريق للخلاص . وقر فـكره على أن يتظاهر بالضعف والاستسلام ففعل ، وأظهر أنه تحت أوامر اللصوص .

غير أن رجال الليل لم يأمَنوا خُدعته ، فلم يُسلسوا له القياد كله ، بل اكتنفه اثنان منهم قابضيْن على ذراعيه بيدين من صلب ، وسار الثالث أمامهما على بعد خطوات .

لم يتوقع الأشقياء أن يجدوا فيه ضرغاما يتحفّز للوثوب ، ولا خبًّا محتالا يوقد زنده ، ليخلّص جلده ، بل اعتقدوا أن شصّهم (١) قنص سمكة غير مقاومة . ولـكنهم كانوا فى ذلك جد مخطئين ، إذ بدفعة خلفية شيطانية تمـكن الأسير من الإفلات من قبضة عدويه اللذين تعثرا فى لباسهما ، وكادا يهويان إلى الأرض .

(١) الشص حديدة عقفاء يصاد بها السمك

و بسرعة عجيبة التقط عصا كانت بيد أحدهما ، وضربه بها ضربة مميتة رمت به إلى أحضان المياه . وقبل أن يرفع العصا مرة أخرى هجم عليه الآخر بسكين ذات حدين قاتلين ، وتبعه اللص الثالث ولكن بلا سلاح ظاهر

هنا حدثت مقاومة عنيفة من جانب مرجان الذى رأى حياته فى خطر أىّ خطر تمكن فى أثنائها من تخليص السكين من يد خصمه و إغمادها في كبده

وما سقط الجريح إلى الأرض حتى دبّ الذعر والذهول معاً إلى ثالث الثلاثة ، ووجد مرجان حينئذ الإفلات سهلا فأفلت . ولكن خصمه اقتفره [1] صائحا صيحة الليث الغضبان .

شعر مرجان بخطر ذلك الإنذار ، فكرّ على قافيه كَرّة عنترية مزقت أحشاءه ، وعلّت السكين من دمه ، ثم انساب بين المزارع

قضى مرجان المزيع الأخير من الليل مُتَلَبِّدًا [2] بغصن شجرة تلبّد الطير ، ومستتراً استتار القرد عن أعين الرقباء . ولطالما وضع كفه على صدره حينما أحس باللصوص حول الشجرة

لم يجسُر أن يغادر مخبأه حتى حَفَزَ [3] النهارُ الليل ، وأطلّت مقلة المَهَاة ، وهب الزراع يقصِدون مزارعهم ، و يتفقدون ماصنعته عوامل الطبيعة الثائرة بثمرات جهودهم ومحصول غرسهم

وقد كان مخبؤه على مرأى ومسمع من اللصوص ، ولولا أن أعماهم

---

(١) تبعه (٢) جاثما عليه (٣) ساقه

القدر وأصمّهم لاهتدوا إليه ، ولكانت روحه فى عالم آخر ، فتمكن من سماع معظم مادار بين الرئيس والوكيل بشأن الأسير ، وسُرِّى [١] عنه بعض الهم حينما سمع أنهما عدلا عن قتله .

انحدر مرجان من عشه بحذر ، وأخذه بعضُ الخُطَى إلى طريق الترعة وما هي إلا جولة نظرٍ فيما يحيط به حتى وقف مأخوذاً مسحوراً .

هناك على بعد عشرين قدماً من موضعه ، وفى ظل دَوْحة ، رأى صيده مطروحا ، وفوق رأسه جسم امرأة منحنية ، وفى يدها خرقة مبللة تمسح بها وجه الطريح الملوث بالدم والصَّلصال [٢] .

وما شعرت تلك المنحنية بدبيبه حتى صاحت مذعورة ، وولّت هاربة نحو الحقول ، مُرِيةً فى نفس الوقت جسما معروقا [٣] ، ورأسا عاريا مشعّث الشعر طويله ، وقدمين حافيتين

وما هو إلا أن توارت عن عينى الذاهل حتى كان يلصق سيده يمسحه و يسعفه ، ثم احتمله فوق كاهله ، وولّى وجهه نحو البلد متجنبا بكل ما يستطيع تعريضَ نفسه لعيون المارة الطُّلَعَة ، وللدموع على خده خَدّ ، وفى نحره نحر [٤]

وَجِدَ [٥] مرجان بسيده فى حجرته ، وقام بكل ماوصلت إليه يده من طرق الإسعاف الوقتى ، وما أوحت إليه تجاربه الضيقة الدائرة ، وأرسل

(١) انكشف (٢) الطين (٣) قليل اللحم (٤) الخد والنحر الطريق (٥) انفرد

فى طلب الطبيب «حسن التركى» وكان طبيب البلدة الوحيد فى ذلك العهد .

رأسٌ صغير ينبت فيه شعر أصفر مسترسل ، و يعلوه طربوش وطىء الجدار ، ووجه مُختَلَج [1] حليق مَسْنون [2] ناصع البياض ، ركّب فيه عينان زرقاوان واسعتان يُظلهما حاجبان أبلجان [3] أصفران رقيقان ، وأنف صغير يُطل على مَبْسِم [4] ضيق يتفتح عن أسنان منضدّة جميلة تحكى اللآلئ فى تألقها .

يحمل ذلك الرأسَ الصغير عنقٌ نحيف يكاد الناظر إليه يعدّ أوداجه [5] متصلٌ بجسم ضاويّ [6] هزيل

كان هذا الطبيب على إلمام كبير بطب الأسنان ، ولـكنه أبى كبعض أطباء اليوم إلا أن يكون طبيبا فى كل شىء : فى العين والسن والأنف والحنجرة والأمراض الباطنية والجلدية إلى غير ذلك مما كان يدّعى علمه لنفسه

ولم يثق أهل البلدة به ، ولذا لم يطرقوا بابه أو يستشيروا رأيه إلا فى النَّدْرَة [7] . ومما زاد شكّهم فى خبرته أنه كان ضعيف البنية نحيل الجسم كأنهم كانوا لا ينتظرون من طبيب أن يكون قليلا [8] ، أو كأن الأطباء على زعمهم أخذوا عهداً على نفوسهم ألا يمرَضوا

وكثيراً ما كنتَ تسمع شخصا يجيب آخر حين يسأله : لماذا لم تذهب

(١) قليل اللحم (٢) فى وجهه وأنفه طول (٣) البلج نقاوة ما بين الحاجبين (٤) ثغر (٥) عروقه (٦) نحيف (٧) قليلا
(٨) قصيرا نحيفاً

إلى الطبيب التركى ؟ « لِيُداوِ نفسه قبل أن يداوى غيره » .

وكان ملجؤهم فيما يطرأ عليهم من أمراض تجاربهم فى الحياة وحلاقيهم .

حضر الطبيب « حسن » وأظهر فنه وخبرته فى فم الطريح ولكنه أظهر عجزاً فيما دون ذلك ، فقد عزا ما فى جنب المريض من جمود وعجز عن الحركة إلى برد أصابه أو سقوط ناله ، كما نسب عجزه عن النطق إلى فقدانه أسنانه وتمزيق لِثَته .

والحقيقة أن الطبيب كذب فى تعليله ، ولم يهده علمه المهوش إلى كشف باطن الأمر ، وأن الرجل على أثر ما حل به أصيب بشلل طَمَس مركز النطق والسمع من مخه ، وأعجز جنبه الأيمن عن الحركة . كارثة شديدة لم تنزل به إلا على أن ترحل معه إلى المثوى الأخير [1] !

* * *

أُنْهِيَ [2] أمرُ ذلك الحادث إلى رجال الأمن ، فاهتموا به أيما اهتمام ولكنهم رجعوا — شأنهم فى معظم الحوادث — بصفقة المغبون ، وأفلتَ المجرمون دون أن تمسَّهم يد العدالة .

وشاء الله أن تُطمَس معالم الجريمة ، فطمس على عقل المرشد الوحيد فلم يستطع أن يشير بكلمة إلى حقيقة رفيق سفره . وماذا تجدى لفظة « السكومى » وهى بين رجال الأمن نكرةٌ من النكرات ، وإن كانت بين رجال الليل أولَ أنواع المعارف ؟

(١) القبر (٢) أبلغ

ذهب « الشيخ الفتى » إلى الزقازيق ليحصّل أموالا ويُمضى عقوداً ويحضر جلسات له فى المحكمة ، وتبعه الكومى على أثر أوامر صدرت له من رئيسه ، فراقبه فى الخفاء حتى إذا علم أنه ينوى العودة إلى ميت غمر بدا أمامه فجأة ، كأنه ظهر من بطن الأرض .

« أأنت هنا يا سيدى عيسى ؟ » سأل الفتى صديقه القديم وأحدَ مُعامليه المُوفين . فأجابه الآخر : لا تدهَش من رؤيتى هنا ، فلقد حضرت صباح اليوم لأمور ضرورية ، وقد قضيتها والحمد لله ، وإنى عازم على العودة الآن . فقال الآخر : وإنى على نية السفر أيضاً ، إذ حَتَّمَ على أن أكون بميت غمر فى صباح الغد لحضور بعض قضايا هامة ، وإنى أعد نفسى مَجْدوداً (١) إذ عثرت بصديق قديم يرافقنى فى رحلتى .

وإذ هما كذلك أقبل مرجان يقود جواداً فارهاً (٢) فركب الفتى ، وانطلق مع رفيقه يتحدثان .

(١) محظوظا (٢) مليحاً فتياً

الفصل الثالث عشر

بخيت

إنى لا أحسب القارئ إلا متشوقا لمعرفة شيء من أخبار بخيت الذى قتله مرجان فى تلك الليلة الليلاء[١] . ولولا حرصنا على تلبية هذه الرغبة لمررنا بدون أن نفرد له فصلا ، لا لأنه ذو شخصية ضئيلة ، بل لأنه لن يظهر على مسرح روايتنا فى الفصول المقبلة .

كان بخيت من العمالقة الجبارين ، نيف على الخامسة والثلاثين ، طوالاً عبل الجسم[٢] ، بنى بناءة الضوارى ، وركبت فيه غرائز الكواسر جعد شعر الرأس ، متألق العينين فى غؤور ، كبير الأنف ، منتفخ المنخرين مطهم الوجه[٣] كالحه ، مكلثم[٤] الوجنتين ، واسع الفرير[٥] . إذا ابتسم فعن أسنان كبيرة ناصعة البياض حادة كالمواسى . لم يشذب نبت وجهه على قصره ، بل تركه ينمو كما يشاء وفى أى رقعة يريد ، مما زاد تشويه خلقه ، وأضاف إلى فظاعة منظره .

كان ثانى وكيلى العصابة ، وكان مع السكومى والرئيس رأسها المدبر وقلبها النابض ، ويدها الباطشة بر بقسمه وأخلص لمهنته .

---

(١) الطويلة الشديدة (٢) ضخمه (٣) مدور الوجه مجتمعه
(٤) مجتمع لحمها (٥) الفم

كان على مضاء صَرِيمته ، وصعوبة شكيمته ، وما وهبته الطبيعة من سلطان قاهر ، سَلِسَ الانقياد لغريزة واحدة تحدّرت إليه من قبيلته فى جنوبىّ السودان ، تلك الغريزة الوحشية والشِّنْشِنَةُ [١] البربرية هى امتصاص دم الأحياء .

كانت تلك النَّجْأة [٢] مأكَلَه ومشربَه ، ومنامه وراحته ، وسعادته وهناءه ، ومطمح آماله ، وجُمَّاع مشتهياته . ولطالما آثر أن يستولى على قنيصة حية ، وإن كان فى ذلك رداه ، على أن يترك الدماء تسيل على الأرض أو تغيض فى الأجسام . وكثيراً ما رضى من الوَفاء بالأغناء [٣] ، أو تنازل عن بِدّته [٤] من الغنائم والأسلاب فى نظير مزّة [٥] واحدة من عنق أسير دفعت به أيدى الأقدار ، إلى حيث لا فرار .

كان فى أول أمره رئيس عصابة من الأشقياء قوية البطش جَمّة الجرائر [٦] ، ورئيس المحكمة العليا التى كانت تعقِد جلساتها بين المقابر المهجورة ، وفى ساحات الحقول المترامية الأطراف ، من قصب وذرة

ولا يحسبنّ القارىء أن ذلك كان فذّاً فى نوعه ، فقد كان لزمن قريب له شبيه فى بعض مديريات الوجه القبلى ، ولعلهُ قضى عليه الآن .

كانت تلك العصابة تسلُب المارة نهاراً جهاراً ، أو تقودهم قصد التفكّه والتبسّط إلى منَصة القضاء حيث القضاة والجلدون ، والحجاب

---

(١) الطبيعة والعادة (٢) الشهوة (٣) من حقه الوافر بالقليل
(٤) نصيبه (٥) مصّة (٦) الذنوب

والشاهدون . و إليك طرفا من عجائب تلك المحاكم الجوزية :

مر أحد الفلاحين فى طريقه إلى ميت غمر برجل حاقفٍ (١) فى ظل شجرة على حافة حقل ، وكان يقود ذَوْداً (٢) من الجمال حاملا قطناً ، فحياه تحية الاسلام . فرد الآخر بأحسن منها ، ناهضاً فى نفس الوقت من مَحقَفِهِ ولاحقا بالرجل بخطى هادئة

ولما كان بجانبه سأله عن وجهته ، فأخبره أنه يؤمّ ميت غمر لبيع محصول قطنه ، فأجاب الآخر إن ذلك من حسن جَدّى ، فإنى أقصد نفس المكان لقضاء أمر هام . ورب رَيْثٍ (٣) أعقب خيراً .

سار الرجلان يتحدثان فيما يتحدث فيه الفلاحون عادة نافضَيْن جملة حالها ، حتى وصلا البلدة . وحينئذ فَصَلَ (٤) الرفيق عن مسايره معتذرا بأن مهمته تضطره إلى أخذ سَمْتٍ آخر .

ذهب الأكّار (٥) وقضى مهمته ، وكان النهار لا يزال طويل العمر فاستوفى عمرَ ساعة في شراء بعض حاجه ، ثم قفل راجعا إلى مسقط رأسه « دنديط »

ولم تغب حَذَافير (٦) ميت غمر فى الأفق خلفه ، حتى سمع صوتا يناديه باسمه ، فنظر و إذا برفيقه فى الذَّهاب يُلوّح له بمنديل أحمر أن

(١) منحن ومنثن فى نومه (٢) الذود من الأبل مابين الثلاث إلى العشر (٣) بطء (٤) تركه (٥) الفلاح (٦) أعالى

تريثْ . فهشّ الفَدْمُ [١] الساذَج لذلك المنظر ، وأبطأ ريثما لحق به صاحبه ثم استأنفا المسير .

وكان ربّ الإبل أكثرَ شوقا إلى الكلام من مرافقه الذى لزم الصمت فقال : لقد كانت صفقة اليوم صفقة رابحة أكثر مما كنت أظن فلقد بعت القنطار بثمن مرضٍ . فهز الآخر رأسه وقال : يُجذِلُنى أن أعلم ذلك فإنى أعرف مقدار ما يعانيه الواحد منا من المشاق الطويلة فى مراعاة أرضه وخدمتها ، غير أنه يبدو لى أنك كنت أسعد منى حظا ، فلقد بعتُ محصولى منذ ثلاثة أيام ، وقبضت فى القنطار مائة وخمسين قرشا .

ثم لوى برأسه نحوه قليلا وقال : وبكم بعت أنت ؟ فأجاب الآخر والسرور يطفح على محياه « بمائة وثمانين »

فصمت المستفهم برهة كأنما يستجمع شوارد فكره ، ثم عطف قائلا : « وكم قنطاراً كنت تحمل ؟ فأجابه خمسة عَشرَ قنطارا . وكأنه أراد ألا يُجشّم سائله مئونةَ الحساب فصاح : وقبضتُ سبعة وعشرين جنيها . فقال : خار لك الله فيها [٢]

ولما كانا على مقربة من ملتقاهما الأول وقف اللص قابضا على ذراع محدثه الطيب السريرة ، وصاح فى وجهه « هيّا بنا »

فعلتْ وجهَ الآخر سحابةٌ من الغموض والحيرة ، وقال بصوت المتعجب : وماذا تعنى يا أخى بقولك : هيا بنا فزمهرَ [٣] الثانى فى وجهه

(١) العى عن الكلام فى ثقل وقلة فهم (٢) جعل الخير لك فيها
(٣) صاح فى غضب

هيا بنا نقسم ثمن أتعابنا . ألستُ شريكك فى الأرض حتى تستأثر بالثمن وحدك ؟ ألم نستأجر الأرض معا من محمد بك شهاب ؟ وهل كان ما بذلته من الجهود فى استثمارها دون ما بذلت ؟ إن العدل يحتم أن نشترك فى اقتسام الثمرة كما اشتركنا فى الأين والنصب . فَعُقِد لسان المسكين عن الكلام ، ووقف أحيرَ من ضَبّ

فى هذه اللحظة انفرجت أشجار القصب عن رجل دميم [1] الخلقة نابى الصورة [2] تقدم إلى حيث المتناظران ، وقال ماعسى أن يكون موضع اللجاج ؟ فقال اللص : هذا شريكى يريد أن يستبد بثمن ما بعنا من القطن اليوم دونى ، ويأبى على الشركة . فقال ابن القصب : على رِسْلِكَ أيها المغبون ولا تيئس من نيل حصتك ، فليس بيننا وبين المحكمة إلا بضع خطوات .

وهنا وجد بعضُ الألفاظ الضالّة سبيلَه إلى فم الفلاح ، فصاح والعَجَب يملأ جوانبه : المحكمة ؟ فضحك الآخران ضحكة الاستهزاء ، ورمياه بالجهل المُطْبِق حتى بما فى بيئته . وقِيدَ صاحب الجنيهات واللص إلى حيث الحكم العادل .

ساروا نحو خمس دقائق ، خارقين أعواد القصب المتلاصقة ، متيامنين مرة ومتياسرين أخرى ، ومنحنين طوراً ومنتصبين آخر ، حتى وصلوا إلى ممرّ عرضه نحو متر وطوله نحو عشرة أمتار يكف جانبيه أشجارُ القصب

(١) قبيح (٢) قبح المنظر

حملهم ذلك الممرُّ إلى ساحة مربعة الشكل ، مساحتها نحو ستة عشر مترا . قام على رأسها حارس هو حاجب المحكمة . ورئى بعض أفراد منتشرين هنا وهناك ما بين واقف وجالس ومضطجع .

وما هو الا أن احتواهم المكان حتى صاح الحاجب من خلفهم « فتحت المحكمة » فقام الكل إجلالا وكونوا منهم صفين .

أخذ القاضى المقنّع مكانه من منَصَّة مصنوعة من الأعواد الجافة والقش ، ثم شرع يستفهم عن موضوع القضية ، ويسأل المتهم والمدّعى عدة أسئلة .

و بعد محاورة قصيرة صدر الحكم ، وهو يقضى بتجريد المتهم الجشع من كل ما معه من النقود تأديبا له ، و بالإعدام إحراقا

ووقتئذ صاح الفلاح المغلوب على أمره صيحة اليائس المسترحم ، وطرح نفسه عند قدمى القاضى يسأله الرحمة ، و يرجوه أن يتصور حالة أسرته المنكودة بعد موته .

ولكن القاضى لم ينطق بكلمة ، بل أشار إلى الحاجب أن يجر ذلك المجرم الطماع ، فأسرع وحمل الفلاح إلى ركن بعيد هامسا فى أذنه : قل استأنفت الحكم . فردد المسكين ما طلب منه ، كما تردد الببغاء ما تسمع دون أن تفقه له معنى .

وحينئذ أمر القاضى بأخذه إلى المحكمة العليا . وسيق المتهم إلى ساحة أخرى يصلها بالأولى ممر ضيق آخر . وهى فى شكلها ونظامها كالساحة

الأولى ، لولا اتساع قليل فى جوانبها ، ولولا أن مِنَصَّتها أقلَّتْ ثلاثة قضاة لا واحدا . وكان الجالس فى الوسط يفوق زميليه ضخامة وطولا ، أسود الجسم ، مكشوف الوجه ، براق العينين .

و بعد نقاش قصير ، صاح ذو البشرة السوداء : الحكم بعد المداولة فأخرج المتهم إلى الممرّ ، و بعد برهة عاد وسمع الرئيس يقول بصوت جلىّ : حكمت المحكمة بتثبيت الحكم من حيث تجريد المتهم مما معه من النقود ، وإلغاء الحكم بالأعدام . فصاح الفلاح على أثر ذلك بملء حنجرته : ليحى العدل ! وطار من مأزِقه كمن به رِيٌّ[1] من الجن ، أو خَطْرَةٌ من الجنون ، يردّد على طول الطريق : ليحى العدل ! ليحى العدل ! مغفلا جماله وراءه . وما رد إليه عقله بعد هذه القارعة .

وهكذا صار الجَوْر عدلا ، وانقلب السلب حقا سائغا !

---

(١) مس

الفصل الرابع عشر

صيت بخيت

إليك قصة أخرى نسطرها كما رواها بخيت عن نفسه فى بعض أحاديثه التى تُشيب مَفارق الطفل :

كان الوقت مَوْهِنا [1] وكان بخيت يهيء للنوم فى مأوى من مآويه وسط الحقول ـ وما بات فى أحدها أكثر من ليلة واحدة ـ وإذا به يسمع طرقا شديداً على الباب ووقع أقدام متعددة فصاح : من بالباب ؟ فأجابت عدة أصوات معا : افتح يا بخيت . فقال ويده على بندقته وخنجره إلى جانبه : ولكن من عسى أن تكونوا ؟ أخبرونى بأسمائكم فأنى لن أفتح لمجهول الاسم . فماذا تخافون وأنا واحد وأنتم كما يظهر لى كثير ؟

وقبل أن يتم عبارته كان الباب الضعيف مفتوحاً ، وكان الضيوف الثلاثة الملثمون على عتبته

همّ بخيت بتصويب البندقة فى وجوههم ، ولكن إشاراتٍ منهم تحمل الأمان حالت دون ذلك ، فوقف حائراً بعض الحيرة . وقال واحد منهم : لسنا هنا لنلحق بك أذى ، وحاشانا أن نجرؤ على ذلك مع زعيم طائر الصيت مثلك يا بخيت ، ولكنا جئنا لنلتمس يدك ، ونستنجد

---

(١) الموهن نحو من نصف الليل

برأيك ، فان أجبت سُؤْلنا [١] كانت لك علينا يد لا ننساها ، وإن أبيت فما علينا إلا أن ننسحب

أعجبته هذه النغْمة المتواضعة ، ولكن لم يكن الذى تخلُبُهُ حلاوة الألفاظ ، ولا الذى يحسن الظن بأحد ، فبقى حذِراً فى مكانه قائلا : إذا كان هذا ماحدا بكم إلى بيتى فى مثل هذه الساعة من الليل البهيم [٢] فقوتى وتدبيرى تحت تصرفكم ، ولكن على شريطة أن تكشفوالى عن ذواتكم ، أو على الأقل عن أسمائكم

فقال المتكلم الأول : أظن أن هذا لا يهمك كثيراً ، وما دمنا كشفنا لك عن نيتنا وعزيمتنا فلا مجال للشك فى أمرنا . فقال : فهنأ كل كِسرة من الخبز والمِلح معا - وهم باحضار ما اقترح ....

ولكن الضيوف أبوا عليه ذلك أيضا ، فقال بصوت المتعجب المرتاب : وإنكم تأبَوْن أن تمسوا لى طعاماً كذلك ؟ فهل هذا مما يؤمّن المرء كثيرا؟

فهم الثلاثة مارمى إليه ، فرمَوا بأسلحتهم إلى ظهر الأرض ، ومدّوا أكفًا مبسوطة للتصافح ، فقبضها واحدة واحدة ثم قال : والآن ماذا تريدون منى أن أفعل أيها الأخوان ؟

فقال الصوت الأول أيضا : إنا ننتمى إلى إحدى العصابات القوية ، وقد كنا على أن نهجُم الليلة النّاجِزَة [٣] على بيت أحد الأغنياء ولكن مرضا فجائيا طرأ على رئيسنا فمنعه من قيادتنا ، وكل ما نبغيه الآن قائد نسير

(١) مطلبنا (٢) المظلم (٣) الحاضرة

تحت لوائه ، ونأتمر بأمره . وقد أطْبقَ [١] أمرُنا على أن تكون أنت قائدَنا فهل قبلت ؟

فقال نعم قبلت . فقالوا إذن ضع جُنّتك [٢] الكاملة وتدرّع بما ترى من أسلحتك . ففعل كما طلبوا .

وما جاوزوا ظِلَّ المسكن حتى سألوه أن يسير أمامهم ، وعلى قِيد خطوات منهم ، فلم يجد بداً من الإذعان لإرادتهم ، وإن كان قائدهم المختار

سار الكل حتى كانوا على مقربة من قرية « ميت يعيش » ثم وقفوا وبدءوا يتشاورون فى خير الطرق وأسلمها لتنفيذ مأربتهم ، وقرّ رأيهم على أن يبقى أحدهم خارج بيت الغنى لينذرهم إذا دعا الحال ، وأن يقوم بخيت مقام الدَّيْدَبَان أمام غرفة النوم ، وأن يتولى الاثنان الباقيان أمر السرقة .

تم ذلك بالرغم من معارضة بخيت كأنه لم يكن القائد المصطفى وبُدِئ الهجوم ، وسرعان ما كان الشقيان فى حجرة النائمين وكانوا زوجا وزوجة وطفلا .

صحا الزوج على إثر حركة فى الحجرة ، فرأى خنجرا مشهورا فى وجهه وسمع صوت ماردٍ يخاطبه : لاتفه بكلمة وإلا هلكت . أجب أين النقود ؟ فقال المستيقظ وقد صَحِلَ من الرعب صوتُه [٣] : هون عليك فستأخذ كل ما تريد . النقود فى صندوق صغير فى هذه الغرفة ـ وأومأ إلى غرفة متصلة بغرفة النوم .

---

(١) أجمع (٢) سترتك (٣) بح

وبينما كان أحد اللصين يبحث عن الصندوق وما حواه ، استيقظت الزوجة مذعورة ، وهمت بالصياح عند ماوقعت عيناها على اللص .

ولكن الشقى كان أسرع من صوتها الحبيس فأغمد نصله فى قلبها فصاح الزوج قهراً : لِمَ تقتلها أيها اللعين وقد دلتنك على ....

ولم يتم كلامه حتى كان يتخبط فى سريره بجوار زوجته ! !

رأى بخيت ذلك المنظر البشع فنال منه على غلظ كبده ونضوب معين الرحمة من قلبه وألفته لمثل تلك المشاهد الدموية ، ورقّ لحال القتيلين لأنهما لم يستحقا فى اعتقاده الموت بعد أن قدم الغنى ما تملك يداه

ولا تعجب أيها القارىء لرقته ورثائه فأن فى الحياة مواطن تنفذ إلى قلب العاتي . بل تستنفد الدمع من شؤونه [1] المتحجّرة . ولولا موقفه الزّلق للبّى نداء ضميره وقضى على ذلك الجبار الأثيم . ومع هذا فقد حالت يده دون التضحية بالطفلة الصارخة العائمة فى الدماء

أسرع اللصوص بعد أن حملوا كل ما وصلت إليه أيديهم من نقود ومصوغات وغيرها ، ورجعوا كما أتوا قبل أن يرفع صوت بإنذار ، وقبل أن يحيق بهم جزاء ما ارتكبوا من الأوزار

رجعوا بنفس النظام ولكن من طريق آخر ، ينقدمهم بخيت كأنهم لايزالون يخشَوْن بأسه إذا تأخر منهم أو سار بجانبهم . و بعد مرحلة طويلة جلسوا تحت شجرة يقتسمون . فقال قاتل الاثنين : لنقسّم هذه الغنيمة

(١) جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين

خمسة أقسام . فقال واحد من صاحبيه . ولِمَ ونحن أربعة ؟ فقال الآخر لأن القسم الخامس نصيب زعيمنا المريض . فرد الآخر بشيء من الغضب إنه لم يكن معنا وقت الحرب فلم تذكره وقت السّلم ؟ فعدّ الثاني ذلك ضربا من الوقاحة لا يشفع له إلا الدم ، وطعنه طعنة كان فيها القضاء

فصاح زميله الآخر : ما هذا يا صابر ؟ أغدر هو أم ما ذا ؟ فقال بل غدر ، وثنّى عليه ، كأن رؤية الدماء أثارت فى نفسه اشتهاء الدماء ثم التفت إلى بخيت الذى رأى ما رأى وسمع ما سمع بدون أن يلفظ لفظة وقال : نحن الآن اثنان . فلتكن القسمة مناصفة

فابتسم بخيت وقال : حسبى أن تأخذ ماتشاء ، وفى رأيى أن صاحب الغُرْم أولى بالغُنْم . . . . . فقاطعه الآخر : لا . لا . لقد استحققت النصف فهو لك

وبدأ يعد الجنيهات : واحد . . . . اثنان . . . . ثلاثة . . . . أربعة . . . . خمسون . . . .

ثم سمع حركة يد بخيت إلى جنبه ، فداخله شيء من الرّيب وقال : ما وراء حركتك يا بخيت ؟ فقال : لا شيء . لقد اتفقنا فاستمر .

واستأنف العداد يقول : واحد وخمسون . . تسعة وخمسون ، فصاح العبد : ستون — وأفرغ غدارته فى وجهه فخرّ صريعا لثانيته بجوار صديقيه وجمع الغنيمة كلها ومضى .

طار صيت بخيت فى عالم الإجرام ، وتناقلت العصابات أخباره الجريئة

ومخاطراته العظيمة ، فلم يجد الكومى ورئيسه بُدًّا من مسالمته ثم التعرف به والتزلّف منه ، وما زالا به حتى أقنعاه بضرورة الانضمام إليهما هو وعصابته ، على أن يكون الوكيل الثانى للعصابة العظيمة فقبل على أن يمنح بعض الامتيازات ، كأنه ينتمى إلى دولة من الدول ذوات هذا الحق فى مصر

ومنها كان السماح له بأن يتصرف فى بعض الأسرى بما يشاء و يهوى .

هذا بعض ما ورد إلى سمعنا من تاريخ ذلك التيّم [1] المتوحش الذى لبث سنين طوالا رعب الناس في الإقامة والظّعنة ، واليقظة والنومة وحَسْبُهُ أن كانت خاتمته كجلده سوداء ، امتصّ دماء الناس فامتُصّت منه الدماء .

(١) العبد

الفصل الخامس عشر

بين جدران المقابر

كانت الليلة حالكةَ الجلباب ، غُدافيّة الإهاب [١] ، عاصفة الرياح قويتها ، ولم يبق من هَدْيِهَا إلا شَفَا ، [٢] وإذا بأشباح تتراءى من بطن الأرض وظهرها وقصيّها ودنيّها ، مشتملة بأردية سوداء ، كأنها أبت إلا أن تحاكى الليلة فى حدادها . وكانت مثابة تلك الأشباح المتحركة واحدة . . . هي مقابر ميت غمر

وطِئَت الأقدام أخيرا أديم تلك المقابر ، وعلت جدرانَها ، ووثبت من سطوحها إلى أشجارها ، ثم هبطت من أشجارها إلى سطوحها . كأن ليس لتلك القبور من حرمة مقدّسة . أو هيبة مُرجفة ، أو كأنه ليس بين تلك الأرواح السابحة فى سماء تلك الرموس الصامتة روحُ شِرّير تنذرهم وتزجرهم ، أو روح ولىّ توبخهم وتعنّفهم

وكيف ينتظر من أبناء الليل أن يرعَوْا حرمة الموتى وهم لم يرعوا حُرُمات الأحياء ؟ أو يتذمّموا من إتيان منكر وقد ولغَتْ نفوسهم فى الدماء ؟ أو يُرْجى منهم تردّدٌ ما وهم الجرآء على كل شر و إثم ؟

اجتمع شملهم أخيرا وكانوا يفوقون المائتين عدا . و بَسَطَهُمْ [٣] مدفن

---

(١) غدافية نسبة إلى الغداف وهو الغراب (٢) لم يبق من ثلثها إلا قليل (٣) وسعهم

«عزيزة» على كثرة عددهم، وأظلتهم دَفواؤه الممتدة الأغصان، فاشتمل عليهم الحالـكان من ظلّ وظلام. وكوّنت من الحاضرين حلقات، ورئيت هنا وهناك محتضَرات الشمعات، وتهامس القوم لحظة، ثم حاكَوْا الأحداث فى صموتها. ولـكن الرياح لم يُرقها ذلك الهدوء فاستمرت فى خفيقها (١)

بدا شخصان يزحفان من جوف قبر مفتوح، كأنهما شيطانان رجيمان أو روحان شِرِّيران. ولما كانا وسط الحلقات نطق البارز الأول بصوت خافت ولـكن يحمل فى موجاته ريح السيطرة والنفوذ: هل تكامل العدد؟ فأنفض (٢) الجمع رءوسهم بالإيجاب، وحركت الريح لهب الساهرات (٣) فهزت رءوسها أيضاً كأنها أبت إلا رد الجواب. فقال حسن ـ ومد يده إلى رفيق القبر فأخذ منه أكياساً ففك رباطها قائلا:

لقد مضت مدة طويلة على آخر جلسة عقدناها، وكنا ننتظر أن تزداد أرباحنا، كما ازدادت أيامنا، ولـكن قامت فى سبيل بعض رجالنا عقبات حالت دون أمانينا، وطرأت حوادث كما تعلمون لم تدر بخَلدنا استفدت شيئا مما حصّلنا.

ولقد كنت قائما بالحساب مع وكيلـكم حينما حضرتم، فوصل بنا التقدير إلى أن ما يَخُصّ (٤) كلّ يد من أيدى العصابة شاملا نفسى والـكومى مائتان وخمسة وسبعون جنيها.

---

(١) دوىّ جريها (٢) حركوا (٣) الشمعات (٤) حصه كذا صار حصته.

فصاح الكل فى نفس واحد : هذا أكثر مما توقعنا !

واستمر الرئيس يقول : وفاتنى أن أذكركم بأنا لم نحرم شهداءنا الشجعان من نصيبهم ، ولا أخرجناهم من قائمة حسابنا ، فقد خصصنا لأسرة كل واحد منهم ما كان يستحقه فقيدها .

فصاح الكل صيحة الإعجاب بتصرف رئيسهم الشهم الحكيم . وسُمع صوت من ركن بعيد يقول : ولكن الرئيس والوكيل قد سويا نفسيهما بباقى أفراد العصابة ، وخالفا بذلك نص القانون القائل : «للرئيس مما يُغنم نصيبان وللوكيل نصيب ونصف » وإني عن نفسى لا أرضى عن هذه المساواة ولا إخال أحداً من زملائى يرضاها . . .

وفى الحق أن زملاءه جميعا لم يقروها ، ولولا أن أخذتهم حلاوة الكِسْبة [1] غير المنتظرة لاحتجوا من أول الأمر كما احتج رفيقهم القانونى. والآن وقد نبّهوا إلى ما فاتهم أخذوا يبدون عجبهم ، ويطالبون بمراعاة مواد القانون العصابى ، ويبدون أنهم لا يحيدون عن تطبيقه التطبيق العادل

واضطُرَّ الرئيس أن يتكلم وسط هذا الاستياء وذلك الاحتجاج معلّلا تصرفه فقال : قبل أن أبين لكم أسباب نَهْجى هذا المنهَج الذى لم يوافق أهواءكم ، والذى اعتبرتموه انتهاكاً لحرمة قانون وضعناه بأنفسنا واتفقنا على صوغ مواده ، وأقسمنا أن نراعيه — أقول قبل أن أبين ذلك : أشكر لكم من أعماق قلبى عاطفتكم الشريفة نحوى ونحو وكيلى كما أكبر فيكم تمسككم بحق غيركم قبل حقكم . وإن عصابة تضم تحت جَناحها رجالا أشداء فى

(١) المكسب

الحق مثلكم الخليق بها أن تكون سيدة العصابات طُرًّا ، ولقَمَنٌ أن تُملأ أكف أفرادها تِبراً !

أيها الاخوان ! إنى فى الواقع لم أتعدّ على قُدس العدالة العصابية كما خيل إليكم لأنى أحفظ الناس له وأحرصهم على رعايته . وكل ما فعلت أنى تبرعت بنصيبى كما فعل الكومى بنصف سهمه إلى أهل من سقطوا من إخوانكم فى ساحة القيام بالواجب . . .

وهنا لم يملك السامعون شعورهم ، ولا استطاعوا كَمّ أفواههم ، فصاحو صيحة الإعجاب والإكبار مصفقين وصافرين ، ناسين أنهم فى موطن الصمت لا التهليل ، وأنهم بعملهم هذا قد يجرون على أنفسهم خطراً لا قِبَلَ لهم برده

وضاعفت الرياح في نفس البرهة من بأسها كأنما أرادت ألا يُسمَع صوت غير صوتها .

وقف الرئيس الرزين مبهوتا إذ قد لمست يدُ الأعجاب بمرءوسيه موضع الإحساس من نفسه ، وقرأ آية أخرى من آيات إخلاصهم له وتفانيهم فى إرضائه .

ولا عجب فإن هؤلاء الذين لفظهم المجتمع ، وعادتهم الأفراد وطاردتهم القوانين ، وملكتهم القسوة ، لم يُجرّدوا من كل العواطف البشرية كما نزعم ، ولا حرموا من كل مظاهر الإنسانية ، بل يبدو منهم أحيانا — وإن كان ذلك جِدّ نادر — شيء من تلك العواطف والمظاهر كما يبدو النجم المهَيْب فى الأفق البعيد لحظة .... ثم يأفل :

الفصل السادس عشر

توزيع الغنائم

سكنت عاصفة التصدية [1] والتهليل فجأة كما بدأت ، ورن مرة أخرى ذلك الصوت من الركن البعيد قائلا : إنا اقتفينا آثار رئيسينا فى كل خطوة من خطواتهما ، فلم لا نقتفى آثارهما أيضاً فيما اتخذا من تلك الخطة السديدة خطة المساعدة الأخوية ؟ أليس كل واحد منا عرضةً لما ناب أخاً له من قبل ؟

فتعالت صيحة الإعجاب والقبول مرة أخرى ، وطلب من الرئيس أن يُحفظ جزء من الأنصباء يحمل إلى أسر القتلى من زملائهم ، ولكن الرئيسَ بعد أن أثنى عليهم كرّة ثانية وعلى تعاضدهم فى سبيل الخير أخبرهم أن وقت اجتماعهم قد طال ، وأنه خير لهم أن يعهدوا بجمع تلك الإعانات إلى واحد منهم يختارونه فيما بعد ، ولما لم يلق معارضة أخذ فى توزيع الغنائم .

وفى أثناء ذلك التوزيع سمعت ضجة عظيمة بالقرب منهم ، ثار على أثرها زوبعة من التراب وأوراق الأشجار التى أخذت تتساقط على

---

(١) التصفيق

اللصوص ، كما سمعت وثَبلت بين المقابر المجاورة

علّق الجميع أنفاسهم إلا الرئيس فقد استمرّ فى عمله متبسما قائلا : لقد عصفتْ الرياح بشجرة ضعيفة فكسرتها ، واضْطُرّت بعض الكلاب الآوية إلى الفرار .

وأكّد الكومى قول الرئيس بعد أن استطلع الخبر فوجده كما وصف حرفا بحرف

لما انتهى السبع من إبداد [1] النقود بين تابعيه على ما يرام ، بسط كفه قائلا : لم يبق مما جمعنا من غير توزيع إلا هذه الأسنان الذهبية فمن ذا الذى يرغب فيها منكم ؟

فصاح أحدهم : علىّ بها فان أمى دَرْدَاء [2] ولا أحسبها إلا تُسَرّ باستخدامها . وصاح آخر : ان أحق الناس بها من انتزعها من فم صاحبها

وقرّ رأى الأغلبية على أن تُضَم إلى تبرعات المتبرعين ونفذ القرار

انفضّ الجمع المحتشد قاصدين وجوههم المختلفة إلا الكومى والرئيس، فقد لبثا مدة فى مكانهما يتحادثان و يتشاوران . فقال الزعيم : إنى لا زلت مأخوذاً بما أبصرت وسمعت هذه الليلة ، لا لأنى أيقنت كامل إخلاصهم لى ولك ، ولكن لما فيهم من الثقة العمياء بنا . زد على ذلك ما أظهروه من العواطف الشريفة نحو فاقديهم . . . فقاطعه الآخر ولم لا يمنحوننا هذه

---

(١) إعطاء كل نصيبه (٢) ذاهبة الأسنان

الثقة وقد جربونا فى مواقف عدة ، فما وجدوا منا إلا طهارة فى الذمة ، وعزة فى النفس ، وعدلا لا يشوبه مَوْج[١] .

فقال الرئيس : حقاً حقاً ! والآن يا كومى هل من جديد بشأن صاحبنا ؟ فأجابه : لم يجدّ شىء يذكر ، وهو كما رأيته فى أول الصدمة يتجاذبه الموت والحياة ، ولا أحسب أوهلها إلا وَازِراً[٢] ، ولقد زرت الحارة عدة مرات وتفقدت المنزل وحجره وطرق اقتحامه فوجدتها أسهل مما يُتصور ، إذ أمام البيت شجرة ضخمة تصل أغصانُها بكل نوافذ البيت تقريبا وتصلح لأن تكون مبدأ الهجوم . فقال الرئيس ولكنك نسيت البوابة وخفيرها المسلح وشدة يقظة سكان ذلك الحى ، كما نسيت الخادم الباسل .

فقال الكومى : إنك ياسيدى لم تذكّر منى ناسيا ، فلقد احتطت لكل ماذكرت . أما الخفير فمن السهل التخلص منه مادام تسلّق البوابة ميسوراً ، وأما السكان فسوف لا يُحِسُّون من أمرى شيئا ، أو يسمعون لى رِكْزاً[٣] وأما مرجان فأنا أعرف كيف أنتقم منه إذا تدخّل

فقال الرئيس بصوت يقطرُ شفقة على وكيله : كأنك لا تزال مُصِرًّا على الاضطلاع بهذا العمل وحدك ؟ فقال نعم . ولقد أقسمت

فأجابه لا . لا . يا عيسى إن مثل هذا الإصرار كثيراً ما يكون معناه إيراد النفس موارد العَطَب والهلكة ، وإن مثل هذه الهجمة

---

(١) ميل عن الحق (٢) غالباً (٣) صوتا خفيا

تحتاج إلى أيدٍ متعددة يعتمد عليها ، فلا تُرهق نفسك ، فلستُ بمفتقر إلى إقامة الدليل على شهامتك المعهودة ، وإني لا أحتمل أن أقف موقف المشاهد بينما أعز أفرادى مكتنفٌ بالنيران من كل جانب . ولن أغفِر هذه الزلة لنفسى إذا أصابكَ — لا قدر الله — مايعكر الصفو — لا . لا . سأكون معك لأتولى أمر ذلك الفتى مرجان بنفسى ، وسيكون معنا أيضا بضعة أفراد نصطفيهم ، وليكن منهم ذلك الشاب . . . . القانونى فإنه مثال الشهامة الحقة

فقال : تعنى أبا عيشه . فقال هو ذاك

وبعد لأيٍ ما خضع الكومى لإرادة رئيسه ، ورُسمت الخطة واختير الرُّفقة .

الفصل السابع عشر

زعيم الأزهر

كان الشيخ إبراهيم السبع من الأفذاذ الذين يلدهم الزمان بين جيل وجيل ليسيطروا على الرقاب ، ويتحكموا فى العباد ، ويُلقوا الرعب فى البلاد . كان حاكما لا عن طريق شرعى ، بل عن طريق القوة الجثمانية ، والفَطانة الفِطْرية

كان متوسط القامة ، عريض المَنْكبين ، صَلِيب البناء ، أبيض اللون فى حمرة ، جميل المحيا حليقه ، واسع العينين أزرقهما ، شَاهِى[1] البصر ، مقرون الحاجبين فى كثافة ، عريض الجبين ، كبير الرأس ، أصفر الشعر فى استرسال . وبين وجنتيه المبسوطتين امتد أنف رومانى جميل ، يُشرف على شارب بين مفتولين ، تحتهما فم واسع فى غير إفراط . ولقد جمع إلى نظافة الزِّىّ[2] والعناية بالهِنْدَام مظاهر الهيبة والوقار والسيطرة .

كان ممن لا تَميل عليهم المِرْبَعة[3] ، ذا إرادة تذوب أمامها إرادة

---

(١) حديده (٢) الهيئة (٣) العصا يأخذ رجلان بطرفيها ليحملا الحمل على الدابة

الجبابرة ، وذا قلب لا يعرف الهلع ، ونفس تحتقر اليأس والجزع ، وكان جماله فى حزمه ورزانته ، وسرعة بديهته وصفاء قريحته . وهو وإن وهبته الطبيعة قوة فى الجسم وصلابة البنيان دون وكيله بل بعض تابعيه فى هذا المضمار .

وكأنه خلق ليسيطر إذ ما دنا منه فرد إلا اعترف فى الحال بقوته السحرية ، وسلاطته النفسية ، ولم يندمج فى سلك عصابته شقى جديد إلا كان أطوع له من ظله ، وأسرع فى تنفيذ رغبته من الشهاب الثاقب . واكتسب كل من داناه أو عاشره من تلك القوة الهاروتية ، والعزمات الحديدية ، ما كان له نعم العون فى اللزبات [1] وعند الملمات .

كان لا يؤلمه فى حياته أكثر من رؤية إمعة [2] رعديد [3] ، أو مثلوج الفؤاد [4] عند الشد بليد . وسرعان ما كان يصب عليه جام [5] غضبه ويستوفضه [6] من حماه شر استيفاض . ولذا أتى وقت على عصابته لم تضم فيه تحت لوائها إلا كل صنديد ، فكانت كما قال هو فى بعض خطبه سيدة عصابات ذلك العصر .

لم يصادف فى جولاته شابا أيداً ، ولا سمع برجل قزام [7] إلا جد فى أن يجذبه إليه ، وكان سعيه دائما متوجا بالنجاح ، وكأنما يعرف كيف

(١) الشدائد (٢) الرجل يتابع كل أحد على رأيه (٣) جبان
(٤) بليد (٥) الجام أناء من فضة (٦) يطارده
(٧) شجاع لا يغلب

تمكن من أن يروض بخيتا على جموح فيه ويَسْلُكَه فى سلكه لِمَا أذِنَ [١] من بطشه .

كان شر أنواع الجرائم عنده أن يُكشف سر من أسرار عصابته بكلمة أو عمل . فويلٌ للمَذَابيع [٢] الغرابيل [٣] من يده التى لا ترحم ، والتى لا ترضى بغير حز الرقاب جزاء . وكان لا يشفى غُلّته إلا تولّيه إيقاع ذلك العقاب بنفسه .

ومن جَلالِ [٤] ذلك كانت عصابته بحق وعن جدارة فوق كل العصابات عَددا وعُددا وأوفرها هيبة ، وأكثرها نجاحاً ، وأملأها يداً .

* * *

ولد « السبع » بطل هذه الرواية « بكفر الجهنّمى » من أرباض [٥] ميت غمر ، وشبّ وترعرع فى حضن والده الكريم « السيد السبع » وبين طلال نَعْمَة وفيره كما يشبّ الولد الوحيد العَجِيّ [٦] . ولاقى من حَدَب والده الجمّ ما أسرع فى نموه ، وأظهره فوق سنه ، وكان سببا فى ظهوره بين أترابه بمظهر الصَّلَف والعجرفة إن عُدّ ذلك بين الأطفال . فكانوا يلقبونه أحيانا بالملك الصغير ، وأحيانا بالشيطان الكبير ، حسب ما يصل إليهم من أعماله ، ولطالما اضطرّ والده الرحيم أن يأسُوَ [٧] بما له

---

(١) علم (٢) مفشى الأسرار (٣) النمامين (٤) أجل
(٥) ضواحى (٦) من فقد أمه (٧) يداوى

آثار يده السريعة الضرب والتخريب مما يُعال[1] به صبرُ أكثر الآباء احتمالا

كان هذا الطفل القروى المتمرّد مصدر كثير من القلق بل الخوف لمعلمه فقيه « المكتب الجهنمى » الذى كان يهشّ لغيبته ، ويمتعض لحضرته على عكس مربى اليوم

وقصارى القول أنه كان الحاكم بأمره على تلك الشرذمة من الأطفال التى أظلّها سقف المكتب .

ولم ييأس ذلك الوالد من صلاح وحيده يوماً ما ، ولم تُعشِ[2] أعمالُ الطفل الشرّيرة عينَه عن ملاحظة ذكائه المفرط ونشاطه المتدفق

لم يكن ذلك الأب الأمى عالما من علماء النفس فيستفيد من ذلك النشاط الفيّاض ، ولا ذاك الفقيه مربّيا خبيراً فيستخدم هبات الطبيعة السخيّة التى تجلت أمامه فى صور الصّبية الطاهرة فيوجهها إلى مجراها المفيد . فترك المربيان حبل الطفل النامى على غاربه[3] ، فكان كالغزال الشارد لا يَلْوى على شىء ، أو الكُوسىّ[4] الجموح لا يرُوضه رائض .

وكاد يفيض معين ذلك الذكاء بالإهمال ، ولكن الطبيعة لم تشأ أن ترى ذلك النشاط المستمر يفيض كما كان يفيض ماء النيل العذب على جوانبه ، ويضيع جوهره فى ذلك الملح الأجاج ، فأوجدت له منفذاً وفتحت

---

(١) يعلب (٢) تعم (٣) الغارب ما بين السنام إلى العنق
(٤) الكوسى من الخيل القصير الدوارج

متنفساً . وما منفذها إلا العبث والتخريب ، وما متنفسها إلا الافتنان في الألاعيب

إيه يا ذات الكف النَّديّة ! لقد وضعت جميلا عند من لا يعرف قدره ، وسقْتِ جواهر لغير نقّاد !

سلخ الطفل الرابعة عشرة ولم يُخَطَّ له طريق في الحياة ، ولا حدّد له مستقبل ، بل تُرِك ينمو ويكبر كأبناء الأغنياء الذين معتمدهم في الغد ثروات أهليهم ، والذين يتمنَّونَ يوم التُّراث (١) .

وأخيراً رئى أن يُرسل الشاب إلى الأزهر الشريف على أثر نصيحة خالصة من أحد زوار البلدة العلماء . لَمَح ما في معارف الولد من استعداد ، وما في بدنه من قوّة ونشاط ، فأبدى أسفه لتركه على حاله من الإهمال . وما زال بالولد ووالده حتى أذعنا لمشيئته على كره منهما لأن الثاني لم يشأ أن ينفصل عن فِلذَة كبده ، ولأن الأول لم يتذوّق طعماً للعلم فيرغب فيه ، ولا تصوّر القاهرة وجمالها فيصبو إليها .

قُضِيَ الأمر وانتُزِع الشِّبل من عَرِين الأسد ، وسافر بصحبة ذلك العالم الجليل ، وليس وراء ما به من الغم والحزن غاية ، كأنه مسوق إلى السجن لا إلى دار علم تثقف فيها العقول ، وتُشحذ الأذهان ويدرس الدين

ابتدأ الدراسة ومضت عليه مَلاوَةٌ (٢) من الدهر تنقل في أثنائها من شيخ إلى شيخ ، ومن عمود إلى عمود ، يحضُرُ ما يروق له ، ويقرأ ما يلذّ

---

(١) الإرث (٢) مدة

لهواه . ومرّ عليه عشر سنين كان خلالها موضع عناية أبيه الشيخ ومهبط حِبائه[١] ، ولكن ذلك الغَمْرَ[٢] لم يزد المجاور إلا انبذيراً ، وذلك الإحسان المتصل لم يثمر فيه إلا شراً .

إنى لا أعْذُلك أيها الأب على شفقتك بولدك ، ولا على إمداده بسَيْبك[٣] لأنك قصدت الخير والتشجيع ، وأبى القَدر الا أن يُعقب إحسانك شرا ، وأن تثمر شجرتك صابا مُرًّا

وعزاؤك أيها الطيب السريرة أن لك فى ميدان الحياة مُثُلا ، وأن البحار يَلْفِظ جوفها جوهرا وصدفا . وكم تأتى الخافقات[٤] بما لا يشتهى الركّاب ، وينفرد النفّاع بالضرر دون الصحاب !

وحقيقة الأمر أن الفتى السيء لم يصادف العلم منه هوًى فى الفؤاد ، ولم تنل منه أسرار الشريعة ولا قواعد النحو والصرف والبلاغة إلا كما ينال الحَيَا[٥] صادف جَدْبا ، ولا حاكت[٦] فيه إلا كما يحوك المِعْول فى الصَّفا الصَّلْد .

إننا لا ننكر أنه كان على جانب من الذكاء عظيم ، ولكن الذكاء شىء والوَلوع بالدرس والتحصيل شىء آخر . انصرف عن الدرس إلى المشاغبة مع الطلبة والأساتذة ، كأنه أبى إلا أن يستعيد عصره الأول أيام كان يلعب بأطفال قريته وفقيهها لَعِب النَّكباء[٧] بالعود ، وجرب معهم

(١) عطائه (٢) الكثير (٣) بعطائك (٤) الرياح
(٥) المطر (٦) أثرت (٧) ريح انحرفت ووقعت بين ريحين

ما جرب يوم كان ناعم الأظفار فأصاب كراهيةً من بعض إخوانه ، وسخطا من جُلّ شيوخه .

وحدثت عدة مواقع بين المجاورين خَبَّ فيها ووضع [١] ، وسالت فيها دماء ، ورُضّت أعضاء ، وشُجت رءوس ، واستعملت الأسلحة الحمراء .

وما كان المدبر لها غير رأسه الكبير ، وما كان الحامل له على إيقاد تلك النيران إلا ضغائن كان يحملها للصَّعيديين . كأنهم ليسوا له إخوانا في العلم والدين !

وتتابعت تلك الغارات على ذلك الفريق من الطلبة حتى ضجّ الأزهر وشيوخه ، وحتى رُمي ذلك المعهد الكبير بالفوضى والخلل .

ولا عجب فقد كنا لعهد قريب جداً نسمع بأمثال تلك الحوادث بل أعظم منها .

خرج ذلك الثوْريّ من كل تلك الملاحم بفضل دهائه وفطنته وبتهديده مرة وبسط كفه أخرى ، كأن لم يكن مثير تلك الأحقاد ، ولا مُورِي تلك الزّناد . [٢] دخلها وهو مجهول القوة والتأثير من كثير من إخوانه ، وخرج منها وقد نبُه شأنه ، وزادت صولته ، وكمل نفوذه وكثر تابعوه ، وهادنه شانئوه [٣] وإن كانت هُدنة على دَخَن [٤]

هكذا كانت حياته بين جدران ذلك المعهد حياة ثورة وهياج وطِعان وصِيال ، لا حياة طالب علم وديع حريص على الاستفادة مطيع لأوامر رؤسائه .

---

(١) خب ووضع أسرع في السير
(٢) الزند العود الذي يقدح به النار والسفلى زندة والجمع زناد
(٣) مبغضوه
(٤) سكونا لعلة

الفصل الثامن عشر

بين « الفتوات »

أما حياته خارج المعهد فكانت لا تقل عنها داخله شغباً واضطراباً. اتصل ذلك الزعيم الفتى بطائفة من « فتوات » القاهرة . وكان سبب هذا التآلف الغريب حادثة صغيرة ندونها كما رويت لنا .

كان شيخنا جالساً مساء يوم عند أحد الورّاقين المنتشرين حول الجامع يتمنّى [1] كتابا به بعض أخبار « عمر بن معْدِ يكرِب الزُّبَيْدِى » ذلك المضروب به المثل فى الإقدام ، وإذا ببعض أفراد تلوح عليهم مخايل القوة يتقدمون نحوه ، حتى إذا ما أظلّته جسومُهم — وكان مُقيدٌ النظر فى الكتاب — نظر إليهم نظرة الاستفهام وقال : هل لكم حاجة ؟ فقال أضخمهم جثة : نعم . فقال : علىّ بها . فقال : إنا نريد امتحان قوّتك فلقد سمعنا عنك كثيراً من إخوانك وعارفيك أنك « فتوة » الأزهر . وإنا نحن « الفتوات » نُجِلُّ كل من أحرز هذا اللقب عن جدارة . فهل لك أن تبرهن لنا عن صدق ما سمعنا ؟

فهالها الشيخ عند سماع هذه الخطابة هالةً أدهشت « الفتوات »

(١) يقرأ

ونبهت إليه عيون الغافلين من الواقفين والمارّين . وحَفَّ (١) الكلُّ حول كرسيه يستنبئون عن الخَطْب .

فنهض الشيخ أخيراً من مقعده ، وقال مخاطباً ممتحنيه : خير لكم أن تنصرفوا ، فلقد جمعتم الناس حولنا بلا سبب . وشق الطريقَ لنفسه وأوشك أن يغادر المكان ، لولا أن طرق صِماخَ أذنه لفظ « جبان » .

فعَملت تلك اللفظة فعلَها فيه ، وإن لم يظهر لها أثر على صفحة وجهه النقية ، فدار على عقبه ، وتقدم خطوتين رزينتين قائلا : من ربُّ تلك الكلمة التى سمعتها الآن ؟ فصاح لافظها « أنا »

وهنا شعر الحضور بقرب إهْواء (٢) العاصفة ، واشتاقت نفوسهم أن تعرف من سيكون الظافر من القِرْنين ، غير أن وثبة سريعة من أحد « الفتوات » الآخرين حالت دون نشوب المعركة ، فغُمَّت نفوس وسُرَّت أخرى .

وقف الوسيط بين العدوين صائحاً : لا ياشيخ سبع . إن صديقى لم يرد إهانتك ، وإنى أعتذر عن هفوته ، ولم يسقنا جميعاً إلى مكانك إلا إعجابنا بيأسك ، وما تعالمنا من شهرتك ، ولقد أردنا منك أن تروى نفوسنا المتعطشة لعَجْم عودك ، وغَمْزقناتك (٣) ؛ فأبيت أن تجيب سؤلنا. وأنت حرّ فيما تفعل ، ولنا بعد ذلك رأينا فيك ....

---

(١) اجتمع (٢) هبوب (٣) اختبارك

نالت هذه الكلمة استحسان الجميع ، و إن لم يرُقْ عَجُزُها (١) فى نظر الموجهة اليه . واستمر المتكلم يقول « وأنا لم أتدخل بينك و بين دؤدؤ « الفتوة » الشهير دفاعا عنه فهو خير من يحمى نفسه ، ولا جبناً منى فإنى ما عرفت للجبن معنى ، ولكن لأحقن دما ليس هذا مجالَ هَدْره »

وأَزْرَتْ (٢) ضربةُ رجله للأرض مابرز على لسانه

« وإن أبيت إلا العَداء والمقاتلة فأنا حُدَيَّاك (٣) ، وإن شئت فابرز إلى أىّ واحد من أصدقائى تحت سفح الجبل »

فدوّى المكان بالتصفيق ، وتعالت صيحات الاستحسان والاستهجان ، وأحسّ السبع بحَرَج موقفه ، و إن لم تعلُ جبينَه غمامةُ خوف أو دَهَش وظهرت على شفته ابتسامة من ابتساماته الغريبة التى لا يُعرف بالدقة ماتحمل من المعانى وقال : إنك أخطأت التقدير ياصاح ، فأنا طالب لامحارب ، وليس هناك مايدعونى لأن أحمل لكم ضِغناً (٤) ، أو أبيِّت لكم غدراً . على أنكم كما قلتم تنتمون لطبقة « الفتوات » . وأما أنا فبعيد عنها بُعد السموات .

لم تُعجب هذه اللهجة الوديعة بعض السامعين ، وعدوها ضرباً من التقهقر المَعيب . ثم عطف يقول : وَهَبْنى خضعت لمشيئتكم ، فماذا تريدون منى أن أفعل ؟

فقال « الفتوات » فى صوت واحد : تعجبنا هـذه النغمة . والآن قد بدأنا نتفاهم .

---

(١) مؤخرها (٢) أبدت (٣) فابرز لى وحدك (٤) حقدا

ثم أبرز أحدهم من بين طيات ثوبه عصاً قصيرة صليبية [١] ، ودفعها إلى الشيخ قائلا : نريد منك أن تكسر هـذه العصا على ذراعك ، ولك خمسة جنيهات إن فعلت .

فأخذ السبع العصا فى يده ، وهزها كأنه يزنها ويختبر صلابتها ، ثم دفع بها إلى معطيها قائلا : اكسرها أنت ولك منى عشرة جنيهات فصاح الآخر : إنى جئت ممتحنا ، وإنى أعرفُ بقوتى ، ولـكننا مشتاقون لمعرفة قوتك أنت .

وفى هذه اللحظة فقط ظهر على وجه الشيخ علامة الغضب . وقبل أن يتهكن النظّارة [٢] مما سيحدث كانت العصا تهبط من فوق رءوسهم على ذراع الشيخ الأيسر ناشرةً شظاياها فى وجوههم .

« برافو ! » « برافو ! » . كلما استحسان شقتا عَنان السماء مشفوعتين بالتصفيق والتهليل . وترامى « الفتوات » المعجَبون على صاحبهم يمسحونه ويقبلونه ويعانقونه صائحين : أنت « السَّجيع » أنت رئيسنا ! فليحى « فتوة » الأزهر ! !

لبثوا كذلك بضع دقائق ينفصلون عن الشيخ ثم يَتَشَبثون به حتى ضاق المـكرَّم ذَرْعاً بهم وبترحيبهم ، ورجاهم أن يُخلوا سبيله . وقد كانوا على بَتَاتِ [٣] أن يحملوه فوق أعناقهم ، فلبَّوْا رجاءه

وحينئذ بسط أحدهم كفا مملوءة فضة وقال : هـذا هو الرِّهان فخذه

---

(١) متينة (٢) الناظرون (٣) وشك

حلالا . فنظر الشيخ فى وجوههم وقال : أظن أنكم أحوج إليه منى ، فخذوه أنتم هبةً منى

وتوقع الناس أن يَرَوْا أثراً لتلك اللطمة ، ولكن الشجعان لم يُحِسُّوا ما فى كلامه من وخز ، واعتبروه قطعة من شهامته وكرم نفسه يشكر عليها بدل أن يوبّخ

ولما رأى شدة إصرارهم ، وأنْ لا مَنَاصَ من قبول الرّهان ، مد يده لأخذه قائلا : إذا كانت هذه إرادتكم فدعونى أتصرف فى هذه القطع كما أشاء .

وما احتوت كفُّه تلك البَدْرَة حتى أخذ ينثرها فوق رءوس المُحْتَوِشين . وسرعان ماتقفتها الأبصار قبل الأحجار ، والتقطتها الأيدى من مواقع الأقدام وشقوق الأحجار . وكانت وهى تتناثر ، كأنها فلذ أكبادهم تتساقط وتتطاير .

وما أقشعَ مطر الشيخ حتى اختفى شخصه . وانطلق الناس وهم ما بين معجَبٍ بما رأى من قوة وسخاء ، ومسرور بما التقطه من القطع البيضاء .

الفصل التاسع عشر

حفلة حميدو

لما اختفى السبع عن أعين « الفتوات » والنَّظَارة أخذ سَمْتَه إلى منزله ، وما وصل هناك حتى كان ذراعه قد نَفَر[1] ، وأخذت عروقه تنبض نبضاً قويا وسريعا ، وشعر بالألم يسرى إلى كل أعضائه فلم يجد بداً من الاستعانة بأحد الأطباء ففعل

لم تكن عيشة السبع كعيشة غيره من المجاورين التَّرِبينَ[2] خالية من ضروب الراحة وعلائم السرور ، بل كانت عيشة رجل ميسور الحال ، هادىء البال . فلم يتخذ مسكنا بالجامع كبعض إخوانه ، ولم يشارك عشرة فى قاعة أو قاعتين كما كان حال غيره ، وإنما شغل شِقّا جميلا نظيفا من بيت فى « باب الخلق »

كان ذلك الحادث حادث العصا كما سطرنا سبباً للتعارف بين بطلنا وجماعة « الفتوات » من دؤدؤ المصرى ، وحميدو الإسكندَرى ، وشديد الجزار ، وشاهين الببّ وغيرهم .

وجذبه إلى الدخول فى غِمارهم ، والانخراط فى سلكهم ، ما لاقى منهم من إكرام وتَجِلّة وحفاوة وبشاشة ، وما لاحظ فيهم من آيات

---

(١) وَرِمَ (٢) الفقراء

أولى البأس ، وما قرأ على صفحات وجوههم من علامات الإخلاص والوفاء والتضحية

وكان إعجابه بهم وبمزاياهم لا يقل عن إعجابهم به وإكبارهم لصفاته والأرواح جنود مجنّدة . ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . وسرعان ما حالَ هذا التعارف إلى صداقة ، وذلك الإعجاب إلى حب متين ، فسايرهم وداخلهم ، وآكلهم وشاربهم ، وقضى معهم الساعات الطوال طوراً فى محالّ شغلهم أو فيما يرتادون من القهوات ، وطورا بالأزهر

ولَشَدَّ ما كان يأخذك العجب حين ترى بعضَهم متزينا بأحسن لباسه وجالسا بجواره فى حلْقة الدروس يسمع لأحد المدرسين مُغْمِضاً رأسَه كأنه فاهم لما يسمع

وحُمَادَى المقال أن هذا الزميل الجديد أصبح عماد سعادتهم ، فلا يتم سرورهم إلاّ به ، ولا يهنأ لهم طعام أو شراب لم يشاطرهم إيّاه ، ولا تزدان حفلاتهم التى كانوا يقيمونها بين وقت وآخر إلا بحضوره ، فالتمسوه وقت فراغه — وما أكثر أوقات فراغه — وأطلّوا عليه وقت الدرس ، وماشوْهُ فى رحلاته القصيرة المتعددة . ولم يألوا جهداً فى تعريفه بكل من جمعتهم وإياهم جامعة القوة

وكان الشيخ كما علمنا ندىّ الكف سَبْطَ البنان [1] جمّ المروءة . فغمرهم بجوده على تمنعهم ، وواسى فقيرهم بما سمحت به جِدَتُه

---

(١) كريما

و بتطاير صيته فى عالم « الفتوات » القاهرية خشيه جميع الازهريين وتجنبوا إحفاظه (١) أو إيغار صدره ، إلا فتويًّا واحدا أبى أن يقرّ سلطانه ويخضع لأمره ، وأنِفَ أن ينافسه منافس فى زعامته لحزب الصعيديين ولـكن سرعان ما اعترف على ملأ من إخوانه بزعامة السبع التامة وأنفه فى الرّغام . (٢)

***

كانت الليلةُ ليلةَ حفلة « لحيدو » . أقامها إخوانه احتفاء بنجاته من موت ورده على أثر اصطدام حصل فى الموسكى . وشارفت الساعة الثامنة ولم يحضر مدعوهم . فخف دؤدؤ للبحث عن الشيخ والتمسه فيما يتردد عليه عادة من الأمكنة فلم يجده ، فأوفض (٣) إلى الازهر . وهناك على مقربة من الباب الغربى وجد ضالّته المنشودة

وجده يتحادث فى شىء من الغضب مع أحد الطلبة ، فوضع كفه على كتفه ، وقال إن أصحابك قد نفِد صبرُهم من انتظارك ، وقد تركتهم على أحرّ من الجمر؛ فهيَّا نذهب إليهم على عجل

ولـكن المتكلم لم يحظَ منه بغير ابتسامة متكلفة ، فقد استمر الشيخ فى حديثه مع محاوره قائلا : ولا تزال مصرًّا على متابعة الشكاوى ضدى ؟ فأجاب الآخر بكل ما فيه من عزم : نعم . ولن أقلع عن ذلك ، مالم تقلع أنت عن تحريض مأجوريك ضدنا

(١) إغضابه (٢) التراب (٣) أسرع

فهمّ الشيخ بصفع المتحدّى لمقام الزعامة ، ولـكن دؤدؤا حال دون ذلك ، مقنعاً صديقه بضرورة التحول عن مكانه واللحاق بمنتظريه ففعل بعد أن رمى وجه خصمه بهذه الـكلمات : لك أن تنبَح كما تشاء فما كان الـكلب ضائراً الـكواكب بنُباحه ، ولك أن تنطح ولـكن ماعسى أن ينال الوَعِلُ[١] من الصَّفاة[٢] بنطاحه ؟

ولم يرَ الشيخ سعيد الحملاوى فى حلقات الدروس مدة ثلاثة أيام من مَساء تلك المقابلة ، ثم ظهر غداة[٣] اليوم الرابع فى حلقة الشيخ « الأشمونى » بعين سوداء ، وأنف مخدوش ، وجبين أشجّ وذراع معلّق إلى صدره — ظهر كاظم الألم ، بيّن الانقباض والاستسلام .

ولم يعدُ جوابه لـكل سائليه الذين شُدِهوا[٤] لمرآه الغريب ، والذين ذهبت بهم الظنون فى أمره كلّ مذْهَب هذه الـكلمات : إن ما أصابنى إحدى مشيئات القدر .

هكذا كانت إجابته المبهمة التى لم تَشْف غليلا أو تُقنع مستفسراً . ولم يفْطَن للسبب الحقيقى من تلك الجموع غير شخص واحـد هو الشيخ السمع .

جاءه بعد انتهاء درس التفسير وقال مبتسما وأمام جمع محتشد من الطلبة : إنى أرثى لحالك ياشيخ سعيد ، وإنه ليعزّ علىّ أن أراك مشوّه الوجه مهيض[٥] الذراع

---

(١) التيس الجبلى (٢) الصخرة الملساء (٣) بكرة
(٤) دهشوا (٥) مكسور

فأجابه الآخر ـ بعد أن شكر له ـ جوابه المكرَّر : إن ما أصابنى إحدى مشيئات القدر . ولقى الفرصة سانحة للكلام فقال : بلغنى أنك أصبحت الزعيم المختار لجميع الطلبة ، وإنى لا أودُّ أن أحدَ[1] بالشذوذ عنهم ، ولذا فقد صمَّمت من الآن أن أنضوى تحت رايتك ، وأكون طوع أمرك ، بل أستعديك[2] على درء ماعسى أن يهددنى من ضرر . فلتكن حامَينا كما أنت زعيمنا !

لم تُبْرِحْ[3] لهجته هذه بعض إخوانه ، إذ رأوا فيها لونا من الاستكانة والتذلل لا يليق بشخص عدَّ نفسه زعيما رَدَحا من الزمن ، وعزَوْا ذلك التقهقر السريع إلى ما حلَّ به من يد السبع الشديد .

فقال الآخر : يَسُرنى أن أسمع منك ذلك ، ولكنى أتمنى أن يكون ما بدا على شفتيك مطابقاً لما يضمه صدرك ، وألا تكون كمن يُسِرُّ حَسْواً فى ارْتِغَاء .[4]

ولقد أخطأ الطلبة فى عَزْوهم ما ناب زميلهم إلى يد الزعيم فانه بَرَاء مما نسب إليه ، وإن كان هو سببه .

وحقيقة الأمر أن دؤدؤا لم يعجبه تحدِّى الحلاوى لصديقه الأعز ، فتربَّص له فى اليوم الثانى من غير أن يُشعر صديقه ، وأنزل به ماشاهدناه ، وهدده بالقتل إن هو حمل على السبع أو وقف حجر عثرة فى سبيله بعد ذلك .

---

(١) أنفرد (٢) استعين بك (٣) تعجب (٤) يظهر خلاف ما يبطن والارتغاء شرب الرغوة

كانت الحفلة على تواضعها مظهراً من مظاهر الولاء وتوثق عرا الصداقة بينهم استعملت فيها الدُّفُوفُ والمزامير ، وتخللها أكواب حلو الشراب . لا كؤوس الحَبَاب (١) . وكان أصحابنا جميعاً لا يَحْتَسُون العُقار (٢) لاعتقادهم بما فيها من مضار ، وكانوا ضد كل تلك السموم التى تهدم المُنَّة (٣) البدنية ، وتعبث بالقوى العقلية ، فحافظوا بذلك على سمعتهم ، وكانوا خير نَمُوذج لمن يريد أن يندمج فى مصافّهم

خرج السبع من الاجتماع وهو أثلجُ ما يكون نفسا وأروح بالا . وأضافت تلك الحفلة إلى دائرة معارفه شخصا كان له اتصال كبير بحياته المستقبلة ، وأثر فعّال فى الحوادث التى أخذت مكانها ، وفيما قُورِفَ من جرائم ضجت لها الأرض والسماء .

ذلك الشخص الجديد هو صاحب « القهوة الحسينيّة » بالقرب من مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه . نجم الدين سالم

ولم يكن « نجم الدين سالم » هذا غير عيسى الكومى وكيل العصابة وذراع الرئيس الأيمن .

وشاءت الأقدار بعد أن رمت بأحدهما فى حضن الآخر أن تقرّب من هذين الرجلين السبع والكومى ، وتربط حبال حياتهما ، وتنسج خيوط أملهما ، لتجرُفهما فيما تجرُف سيولُها ، ولتحطّمها فيما بعد شر تحطيم .

---

(١) الخمر (٢) لايشربون الخمر (٣) القوة

الفصل العشرون

المكاشفة

كان هذا الصديق الجديد أكبر سنا من السبع بقليل . أرْبَى (١) على الخامسة والعشرين ، أقرب إلى الطِّوال وأبعدَ من المُبَدَّنين (٢) ، حديد العصب ، قوى العضل ، مستطيل الوجه ممتلئه ، بارز الحاجبين فى غِلَظ ، أكْحَلَ العينين فى اتساع ، أشمّ الأنف ، عظيم الوجنتين ، عريض الدِّيبَاجَتَيْن (٣) منتشر الأذنين ، طويل العنق فى اكتناز ، يغطى شاربا المتهدلان الكثيفان فماً متوسط السعة ، وينبت فى وجهه لحيةٌ خفيفة حالكة السواد . أما لباسه فجلباب فَضْفاض (٤) وشبه عمامة .

مضت سنتان على هذا التعارف سكنت فيهما نفس أحدهما إلى نفس الآخر ، وحلّ كل محلّ الثقة من أخيه .

كان الوقت مَوْهِناً حين جلس الصديقان يصْطَليان (٥) بنار القهوة ويخوضان فى الحديث ، والحديث ذو شجون . وكان المكان خاليا إلا منهما ومن صبىّ منزوٍ وراء خِوان مستفشٍ بثيابه ، قد أخذ الكرى (٦) بمعاقد جفنيه

---

(١) زاد (٢) السّمان (٣) الخدين (٤) واسع

(٥) يستدفئان (٦) النوم

وبعد التحدث قليلا فى الأحوال العامة استطرد السمع إلى مفاتحة صديقه فى أمر شغل باله منذ أيام قلائل فقال :

إنك يا نجم الدين تعتبرنى صديقا مخلصا لك ؟ فقال الآخر : من غير ما شك ، وإنى لى أعظم الشرف أن يكون مثلُك فى عِداد أصدقائى فقال : ولماذا إذن وَكَمْتَ [١] عنى بعض أسرارك ؟ قد لاحظتُ منذ أربعة أيام أنك غير من عَهِدْتُ منذ شهور . لاحظت قلة ابتساماتك وقهقهاتك السارة لزائريك وعارفيك ، وانقباضك وانزواءك على غير عادتك ، ولمحت على محيّاك آيات الهم المقلق والتفكير الشاق [٢] فهل عراك خطب لاتود وقوفنا عليه ، أو كظّتك [٣] ضائقة تكره أن نساعدك على الخلاص منها ؟ خبرنى يا نجم الدين عن سر هذا التطور السريع ، والتغير العجيب ، فإن لى حق معرفته . وإذا ساغ لك أن تخفِرَ [٤] أمرك عن بقية أصحابك فلا يسوغ لك مطلقا بعد أن علمت من أمرى ما علمت أن تعاملنى تلك المعاملة . على أنى ضربت للأمر جِزْوَته [٥] أن أكَشِّفَكَ عن الحقيقة تكشيفا [٦] ، إذ ليس من مذهبى ولادينى أن أروح وأغدو قرير العين ، ثالج الفؤاد [٧] ، وأحد أصدقائى كاسف البال ظاهر البَلْبال . ولقد كان يمكننى أن أستطلع الخبر من دؤدؤ وحميدو أو غيرهما ، ولكنى لم أرد ذلك ، وآثرت أن أقف على جانب الحقيقة من فمك أنت .

---

(١) حبست (٢) الهازل (٣) بهظلك وكربتك (٤) تستر
(٥) وطنت عليه النفس (٦) أكرهك على اظهارها (٧) مطمئنا

أثرت هذه الكلمات المجسّمة للإخلاص والمعبِّرة عن عناية صاحبها وألمه فى نفس السامع أيما تأثير فجاشت (١) نفسُه إلى صديقه . ورئيت دمعتان حارتان فى عينيه لم تلبثا (٢) أن تحدرتا إلى خديه وقال :

لله ما أكثرَ إخلاصك يا سيدى الشيخ ، وما أعمرَ قلبَك من المروءة ! وإن ما سمعته أذناى الليلة ليفوق كل منتظر ، وليَدُلُّ على مااللافظِ من كرم الأرومة(٣) وعظيم الخطر(٤)، ويبرهن على أن فِراستى فيك كانت صادقة ، وأنى رميْتُ عن قوس الحقيقة حين كوّنتُ رأيى فيك منذ سنتين .

ثم خانه صوته فتعثرت الكلمات على لسانه برهة ، ثم ارتدّت إلى مستقرها .

فقال السبع مداعباً ومتبسما : لله أبوك يا نجم الدين ! ما ظننت قبل الآن أنك خطيب مفوّه ، وما حسبت أنك تستطيع أن تحمِّل لسانك ما يجول بنفسك ، وإن كنت كبعض البلغاء يُرْتَجُ عليه حين تُنْشَر الآذان ، وتتفرغ الأذهان . والآن يحسن أن نتناول القهوة فلقد بردت ، ولعلها تُطلق لسانك فنلتقط الحقيقة من طرَفه .

ثم هَا هَاهأة متصنَّعة ، وأفرغَ فنجانة القهوة فى فيه . وحاكاه صديقه .

بعد ذلك شرع الكومى بسرْد قصة غمه ، ويوضح سرَّ همّه فقال :

---

(١) أقبلت (٢) تلبثا (٣) الأصل (٤) القدر والمنزلة

قبل أن أطلعك على خَبيئة أمرى أسألك الصفح عن تذمّمى من مناداتك[1] بالحقيقة قبل الآن ، فإن الحوادث علمتنى كيف آخذ بالحيطة وأوثر سوء الظن بالناس ، وما سوء الظن إلا عصمة . وربما يسرك أن تعلم أنك أول فرد اخترتُه ليكون موضع سرى الكاتم ، ورافِدَ رعبى الأليم . فمع ما بينى وبين أصحابنا من تبادل الثقة وعظيم المحبة لم أفكر دقيقة ما فى أن أصطفى واحدا منهم ليكون وعاء مكنونى ، أو صخرة دخيلتى . . ولولا ما عهدت وأعهده فيك من الأمانة والشهامة لترددت كثيرا قبل أن أفضى إليك بحكايتى . . . .

فقال الآخر : عفوا يا نجم الدين فما أردت من طلب الأمر أن أثير شَجَنا دفيناً ، أو أنبُشَ أسًى لاذعا . وإذا كان ما ستقصُّهُ علىّ يضاعف من ألمك ، بدل أن يُضعف منه كما أمّلت ، فإنى متنازل من الآن عن هذا الطلب . وحسبى أن أشاطرك حزنك من بعد حتى تمكننى المقادير من إزالته .

فابتسم نجم الدين لأول مرة منذ ليال وقال : وكيف يمكنك يا صديقى أن تزيل مبعث بَثّى[2] إذا كنت تجهله ؟ لا . لا . يا سيدى . إن تنازلك عن سؤالك لا يُجْدِينى فتيلا ، بل إن إصرارك بالعكس قد يكون فيه شىء من المنفعة لى . على أن فكرة إخبارك بحالى كانت إلى الليلة فى حيّز الإمكان ، وغاية ما فى الأمر أن استفسارك عجّل تنفيذها . وربّ

(١) إظهارها (٢) حزنى

تعجيل أجَلَ [١] نفعا . وهأنذا واقفك على كل ما تشتاق إليه :

إن بلدى الذى ولدت فيه وقضيت بين جوانبه شَرْخ [٢] شبابى هو « كوم النور » . ولقد نَشَأنى والدای تنشئةً طيبةً وأحاطانى بكل ضروب الرِّعاية ، وإن لم يُعْنَيا العناية التامة بأمر تعليمى ، بل كان جُلُّ همهما أن يريانى فى صحة جيدة وبِنْيَةٍ سليمة .

رأى والدى أن يُشْركنى معه فى زراعة أرضه ففعل . وأظهرت من الجد والنشاط فى خدمة أرضنا ما أُعْجِبَ به أبي وأخى الأكبر ، وما زلت أفْلحُ الأرض وأزرعها حتى لَوَيْت [٣] . وحينئذ رأى والدى أن يزوجنى من ابنة عمى التى كانت تعيش معنا لأنها يتيمة ، فأبيت معلِّلا إبائى بأنى أعتبرها أختًا ، وأن المرء لا يحق له أن يتزوج من أخته ، فلم يرُقْ هذا فى عين أبى سببا ، وألحَّ علىّ كما ألحت أمى ولكن بلا جدوى .

ولما وجد والدى إصرارى الشديد على الامتناع لجأ إلى سلاح آخر حسب أنه يَفُلُّ من غَرْب عزيمتى ، ويضطرنى للاقلاع عن فكرتى . فهددنى أن يتبرأ منى هو وبقية الأسرة إن أنا ألححت فى عنادى ، وركبْت متن المعارضة .

ولكن ذلك لم يَثْنِ من عزمى وظهرت حقيقة بمظهر الولد العاقّ لأبيه الشفيق ، ثم فاض شَجْوَى ، ولم أتماسك أن أطلعه على سر امتناعى الحقيقى . أخبرته أني أحب فتاة معيَّنة ، وأنى مصمِّم على الاقتران بها

---

(١) حلب (٢) أول (٣) بلغت العشرين

رغم خِطْبتها لشخص أعرفه إمّا باللين ، وإما بالقوة .

وما سمع أبى هذه المفاجأة حتى كاد يطير لبّه ، وتقف نَبَضات قلبه ، وصاح : لستَ بولدى ، ولا أعرفك بعد هذه اللحظة ! وافضيحتاه ! ! أغْرُبْ عن وجهى ! وإن هذا البيت الذى أظلّك عشرين سنة لن يظلّك دقيقة أكثر ! !

طُرِدْتُ من حضن أهلى طرد الكلب الأجرب ، وجانبنى كل من عرف قصتى مجانبة المجرم ، فهِمْتُ على وجهى فى الحقول ثلاثة أيام لا أعرف لى مُراغَماً[1] ، وتحوّل عشقى لتلك الفتاة القروية إلى جنون مُطْبق

تذكرت أن يوم زِفافها قد حان فعدت إلى القرية — ولا أعرف كيف عدت — فى مساء اليوم الثالث من شرودى . وقضى الله أن يكون أول من يلاقينى فى طريقى عدوّى الألد ، ومنافسى فى حبيبتى . وكان على نَجْز[2] أن يعود من عمله إلى بيته .

ذكّرنى مرآه بمن أهوَى ، وعجبت كيف يحظَى بها وأنا حى . وقبل أن يأخذ الحيْطة لنفسه ، التقطت حجراً من الأرض وهشّمت به رأسه فخرّ صريعاً .

---

(١) مذهبا ومهربا (٢) شرف وقرب

الفصل الحادي والعشرون

السجن

لم أشعر بعظم الجريمة إلا بعد وقوعها . فقد وقفت أمام ذلك القتيل مقيَّد الرجلين مدةً ظننت أنها ساعات ، ثم فررت من هول ذلك المنظر . . . وهنا سكت لحظة كأنه لا يود أن يعيد إلى خياله تلك الصورة المؤلمة . ثم أردف يقول : فررت ولكن من الموت إلى الموت !

فقال له صديقه وماذا تعني بقولك هذا ؟ فقال : أخذت أجري فراراً بحياتي وأبُوقاً [١] من ذلك المنظر الفظيع ولكن أين الفرار وقد رنَّ الأفق حولي : اقبضوا على القاتل ! اقبضوا على القاتل !

خيّل إليَّ أن الناس وقفوا في كل مكان يترصَّدون ظهوري و يتهيئون للأخذ بتلابيبي ، وأن الفضاء حولي وفوقي يَموجُ بالأشباح صارخةً لاغيةً [٢] . آه ما كان أصعبها ساعة أَعْشَى القدرُ فيها عيني وأصمَّ أذني ، وطاح بصوابي ! ! وما زلت أجري كالمَأْموم [٣] حتى وجدت نفسي في أحضان جماعة أعرفهم من أهل بلدتنا وأمام بيت العمدة .

فصاح الكل : ما الخطب ؟ وما الذي أشْخَصك [٤] هذا الإشخاص ؟ فقلت بصوت مختنق : لا شيء . لا شيء . فقالوا لا شيء وأنت بهذه

---

(١) هروبا (٢) متكلمة (٣) المجنون (٤) أزعجك

الحالة المُريبة ؟ ألم تنظر إلى ملابسك و يديك ؟ ألم تسفك دم إنسان فى طريقك ؟ ألم تقتل السيد بن شعبان ؟ فقلت . بلى قد قتلته .

نظرت ولم أكن قد لاحظت شيئاً مما لَحَظوا فاذا آثار الجريمة الرائعة عالقة بملابسى ، وإذا بقع الدم الحارّ تسطع على كفىّ وذراعى وقدمىّ . وسمعت طنين آلاف من الأصوات البعيدة يرنّ فى أذنى الدم ! . . . الدم ! . . .

تمنّيت أن تغوص بى الأرض غَوْصاً لا رجعة منه ، ولو استطعت الانتحار لما ترددت لحظة فى إنفاذه . وظهر أمامى وجه أبى العزيز وقد علته سحابة دَكْناء (١) لم أرَ فى حياتى مثلها ، وانهمل دمعه على خديه مِدْرارا

فقلت : ارحمنى يا أبى ! اغفر لى زلتى ! فقال : أطلب الرحمة من القضاء ، والغفران من الله . أما أبوتك فلا رحمة لديه لمثلك ، ولا غفران عنده لعقوقك وقتلك !

وفى هذا الوقت تعالت الأصوات من كل جانب نادبةً القتيل ولاعنةً القاتل . وأقبل الخفراء والعمدة فكبلونى بالحديد ، ثم ساقونى فى نفس الليلة إلى ميت غمر ، فقضيت ليلة سوداء بين جدران سجنها وفى اليوم الثانى أخذ التحقيق مجراه واعترفت بالجريمة

ولما خَلَوت إلى نفسى ، أخذت أفكر فى حالتى التاعِسة ، وفى طريق

---

(١) ضاربة إلى السواد

الخلاص من ذلك الموت الأحمر ، الذى ينتظرنى كل دقيقة . وتمثلت لى الدنيا بجمالها وزخرفها ، وعزّ على أن أفارق الحياة ولم أتَمَلَّها (١)

وأخيراً قر رأيى على الهرب ، و بدا لى الأمر مستحيلا لأول وَهْلة ، ولكنى وجدته بعد ذلك ممكنا .

لجأت إلى قوتى وكانت عظيمة فى ذلك العهد فاستخدمتها فى لَىِّ قضيبين من قضبان النافذة الوحيدة لغرفتى لَيَّةً سمحت لى بالمرور ، وتمكنت من الفرار

لبثت رَدَحا من الزمن متنكرا ، تترامانى البلاد ، وتتهادانى الخطوب مشرَّد الفكر ، مروَّع القلب ، مسهَّد الجفن ، حتى رسا بى التسيار على القاهرة فولجتها .

ولجتُ ذلك الصدر الرحيب الذى يسع البارّ والفاجر ، والبرىء والوازر (٢) ، والوفىّ والغادر . لُذتُ بذلك الملجأ علّنى أصيب فيه خلاصا من بلبالى ، وهَدْأةً لنفسى ، ولكن أنّى لمجرم أثيم أن يقرّ له قرار ، أو تفارقه الوساوس والأفكار ؟ أنى له أن يُلْقِىَ أَزْوَاقَهُ (٣) فى حىّ والمشنقة تناديه ، أو يثق بنجاته والجواسيس تعاديه ؟

ولكن القاهرة كالبحر الواسع تمخُر فيه السفن ولا تصطدم . وكذلك كنت كسفينة البحر أسير هنا وهناك بدون أن أعبُر طريق مطاردىَّ إلا خَطْرَة (٤)

---

(١) أستمتع منها (٢) الآثم (٣) يقيم مطمئنا (٤) أحيانا

اصطدمت مرتين فقط منذ وطئتْ قدمى أرض القاهرة بأولئك المتتبعين لخطاى . كانت إحداهما أيام كنت أشتغل بحانوت جزار بالسيدة زينب ، وقد فررت من قافٍ قبل انقضاضه علىّ بزمن قصير . وكانت الثانية أيام كانت مهنتى مساعدة تجار الفخّار من القلل والأزيار بساحل « روض الفرج » .

لا تعجب يا سيدى الشيخ من تنقلى من حرفة إلى أخرى لا مناسبة بينهما فقد علمتنى الحاجة أن أميل مع الرياح الهابّة ، وأن أصطنع كل مهنة مؤمّنة ، ودفعنى حب الحياة إلى التنكر والظهور بمظاهر مختلفة .

كرّ أربع سنين متتالية ولم يُزعجنى مزعج أو يطرأ طارئ حتى أيقنت أن عصر الإرهاب قد زال ، ومدة المطاردة والمراقبة قد دثرتْ . وشعرت أنى طليق ، وأخذت أتنسم نسيم الحرية ، وتدبّ روح الحياة إلىّ بعد أن كادت تطير منى .

ولكننى كنت مخطئا فى هذا الزعم ، فمنذ أربعة أيام فقط لمحت شبح الماضى يظهر فى أفق ، ولحظت أحد الجواسيس يراقبنى بعناية وعن كثب . رأيته ثلاث مرات فى أوقات مختلفة خلال الأربعة الأيام الأخيرة ، وسمعته يتساءل عنى وعن اسمى وحرفتى من بعض جيرانى ، ويتسقط أخبارى من بعض زائرىّ ، ولكنه لم يواجهنى بسؤال ما ، ولعله لمّا يكوّن رأيه فىّ .

غير أن ضميرى يوحى إلىّ الآن أن النّامُوسَة [١] قد نصبت ، وأن القنيصة لا محالة متردّية [٢] فيها ، ما لم يُتّخذ احتياط سريع .

فسأله صاحبه المشدوه : وهل أخذت الخَيْطة التى تشير اليها ؟ فقال نعم . فسأله ما هى ؟ فقال أن أغادر هذا الحىّ حالا و بلا تردد وأعمِد إلى التنكر كما كنت أفعل منذ زمن .

فقال ولكن هل تعتقد أن هذا سلاح ينجيك من ذلك الخطر ؟ فقال إنى لا أعتقد أنه السفينة الوحيدة الموصلة إلى بر السلام ، ولكنى جربته فى العهد الغابر فأخرجنى من مآزِق ، فلِمَ لا يساعدنى هذه المرة ؟ فقال : إذا كان عندى حل لمعضلتك خير من حلك فهل تقبله ؟ .

فقال ونُعْمَى عَيْن [٣] ولكن ما عسى أن يكون هذا الحل ؟ علىّ به فانى أشعر بالحاجة إلى من يفكر لى .

فأجابه صاحبه : الذى أرتئيه للخلاص من هذه الورطة أن تطير من القاهرة كلها ، وتخفى نفسك فى مكان أمين ، حتى تنقشع تلك السحابة السوداء . و إن ذلك المكان الذى سيظلّك و يحميك هو قريتى « كفر الجُهنّمى » . فهل تقبل أن تذهب اليها وفى صحبتى ؟ .

فأصاب الآخرَ ذهولٌ لم يُحِرْ معه جواباً لأنه لم يتوقع مثل هذه المفاجأة .

---

(١) الشرك (٢) ساقطة (٣) أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما

فردد السبع : هل قبلت أن تسافر يا نجم الدين معى ؟ يظهر أنك فقدت لسانك أو عقلك ، ولذلك فأنا أجيب عنك بالقبول .

ثم أدنى فمه من أذنه كمن يُسِرُّ أمراً هامّاً هامساً : اصْغَ إلىّ . غداً فى الساعة العاشرة صباحا سأحضر فى عربة لحملك إلى المحطة . فلتكن على أتم الاستعداد ، وَحَذارِ أن تتأخر فليس فى أمرك فُسْحَةٌ للتباطؤ . ثم سلم وانصرف .

وفى طريقه إلى منزله خُيِّلَ إليه أنه يسمع أقداما تتبعه ، فرمى بنظرة وراءه ثم بثانية ، ولما لم يجد شيئاً غريبا يَمّم نحو مسكنه . ومكث فى فراشه بعض ساعة تنأى به الأفكار وتقرب ، وتطفو وترسُب . ثم حلّق طائر الكرى فوق جبينه فَغَرِقَ فى نومه .

الفصل الثانى والعشرون

الفرار

أسفَرَ الصباح يُزْجى (١) السحاب ، وأطلّت مُقلة المَهاة (٢) على الناس فهبوا للطلاب ، والشيخ السبع لا يزال يَغِطّ فى نومه ، ويسبح فى أحلامه . وكأن سلطان النوم أبى أن يفلته من قبضته ، حتى يستوفى حق التأخير لساعته .

---

(١) يسوقه سوقا رفيقا (٢) الشمس

ولم توقظه إلا نقرة الخادم على باب غرفته ففتح عينيه مذعوراً .

وتذكر الميعاد فهبّ من فراشه ، وأسرع فى إعداد ما عزم على أخذه معه

وحوالىْ منتصف الساعة العاشرة كانت عربة تُـقِلّه من ميدان باب الخلق إلى شارع الحسين . وعلى مقربة من القهوة الحسينية وقفت العربة ، وأطلّ الراكب لينظر هل صاحبه على استعداد للرحيل . ولكن بدل أن يجد صاحبه وجد ثُلة من رجال الشرطة يحيطون بالقهوة ، ولاحظ عَمَاعِم(١) من الناس يتهامسون و يتغامزون ففطن بنظرة واحدة إلى ما حدث .

همّ بالترجّل ليستوثق مما جرى ، ولـكن جسما عظيما دفعه إلى مقعده من العربة هامساً فى نفس اللحظة : خير لك أن ترحل من هنا .

وقفز ذلك الجسم العظيم إلى جانب الراكب آمراً الحوذىّ بالعودة و بسرعة السير .

« الحمد لله على أنك هنا و بجانبى ، وعلى أن صديقنا قد أفلتَ قبل حلول الصاعقة » .

انبعثت هذه الـكلمات من فم الراكب الجديد بعد أن استقر فى مكانه .

فقال الآخر : إنى أشاطرك الحمد على افلات صديقنا العزيز ، ولكن لا أفهم حمدك على أنى بجوارك ، فهل من خطر يهددنى أيضاً ؟

فقال دؤدؤ : نعم يا صاحبى . لقد أرادت قبضة الجاسوس أن تحتويك

(١) جماعات متفرقين

ولكن الله سلّم فأفلتّ منها . واليك الخبر كما شاهدت وسمعت :

كنت فى حانوتى الساعة الثامنة أعد ما يحتاج معاملىّ من اللحم وإذا « بهشام » صبى نجم الدين يُهَرول فى طلبى ويخبرنى أن « عمه » يلحّ فى أن يرانى حالا . فظننت أن المسكين أصيب بعارض فجائى لأنى لاحظت أخيراً أن حالته غير عادية ، وربما لم يفتك ملاحظة ذلك

فقال الآخر : نعم لاحظت شيئاً من ذلك، ولكن استمر فى الحديث .

فقال : ولكن الولد طمأننى من هذه الجهة ، وأنبأنى أن عمه على نية السفر اليوم معك . ولم أكن أعلم بعزمكما هذا الفجائى . فذهبت بى الرِّيب مذهَبَها فى شأن هذا السفر ، وأخيراً صحبت الصبى إلى القهوة .

وهناك وجدت نجم الدين يستعد حقيقة للسفر . فلما رآنى هَشّ فى وجهى ، ثم جذبنى من ذراعى إلى ركن بعيد من القهوة وقال : أظن أنك دَهِشْ مما ترى ، ولكنها إرادة صديقنا الشيخ . رأى بعض الضعف فى صحتى ، وأن تغيير المناظر ربما يفيدنى فتفضل بأخذى معه إلى بلدته بضعة أسابيع ، ولما كان الولد لا يعتمد عليه وحده فى إدارة القهوة فإنى أرجو منك ومن إخوانى أن تشملوه بشىء من رعايتكم حتى أعود . ولكم الشكر أولا وآخراً .

ولم يرتبنى شىء من أمره إلا كثرة تلفته وإطلاله كثيراً خارج الباب ، وحملت ذلك على أنه يترقب أوْبتك . وحوالى الساعة التاسعة تركنى أشرب الشاى ، وأخذ مكانه عند الباب متلفتا يمينا وشمالا كأنما

كان يحسّ بدنوّ الخطر . وقبل أن أعرف سبب وثبته رأيته يقفز تُجاهَ الباب البحرى صائحا فى وجهى : لقد جاء الجاسوس . . . فإلى اللقاء الليلة عند سفح الجبل .

وفى دقيقة لم يُرَ له أثر فى الحى الحسينى .

طار وتركنى فى جو كله إبهام وألغاز، ولم أُحِطْ إلى هذه الدقيقة بسر هذا الهروب والاختفاء . فقال صاحبه : لا تعجَب فالناس أسرار غامضة قد يوضّحها مرُّ الجديدين[1] . وماذا فعلت بعد هذه المفاجأة ؟ فأجاب :

نهضت إلى الباب لأستطلع مَبعث الذعر وداعية الفرار فإذا أمامى رجل هزيل البدن، طويل القامة ، مفتول الشاربين ، عليه لباس من صوف يعلوه مِعطف أسود ، وعلى مَنكِبيه وحول رقبته بُرْد صوفى، و بيده خيزُرانة ينكُت بها الأرض . فلما رآنى حيانى بلطف قائلا : لا أحسب أنك صاحب القهوة ، فأين هو ؟ فأجبته بهدوء وتجاهل : سيحضر بعد قليل فتفضل بالجلوس . فصاح مذعوراً : سيحضر ؟ ولكنى رأيته منذ برهة واقفاً مكانك ، فأين فرّ ؟ فقلت : لا أعتقد أن هناك ما يدعوه للفرار من وجه معامليه ، وما أحسبه إلا ذهب لبعض شأنه و إلا عائداً بعد قليل

ولكن الجاسوس لم يُعِرْ كلامى أدنى انتباه ، بل اندفع إلى داخل القهوة يفتّش أركانها و يقلب أثاثها مزمجراً لاعنا . ولمّا لَمْ يجد ضالّته ضرب كفا بكف وصاح : أنا طفل مغفّل ! لقد أفلتَ الشيطان هذه المرة كما

---

(١) الليل والنهار

أفلت منى منذ سنتين فى الوقت الذى اعتقدت نيه أنى قانصه لا محالة . آه ماذا يقول الرؤساء عنى ؟ وكيف ينظرون إلىّ بعد هذه الغلطة الفاحشة ؟

واستمر يندب حظه ، ويلعن غفلته وإهماله ، ناسيا مركزه ومسقطا نفسه فى أعين سامعيه حتى كدت أرثى لحاله . وسألته : هل أتى نجم الدين أمرا إدًّا [1] يستحق القبض عليه ؟ فصاح ومن هو نجم الدين ؟ فقلت صاحب القهوة . فقال يظهر أنك صاحبه ولكنه خدعك أيضا فليس اسمه نجم الدين بل . . . . . ولكن هذا لا يعنيك ، فلسنا هنا لنصحح الأسماء

ثم تذكر مهمته التى أتى من أجلها وخيبته المضاعفة ، فصاح بملء حنجرته : لقد فرّ هذا اليوم ، ولكن لا يأتى الغد حتى يكون فى قبضتى الحديدية !

وكان رجال الشرطة قد وصلوا ، فأخذوا فى التفتيش أيضاً ، وانبثوا فى الطرُقات المجاورة يستقصون أخبار الفار ، ويتعقبون آثاره ، سالكين الطريق الذى سلكه على زعمهم

كل هذا والجاسوس واقف بالباب يكاد يتميز من الغيظ ، ويتمزق من الألم والحسرة . ثم مال نحو الضابط قائلا : إنى لم أتوقع مطلقاً أن يُخفق مسعاىَ هذا الإخفاق الشنيع ، وإلا ما أزعجتكم من مكانكم هذا الإزعاج على أني أعرف شريكا لهذا الفارّ رأيته يتآمر معه فى ساعة متأخرة من الليلة البارحة ، وقفوت أثره حتى عرفت منزله بباب الخلق . وهو شيخ شاب

(١) منكراً فظيعاً

obeikandl.com

يرتدي جبة وقفطاناً ، يلوح عليه أنه من الموسرين ، فهل ترى مهاجمة بيته لعلنا نعثر على شيء يدلنا على مقر هذا اللعين ؟ . . .

وهنا لمحتُ شخصك تُطِلّ من العربة ؛ فأسرعت إليك لأحذرك .

هذا كل ماجرى فما رأيك ؟

فأجاب : رأيي أن أخلص صديقي مما هو فيه ، ولو أدى ذلك إلى حتفي فصاح الآخر : وهـذا هو رأيي أيضاً ، ولو أنه أخبرني بشيء عن هـذا الجاسوس لأزهقت روحه من زمن ، ولـكن كيف نصل إلى مبتغانا ؟

فأجاب : هذا ميسور جداً على شريطة أن نعثر بصديقنا اليوم أو الليلة ، فعليك إيصالي إليه ، وعليّ التدبير للنجاة بعد ذلك . . . . ولـكن إلى أين تذهب بنا العربة الآن ؟

فقال دؤدؤ : إلى منزلي بالسيدة ، فإني لا آمن أن يمسّك سوء إذا ذهبتَ إلى منزلك وقد سمعتَ ماقصصتُ عليك .

الفصل الثالث والعشرون
عند سفح الجبل

لم تتبدد ألوان الشفق فى المغرب مَساء تلك الليلة حتى كان السبع ودؤدؤ وخمسة آخرون من أصحابهما يتفقّدون أثر صاحبهم الفار ويَمْكُون [1] مُكاء متفقا عليه .

ولطالما كانت البقعة التى يضربون فيها الآن — وهى بالقرب من جبل الجيوشى — مسرحاً لنزال وطعان ، بعيداً عن العيون والآذان . ولطالما تجلّتْ عليها قوى « الفتوات » وقيسَ ما منحهم الله من هبات ورددت جوانبها صيحات التشجيع للظافرين ، ورنّات الأسف والحزن من أنصار المقهورين .

حضر أولئك « الفتوات » مسلّحين بقبضاتهم الحديدية وسكاكينهم البتّارة لا ليحسموا نزاعا أو ينفذوا رِهانا ، ولكن ليبحثوا عن صديق لاذ بالجبل ، ويحموا مطارَداً هدّد منه الأجل .

بحثوا وصفّروا حتى أخذ اليأس من لقائه يدبُّ إلى قلوبهم دبيبَ العُقار فى الأعضاء . وأخيرا لمحوا شبحا يتقدم لا من الجبل ولكن إلى الجبل فما شكّوا فى أنه شبح صاحبهم المطلوب . فأسرعوا إليه وأحاطوا به إحاطة السِّوار بالمِعْصم .

---

(١) يصفرون

حَسَر الفارّ عمامته عن رأسه فأبان وجها طبعه اليأس بطابعه وسَرَى التسليمُ إلى مَخَايِله ، وقال بصوت هادىء : أشكركم على أن عُنيتم جميعاً بأمرى . وهذا ما يتوقعه الصديق من أصدقائه إذا جدَّ الجِدُّ وعزَّ المهرب .

ثم مال نحو السبع قائلا : آمل ألا أكون سببت لك تعباً أو قلبت ترتيبا ، فما دار بخلدى أن ذلك الشرطي السرّى سينسف أملنا فى السفر عند آخر لحظة ، ولكن هى المقادير تتصرف فينا كيف تشاء وإن أفلتَ المرء منها اليوم فستبطش به فى الغد ، وخير لى أن أسلم نفسى للقضاء لينفذ حكم الإعدام فىّ ، وأكفيهم بذلك مئونة مطاردتى وتصيدى ، وأرتاح أنا أيضاً من ذلك الغرام[1] الدائم والتخوف المميت . إن المرء يموت مرة واحدة وأنا متّ عدة مرات منذ ارتكبت ذلك الجرم الفظيع . لقد قتلت ذلك الفروىّ انتقاما لحبى ، وحُلت بذلك بينه وبين الاستمتاع بلذائذ الحياة . فلم لا يُديل له القضاء منى ويحرمنى الراحة ولذة العيش أيضاً ؟ لقد جلبت فيما مضى بعض الشر لمن آوَوْنى ورثَوْا لحالى لأنهم أظلّوا قاتلا ، وحامت حولهم الشبهات لأنهم عاشروا أثيما . فلم آجُلُ[2] على أعزّ إخوان عرفتهم فى حياتى شراً ليسوا جُناته ، وأقلق بالهم من أجل هفوة ارتكبها غِرٌّ جاهل ؟ لا . لا . يا إخوانى . لقد صمّمت كل التصميم على أن أريح نفسى وأريحكم ، وما أتيتُ إلى هنا إلا لأودعكم الوداع الأخير ، ولأطلع بعضكم على ما كتمتهم من أمرى مما أعتبره غشا وخديعة . والآن فإلى اللقاء

---

(١) العذاب (٢) أجنى

فى دار غير هذه الدار التى لم أذق فيها للسعادة طعماً ، ولم أعرف للسلام لونا اللهم إلا أيام كنت طفلا !

أُلقيتْ هذه الخطابة تصحب كلّ كلمة منها رنّةُ اليأس من الحياة وتَنُمُّ مقاطعُها على ما أخذ الرجلُ به نفسَه من التسليم لقضاء الله والندم على ما فات أمامَ جمع دَهِشٍ مما سَمِع ، متألم لحال صاحبها .

ألقيت فلم تحرّك منهم لسانا ، ولكنها حركت منهم عواطف وقلوباً ولم تُثِرْ منهم حماسة ، ولكنها أثارت منهم زفَرَات ودموعاً .

إيهِ أيها الرجال ! عهدى بكم شجعانا ، فلم ظهرتم بمظهر الضعف ؟ وعهدى بكم صاخبين [١] متحمسين ، فلم هذا الوُجوم [٢] والصمت ؟

وأنت أيها الخطيب ! لقد كنتَ بالأمس القريب ثابت الجأش فهل نَتَفَتْ [٣] عاصفة واحدة حِبلَ ثباتك ؟ ماضِىَ العزم فهل فَلّت حادثة واحدة غَرْب عزَمانك ؟ كبيرَ الرجاء فهل قطع الجاسوس آخر خيط من خيوط رجائك ؟ إنك لم تزل بعيدا عن يد القصاص فلماذا هذا اليأس والاستسلام ؟ إنك فررتَ فى الصباح حرصا على حياتك فلِمَ ترمى بها طائعا بين فكّىْ الحمام ؟

حقا إن الحوادث لتحوّل الشجاع جبانا ، وتخلق من الحيوان إنسانا. وحقا إن المقادير لتعبثُ بأمل الآملين ، عبثها بمخاوف اليائسين ! !

وليت شعرى هل نالت تلك الكلمات المؤنسة من قلب السبع

---

(١) كثيرى الجلبة (٢) العبوس والاطراق (٣) زعزعت

مثل ما نالت من قلوب السامعين ؟ وهل نفذت إلى مواطن الإحساس منه نفوذها إلى الآخرين ؟ وإن فعلتْ فلمَ لَمْ يبدُ لها أثر فى مَخْجريه ، أو تتردد لها زفرة بين جانبيه ؟

الحق أن ذلك الزعيم لم يكن أقل تأثراً بما رأى وسمع من إخوانه ولكنها الطبيعة حبته [١] ما لم تَحْبُ كثيراً من الناس . حبته الرزانة الخارقة ، وقوة السيطرة على مشاعره ، والتشبث بالأمل لآخر برهة . ولطالما هزأ فى نفسه بما يبدو على الناس من مظاهر الضعف والاستسلام البشرى والعواطف الجياشة وعد ذلك نِسْويًّا .

لما انتهي نجم الدين من حديثه همَّ بترك أصحابه لينفذ ما اعتزمه ولكن يد السبع قبضت على ذراعه ، وتحرك فمه بالكلام قائلا : إنك لن تفعل هذا أُخرى اللّيالى [٢] . وإن فيما انتابك خلال كل هذه السنين الطويلة لتكفيرا عن إثمك . فلا تضحِّ بنفسك ، ولا تحملها مالا تُطيق [٣] . وهأنذا أتولى أمرك ، وأخطّ لك طريقا آخر فى الحياة بيدى

ثم التفت الى إخوانه وقال : لقد طال مكثنا فلننطلق

انطلق الجماعة متفرقين ، وتخلف السبع والكومى فى مكانهما قليلا ، ثم سارا ميممين نحو باب الخلق .

ولما كانا على مقربة من بيت أبيض اللون همس السبع فى أذن صاحبه

(١) منحته (٢) أبدا (٣) تطيق

ببعض كلمات، فتقهقر إلى ركن مظلم. وهرول هو نحو منزله، فمكث دقائق قليلة، ثم عاد

أخذا سَمْتهما إلى قليوب، وهناك قضيا الليلة فى ضيافة كريم من معارف السبع. وفى اليوم الثانى كان القطار يحملهما إلى « زفتى »

وصلا زفتى مُؤْصِلَيْن (١)، وارتأيا أن يُمضيا عمر الليل فى ميت غمر ففعلا. وفى صبيحة اليوم التالى أقلّتهما عربة إلى « كفر الجهنمى »

(١) فى وقت الأصيل

الفصل الرابع والعشرون

موت السبع الكبير

قَضَى القضاء الغالب أن يقابَل المسافران بوجوه منقبضة ، وأن ترحّب بهما صدور كليمة [١] وعيون مغرورِقة .

وقبل أن ينبس أحـد بكلمة ألمّ السبع بسبب هذا الحزن العميق البادى على وجوه مستقبليه . فمال نحو زميله وقال : البقاء لله وحده ! لقد مات أبي العزيز ! و بدتْ دمعتان فى عينيه ترددتا برهة بين الفيْض والغيض ثم دفعهما الشجوالـكمين إلى الأمام، ففاضتامعبّرتين مرة عن ألم صاحبهما .

أقبل المعزّون والمؤاسون يحيطون بالقادمين ، و يتألمون لفقدان رجل عظيم وقلب رحيم . وجلس السبع فى فكر بعيد الغَوْر .

ولو أتيح لامرئ أن يسبُر غور نفسه فى تلك الساعة للاحظ عاملين يتنازعانه : عاملَ الندم على تقصيره فى حق أبيه فى آخر أيامه ، وعامل الارتياح إلى تخليص صديق من هُوّة مماته .

كرت الأيام ومرت الشهور ، طاوية حوادث فى جوفها ، ومبرزةً أخرى من طَيَاتها ، ووَرِث السبع تركة مثقلة بالديون ، مهدّدة بالضياع أعقبت [٢] ربّها الأول حزنا وغما ذهبا بحياته .

---

(١) جريحة (٢) أورثت

كان السبع الكبير مسرفا فى حياته ، ولطالما كان لموالد « السيد البدوى » حظٌّ أىّ حظ من ماله . فكانت تُضرب الخيام فى طنطا كل سنة وتُمدّ الموائد وتذبح الذبائح . كل ذلك من جيوب السبع .

ولم يكن تضاؤل ثروته يوما عن يوم ثانيا له عزما ، أو مثيراً منه حزما بل أسلم نفسه للفقر كما يُسلِم السابح نفسه للتيار الجارف لأنه لا يستطيع غير ذلك .

وأخيراً وصلت تلك التركة إلى السبع الشاب على أن تطير منه بعد شهور قلائل ، فقد غَلِقَ رهنُ الأرض (١) منذ حين ، واستولى الدائن على الثمانين فدانا من غير شفقة أو رثاء لحال ، تاركا الوارث الجديد خالى الوفاض بادىَ الإنفاض (٢) ، لا يدرى كيف يعيش ولا أى طريق يسلك لاكتساب الكفية (٣) .

أصبح السبع بفضل إسرافه و إسراف والده صِفر اليدين من كل شىء اللهم إلا من دار صغيرة ومن قوة الشباب والأمل . ولكن لَمْ تضق الدنيا أمامه ولا أظلم المستقبل ، وإن كان فى الحقيقة مظلما .

كرَّ الفتيان (٤) والصديقان يلهوان ببعض دريهمات وصلت إلى نجم الدين من دؤدؤ نظير ابتياعه للقهوة وأثاثها .

وفى مَساء ليلة جاء السبع وعلى وجهه ابتسامة مُشْرِقَة ، وجلس إلى صاحبه يحاوره قائلا : إني أدعوك يا نجم الدين لحضور حفلة قرانى غداً .

---

(١) استحقه المرتهن (٢) الفقر (٣) القوت (٤) الليل والنهار

فصاح الآخر ولم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة : حفلة قرانك ؟ هل أنت عازم على الزواج ؟ فقال السبع مبتسما : نعم ، وهل زواج شاب مثلى يدعو للعجب ؟ وهل كنت تعتقد أنى سأعيش عَزَبا للأبد . . ؟

فقاطعه الآخر لا لا . إنى لا أعجب لعزمك على الزواج فإن هذا طبعىّ ، ولا ينكر أحد أن التناسل ضرورى للعمران ، ولكننى أعجب لهذا العزم الفجائى إذ لم أكن أتوقع ذلك ، وإنك لم تلمّح لى بشىء عن نيتك ، فهل هو عشق لأول نظرة لم تستطع معه صبرا أو تسويفا ؟

هنا طارت الابتسامة عن شفتى السبع وصمت برهة ثم قال : لا ياصديقى إنه ليس بعشق طريف ولا تالد [١] ، ولكنها الضرورة القاسية دفعتنى لهذه الخطوة الجريئة ، وما إخالك إلا ملمًّا بقصدى . إنك تعلم علم اليقين أنى أصبحت أنقَى من الراحة ، وأعرَى من صفحة الوليد [٢] . وأننا مهددون أن نبيت القَوَاء [٣] إن لم نتخذ قراراً حاسما وسريعا .

ولقد فكرت طويلا فى مآلى ، فتمثل لى المستقبل حفرةً قَعِيرَة [٤] ، ورأيت نفسى واقفاً على حِفافِ [٥] تلك الحفرة . فهل تنتظر منى أن أستمر واقفاً هناك حتى تَهْوِى بي قدمى فى ذلك القرار البعيد ، أو أعمل على توقى ذلك الخطر الداهم ؟ العقل يقضى أن أنتهج الخطة الأخيرة وهكذا فعلت . نظرت حولى فلم أجد إلا وسيلة فذّة للخلاص من هذا المأزق الحرج وهى التزوج

---

(١) حديث ولا قديم (٢) كنايتان عن الفقر (٣) جائعين
(٤) عميقه (٥) جانب

فقال الآخر ولـكن الزواج يزيد فى تبعة الفرد ، و يثقل الحِمْل على كتفه ، وأنت . . .

فقاطعه الآخر مقهقها وصاح : إنى لم أعهد فيك البلادة يا نجم الدين فهل تظن أنى تزوجت لأزيد مشاغلى ، أو طمعا فى أن أتمتع بالسعادة الزوجية ؟ إنك إذن لفائِل الرأى [1] . إنى لم أتزوج إلا لأزيح الشواغل وأنعَم بثروة الزوجة المفتونة

فقال الآخر : ولـكن ألا تحبها ؟ فأجابه : إنى لم أسبرُ غور قلبي فى هذا الشأن ، وكل ما أعرفه أنها تحبنى حبا يدعو إلى الشفقة عليها ، ولو أنى نظرت حين عزمت على الاقتران بها إلى جمالها ورشاقة قَدِّها لـكان لى رأى غير رأيى الآن ، ولصح أن أطارحها كرةَ الغرام ، وأجاذبها حَبلَ الهُيام

نظرت إلى ثروتها وما عسى أن تُدِرّ على من خير وفير . وعين المال حوْلاء ، وأهوية الأغراض هَوْجاء .

فقال الآخر مازحا : إنى لا أحب رأيك فى الحب ، ولا أشاطرك حُسبانَك النساء سِلَعاً تباع وتشترى . ومن يضمن أنك لا تقع فى المستقبل فى شَرَك حبها كما وقعت فى أسر مالها ؟ إن المرء لا هَيْمنة له على القلوب ولا يستطيع أن يكشف ما تضمّنته الغيوب . وإنى لأودُّ لك من أعماق

---

(١) مخطىء

نفسى كل توفيق فى أعمالك ، ونجاح فى معقود آمالك . جعل الله عصرك الجديد عصر يسر ورخاء ، ويمن و إسعاد !

فقال صاحبه آمين !

***

شاء الله أن يبسم الزمان للسبع بعد عبوسه ، وأن تتدفق النقود إلى جيوبه بعد صفرها . وأخلصت الزوجة كل الإخلاص لزوجها ولم تدعْ فرصة تمر بدون إظهار حبها و إعجابها بشجاعته ، وعدّت عطفه عليها حُبا وحلتْ لها الأحلام ، ولجّت بها الأوهام ، فوضعت فى يده كل ما تملك من فؤاد ومال ، ووهبتهما إياه خالصيْن . فتناول الأول بحذر لا ولع ومال إلى الثانى بجشع وطمع .

وأصبح لنجم الدين حال غير حاله ، و بال غير باله ، وعاش فى سعادة صديقه كما يعيش النبات في ضوء الشمس ، ولَقِىَ من عطفه الجمّ وكبير عنايته ما أطلق لسانه بالشكر وحبّب إليه الحياة .

غير أنه لم يرتَحْ إلى بقائه إلى الأبد كَلاًّ [1] على كاهل صاحبه كبعض النبات يعلق بالشجر و يشاطره غذاءه لا سيما بعد أن أيقن أن ثروة الزوجة دون ما قدره صديقه بكثير .

لاحظ السبع شيئا من الانقباض على صديقه ففاتحه يوما فى أمره وسأله

---

(١) ثقلا

هل هو سعيد معه ؟ فقال الآخر وهل هناك سعادة أكثر من أمن المخاوف وراحة البال ، أولذة أوفى من اللذة التى يجدها المرء فى معاشرة الأوفياء من الأصحاب ؟

لقد طوقت عنقى بمننك ، وأعجزت مِقولى[١] عن شكرك . وحسبى أنك منقذ حياتى وعائل نفسى تلك المدة الطويلة ، وإنى لأتمنى أن أستطيع يوما أن أقوم لك بخدمة تطابق رقى وتخفف حملى .

فقال صاحبه : إن أعظم خدمة تستطيع أن تسديها إلىّ أن تبقى بجانبى تشاطرنى نعيمى وبؤسى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

فقال الآخر : إنى لا أفكر فى تركك أيها الشهم الماجِل[٢] ولكنى أبغى مفارقتك بعض أيام تلبيةً لهوًى فى نفسى .

فضحك السبع قائلا : وماذا عسى أن يكون ذلك الهوى ؟ هل هو هوًى لأول نظرة ؟ فلم يتمالك نجم الدين نفسه من الضحك . وسأله السبع وأين تريد أن تذهب ؟ فأجابه الآخر . إنى أريد أن أذهب إلى « كوم النور » فصاح السبع كوم النور ؟ وهل أنت مجنون حتى ترمى نفسك فى حضن موت محقق ألم تحسب .... ؟

فقاطعه الآخر : لاتشغل بالك من هذه الوجهة فإنى أعرف مايحُفُّ[٣] سفرتى من الخطر ولكن ليس لى عنها مُلْتَدٌّ[٤] ، وسآخذ الحيطة ما أستطيع .

---

(١) لسانى (٢) الكريم (٣) يحيط (٤) بدٌّ

فقال صاحبه : إن هذا مستحيل ، ولن أسمح لك قط بهذه المغامرة المجهولة العاقبة . وإنى لا أرى سبباً يدعوك إلى سلوك هذا الطريق الشائك فإذا كنت فى حاجة إلى شىء فأخبرنى . ولا مرّتْ بى ساعةٌ إذا لم أقم بهـا !

فقال الآخر : أشكرك . لستُ فى حاجة إلى شىء ، ولـكنه حَتْمٌ علىّ أن أسافر لأرى أخى . إن أبى لم يستطع تحمل الصدمة التى سببتها له بطيشى فقضى سبيلَه [١] بعد بضعة أسابيع كما أخبرت . وعَبرَتْ [٢] أمي على أثره ، بعد أن تملّـكها الحزن ، وطَحَنها الغمّ بكلـكله [٣] . ولم يبقَ من أسرتنا إلا أخى الأكبر ، أفلا تدعونى حرمة الأخوة إلى زيارته مرة واحدة قبل أن تضرب بيننا يدُ النّوى الأبدية ؟

فقال الآخر : هذا حسن ، ولـكن فاتك أن رِعاية الحياة فوق رِعاية الحُرُمات ، وأن واجبات النفس تفوق معظم الواجبات

ولـكن هذا الإقناع لم يحلّ محلّ القبول من قلب نجم الدين .

ولما عجز عن أن يَهُوره [٤] عن السفر عرض عليه أن يشركه فى رحلته ، ولـكنه أبى أيضا . واضطُرّ السبع أخيرا إلى الإذعان مزوّداً له بما رأى من النصائح

---

(١) مات (٢) ماتت (٣) صدره (٤) يصرفه

الفصل الخامس والعشرون

العصابة

فى اليوم التالى بعد تناول وَجْبَة الظهر اختلى نجم الدين بنفسه فى حجرته بعض ساعة ، ثم خرج بشكل غير شكله وزىّ غير زيه

وما رآه صديقه فى تنكره حتى استلقى على ظهره من كثرة الضحك وقال : ما أعظم مهارتك ! ولكن فاتك أن منظرك هذا سيرُوعُ أقاربك ويثير فيهم الرِّيَب بشأنك ، وربما أنكروك . فقال إنى سأتجرد من تنكرى عند ما أصير على مقربة من منزلنا ، وبذلك يرَون صورتى الحقيقية

وفى مَساء ذلك اليوم ، وتحت جَناح الغَسَق [1] ، رئى شبح يتسلل فى ظل الجدران والنخيل ، قاصداً جهة معينة حتى إذا كان على كثب من بيت مرُوَّق [2] منعزل عن البيوت المجاورة ، يحيط به أشجار النخيل ويخترق سقفه شجرةٌ سامقة ، وقف برهة ويده إلى وجهه ، ثم حفَزَ [3] نحو ذلك البيت ، وعند أُسْكُفّته [4] وقف برهة أخرى ، ثم احتواه صحن الدار ، وَصفق الباب وراءه .

---

(١) أول ظلمة الليل (٢) الرّواق سقف فى مقدم البيت ومروّق له رِواق (٣) أسرع (٤) عتبته

لما وصل نجم الدين بيت أبيه وجدّه ألفى زوجة أخيه مشغولة بحلب الجاموسة ، ولمح أخاه جالسا بالقرب منها يداعب أولاده .

وما ارتمى ظِلّه فى صحن الدار حتى هب الجالس من مقعده بحالة من يشعر بخطر يهدّده . وما هو إلا أن تراءت الوجوه والتقت العيون حتى كان الأخوان فى عناق ، وحتى هتنت الدموع هتوناً . وصاح كل منهما : أخى ! أخى !

وتنبهت المشغولةُ من عملها لما جرى ، فاندفعت أولا إلى الباب فأحكمت إقفاله ، ثم مدّت يداً ملوثة تصافح صهرها ، ثم صعّدت كفها القذر إلى عينيها الباكيتين . . . .

وكان ضمٌّ وتقبيل ، وبكاء ونحيب ، وكانت ذِكريات ماضيات مبرحات ومُشجيات وكان شكر لله وثناء .

وبعد العَشاء أخذ كلا الأخوين ينفُض جملة حاله ، ويسرد تاريخ حياته منذ الفراق . وأخيراً سأل رب البيت أخاه هل أتى ليَرْبَع [١] بينهم غيرَ كاتم ما تسرّب إليه من المخاوف على حياة أخيه

وأجاب الآخر على الفور : إنى لم آت هنا لأعدِن [٢] ، ولن يخطر لى ذلك ببال ، فإن فَعلتى الشنعاء فرقت بينى وبين مسقط رأسى إلى الأبد ، بل ربما ضنّت هذه الأرض أيضاً أن تضمّ رُفاتى من بعدى .

فزفر الآخر زفرة مُرّة ، وتحلّبَتْ [٣] دمعتان إلى خديه . واستمر

---

(١) ليقيم (٢) لأقيم (٣) سالت

أخوه يقول : ولكننى أتيت لأمتع نفسى برؤيتكم جميعًا ، ولأتزوّد منكم بآخر نظرة . . . . . ولأستعين بكم أيضًا على دفع مُلمات الحياة . . . . . فاذا كان لديكم فَضْلٌ من مال تدفعونه إلىّ كنت لكم شاكرا ، وليَدِكم ذاكرا

فصاح الأخ الأكبر : كفى كفى يا أخي ! فإنك تمزق قلبى بكلماتك، وتطير لبى بتضرعك . ولماذا كل هذا التذلّل وأنت صاحب حق مثلى ؟ وهل أنا إلا شريك لك قصّر فى تأدية حق شريكه ؟ ووالّذى نفسى بيده لو علمت مأواك لوصلك نصيبُك من ميراث أبويك منذ سنين . ولكن الجهل بمصيرك أحوجك لأن تجلس منى مجلِسَ الضّارع المتوسّل . وما أنا إلا أخ منكود قُضِى عليه أن يفارق والديه ، وأُكرِه على أن ينسلخ من أخيه الوحيد . اللهم إن هذا قضاؤك ، ولا رادّ لما قضيت !

مرت أيام ثلاثة قضاها نجم الدين بين ظهرانَىْ أسرته فى راحة وعزلة عن أهل القريه تامّتين . وفى اليوم الرابع نَسَلَ من منجحره متنكرًا ومُغْتَمِداً الظلام ، ومزوداً بما استطاع أخوه جمعه من مال ، تشيّعه نظرات مملوءة عطفا ، وقلوب تخفُق حنانا . نسل قاصدا ميت غمر ومنها ذهب إلى « كفر الجهنمى » حيث صديقه الوحيد . ولم يكن لقاء السبع له دون لقاء أهله له بشراً وترحيباً .

كرّت الأهلّة ، وتعاقبت الدورات ، والسبع لاهٍ بحياته الجديدة السهلة ، تبدّد يسارُه ما يصل إلى يمينه ، وتحمله قدماه إلى القاهرة المرة

بعد الأخرى غيرَ حاسب للمستقبل حسابا ، أو مراع لزوجه ومالها حرمة.

وما زال به سَفَهُه وقصر نظره حتى أتى على آخر نَقْد من نقود الزوجة البائسة السيئة الحظ . وحينئذ فقط شعر بعظم جُرْمه و بمَغَبَّة عمله الطائش، فأحس بالحياة تظلم فى وجهه مرة أخرى و بضرورة الاحتيال على العيش من جديد . ولم تُفقده تلك الصدمة المتوقّعة صوابه أو تُذوى شجرة أمله ، بل بالعكس شَحَذَتْ من صَريمته [١] وأوقدت جذوة المخاطرة فيه ، ودفعته إلى الوثوب فى بحر عميق مظلم فيه الدر والجوهر ، وفيه الموت الأحمر !

و لِمَ يلجأ إلى هذه الوثبة فى الظلام ، وأمامه النور فى كل مكان ؟ ولم يقدم على ذلك المشروع الدّموى الخطير ، وحواليْه مشروعات مأمونة حسان؟ بهذا جرى القلم ، وشاءت الأقدار . وهكذا أراد عشق المجازفة وحب الأخطار . ولا معقّب لحكم الله ولا رادّ ، ومن يضلل الله فما له من هاد !

جلس السبع ذات يوم إلى جانب صديقه يحادثه فقال : لقد عَزَفَتْ [٢] نفسى عن هذه الحياة السّاكِرة [٣] ، ولم أعُدْ أحتمل فكرة العيش من مورد امرأة ، و إنى أشعر بالشّنَار كلما ذكرت أنى قضيت هذه السنين الستّ راتعاً فى أرض غيرى ، وآكلا من مال سواى . وقد آن لنا أن نفكر فى خط طريق جديد لنا بدل أن نُلِثّ [٤] بأرض مَعْجِزَة كاللُّبَد [٥] ، وأن نخرج من هذا العالم الضيّق السّاكن ، إلى العالم الواسع الهائج المملوء بالمُزاح والجِدّ .

---

(١) عزيمته (٢) زهدت (٣) الساكنة (٤) نقيم ببلد نعجز فيه عن الاكتساب والتعيش (٥) الفسر

فقال الآخر : إنى لا أفهم ما تريد ، فأفصح قليلا لأشاركك البحث

فقال : أعنى أن هذه الحياة المحتجبة أصبحت لا تصلح لى لأنى لم أنشأ لمثل هذه المعيشة ، وأنى اعتزمت على مغامرة خطيرة لا أدرى أتكون نخنخ النفس عنها [١] .

فقال الآخر وقد سرت إليه حماسة صديقه : وما هى هذه المغامرة يا ترى ؟ فقال أن نخرج من جلدنا ، ونتقمص لباس رجال الليل فنصيب لهوا ومالا . إن الطبيعة قد سخت علينا بقوة جثمانية عظيمة و بقلبين لا يهابان المنايا ، وسنحتنا بشىء من الذكاء والحيلة ، وهذا كل ما تتطلبه الحياة الجديدة . وإنى لا ألوى [٢] عنك أن الطريق شائك محفوف بالمكاره . ولكن متى خلت الحياة من أكدار وهموم ؟ وأين تجد الكأس الصافية من كل شائبة ؟ إنك لا تجدها حتى فى صوامع الرهبان ومحاريب المتبتلين ، وأديار النساك الزاهدين !

فقال : وهل نسيت أن هذا المشروع يستدعى سفك دماء و إزهاق أرواح ؟ فقال الآخر : إنى لم أنس ذلك . و إذا جلسنا نفكر فى العواقب فلن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام. فلنبدأ العمل ، ولنترك الأقدار تجرى على أذلالها [٣] . إن كثيراً من الناس معهم فوق مايحتاجون فلم لاننتفع بالفضل [٤] إن أبينا مشاركتهم فى الأصل ؟ أليس لنا حق المعيشة فى الحياة كما لهم ؟

---

(١) طيب النفس عنها (٢) أطوى وأخفى (٣) مجاريها جمع ذِلّ
(٤) الزائد

فضحك نجم الدين قائلا : ولـكنهم تعبوا فيما حصّلوا . فقال ونحن أيضاً سنكابد المشاقّ الطويلة فى تحصيل ما نريد . و إذا كنت تحكم على الأعمال بما يُبْذَل فى سبيلها من المجهود فسلِّمْ معى بأن أكثر الناس نصباً أحقهم بالثروة

فقال الآخر : ولـكنك نسيت الجدود ودَوْرها فى الحياة . . . وعلى كل حال فإنى لا أرى استمرار المناقشة مادمتُ أوَاتيك على هواك ، وأميل إلى أن أفعل شَرْوَاك [١] غير أنى أرجوك أن تتريّث حتى ندرس المشروع من كل وجوهه ، ونجد الرجال الصالحين لهـذا العمل الفظيع فإن اليد وحدها لا تصفّق

و بعد فحص وتفكير ومفاوضة وتدبير مدة شهرين أمكن السبع أن يكوّن عصابة من الأقوياء تحت رياسته لاتنيِّف على أصابع اليدين عَدًّا . بدأت تَعيثُ فى الأرض فساداً .

و بتوالى الأيام ازداد عـددها ، وسُمِع صوتها ، وأُحِسّ ضغطها وتكاثرت مغانمها ، وانقلبت دُعابتها جِـداً ، وتهديدها سَفْـكا ، وحال نُحَاسُها [٢] لَهَبًا ، وقَطْرها وَبْلا [٣]

وما استوفتْ عمر السنة الرابعة حتى استقرّت فى الذروة من عالم الإجرام ، ومُحِيَ من قاموسها كلمة المحظور والحرام ، و بعثت الرعب إلى القلوب والأجسام .

---

(١) مثلك (٣) النحاس دخان لا لهب فيه (٤) مطرا شديداً

انضم إليها من مختلف العصابات شياطين لا يُصْطَلَى بنارهم مُزَاةٌ[١] طُغَاة ، وهابها العَتاريسُ[٢] من اللصوص ، وتحاشَوْا الاصطدام بأفرادها . وسُنّ لها قانون صارم ، وصار لهـا رئيس ووكيلان ، ردّد صدَى نفوذهم و بأسهم الخافقان !

وهكذا لمع كوكب السبع فى سماء الشرور ، وأضحى لفظ « الكومى » لقب نجم الدين الجديد رمز الويل والثبور !

تنكّر الأشرار دفعاً للرِّيب ، وتظاهروا بمظهر التقوى والورع ومدّوا أيديهم بالإحسان ، وانتمَوْا إلى طوائف البيّومية والرفاعيّة والكيلانيّة ، و بدت على رءوسهم عمائم حمراء وسوداء وخضراء و بيضاء ، وأكثروا من الصلاة نهاراً والتهجّد ليلا

وجملة المقال أنهم لم يتركوا وسـيلة من وسائل الخدعة إلا استعملوها إذا طلع النهار حسبتهم ملائكة رحماء ، و إذا جَنّ الليل عليهم[٣] رأيتهم أبالسة لعناء !

إيه يا أهل الخبّ والخديعة ! بالغوا فى التنكر ماشئتم ، واهزءوا بالخلق كما أردتم ، واتجروا بالدين فلستم أول من خدَع ، واظهروا بمظهر الصوّامين القوّامين ، وضلّلوا رجال الشرطة والقضاء ، وغالطوا ضمائركم إن كان لكم

---

(١) جبابرة (٢) الجبابرة الغضاب (٣) سترهم

ضمائر ، وامحوا آثار جرائمكم ، وأرسلوا ذقونكم وأطيلوا سُبُحَكم ، وتكتموا سبَحات نهاركم وهَجمات ليلكم ، فقد يجوز هذا التنكر على كثير من الناس فتصيبون غرضكم . ولكن أيقنوا أن هناك عينا مطلعة على أعمالكم ، و يداً ستبطش يوما بأرواحكم .

تلك عين الله الذى يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصدور ، وهذه يد القادر ذى الكَيْد المتين !

فهل أنتم مُفْلِتون ؟

obeikandl.com

الفصل السادس والعشرون

فى حجرة الأشلّ

الليلة سِرَار (١) منشورة الذوائب سابغة الطَّيْلَسان (٢) ، والسكون على حارة الشيخ « مهى » ضاربٌ بِكَلْكَل وجران (٣) ، لا يعكره الا مخبخة (٤) الخفير خلف البوابة . والفتى جالس فى فراشه بادى القلق والتَّمَلْمُل (٥) وبِلِصْقه زوجته ترفُوه (٦) وتأوى إليه ، وتنظر فى صفحة وجهه آنا بعد آن لتقرأ فيها ما يجول بخاطره ، وما عسى أن يريده .

غدَا الرجل أصمّ بكياً بعد تلك القارعة التى قرعته ، وضاقت دائرة لغته إلى حد مؤلم ، فلم تعدُ هذه الحروف « آمِنَا »

أصبحت « آمِنَا » المعبرة عن كل ما يبغى من أكل أو شراب ، أو ما يشعر به من راحة أو عذاب ، أو يفكر فيه من خطأ أو صواب ، ووجد كلُّ مجالسيه صعوبة كبيرة فى تفهم ما يريد إلا مرجانا وفاطمة ، فقد كان الأمر عليهما أيسر ، وذهنهما لالتقاط المراد أحضر

« آمِنَا » « آمِنَا » صاح الأشلّ فى وجه جليسته ، ناظراً إلى باب مخدع ابنته . فهرولت المسكينة إلى منضدة عليها ماء ، ظانّة أنه يريد أن يشرب . فصاح من ورائها « آمِنَا آمِنَا » بنفس الصوت ولكن ببعض

---

(١) آخر ليلة فى الشهر (٢) مظلمة (٣) مخيم (٤) غطيط

(٥) عدم الاستقرار من الوجع (٦) تسكنه

ضغط على « نا » . فوقفت الزوجة حَيْرَى لا تدري ماتفعل ، ثم حَسِبت أنه يريد الدواء فهمّت بإحضاره ، ولكن الصوت قيّدها فى مكانها مرة أخرى .

وبينما هى فى ذهولها انفرج الباب المسَامت [1] عن الفتاة تطرد طائر النوم المحلّق فوق جبينها ، وصاحت هأندى مقبلة يا أبتِ . ثم نظرت إلى أمها قائلة : اذهبى أنت إلى فراشك فإنك متعبة ، وإن حضورى ربما يخفف من لوعة أبى المسكين وألمه . وإنى لم أره قبل الليلة أكثر اضطرابا وتألما

فأجابتها الأخرى : ولكنكِ يابنيتى لم يرتوِ جفنُك بالكَرى ، وإنك أحق بالراحة منى ، على أن نَوْبة المراقبة نوبتى الآن . ولكن فاطمة بدل أن تجيب رغبة أمها خطت إلى جانب والدها الذى سكن قليلا عند مرآها ولم يفارقها نظره ، وأظهر سروره لمجيئها بتكرار « آمِنَا » ثلاث مرات بدلا من مرتين

جلست الفتاة بالقرب من أبيها تمسحهُ [2] ، ووجهها إلى نافذة تُشْرِف على الحارة ، ووقفت أمها عند رأس السرير وظهرها إلى نفس النافذة

وإذ هما على هذه الحال خُيِّلَ إليهما أنهما تسمعان هَمْساً فنصبتا آذانهما برهة سرت إلى جسميهما خلالها قُشَعْرِيرَة غريبة . وأحستا كأن شبحاً من الخطر يهدّدهما ، ولكنهما لم تتبينا شيئا .

(١) المقابل (٢) تمرّ يدها عليه

وأخيراً صاحت الأم : إنى لا أدرى ما ناب أعصابى هـذه الليلة . وإنى لأُوجِس خيفة لا أعلم مأتاها . فقالت الفتاة : وإن حالى لا يقل عن حالك اضطراباً يا أمى ، لاسيما وقد رأيت رؤيا مفزعة أثناء إغفاءتى [١] القصيرة : رأيت كأننا جميعاً مكتنَفُون بنيران ملتهبة من كل جانب وأن يد اللهب امتدت إلى حجرة أبى فالتهمتها التهاما !

فقالت الأم : إن أحسن طريق لتخفيف ما يساورنا من المخاوف أن ندعو مرجانا ليكون قريباً منا .

ودَلَفَت [٢] إلى الباب ففتحته ، وما إن جاوزتْ عتبته حتى جَمَدَتْ فى مكانها جمود الصنم ، شاجرةَ الفم [٣] ، مشدودةَ الأهداب إلى شخص مُلتفم ماثلٍ أمامها ، وبيده سكين كبيرة مصوّبة إلى وجهها . فغصَّت بريقها ، وخانها الصوت فلم تستطع أن تقذف بكلمة أو تُغَوِّث [٤] وهمَّت بالعودة إلى حجرتها ، ولكن يداً قوية قبضت على معصمها وسمّرتها حيث كانت .

همس صاحب تلك اليد فى أذنها : خيرٌ لكِ ألا تقاومى أو تصرخى فإن فعلت فأنت حائنة [٥] لا محالة . وإننا لا ننوى أن نسفك دما بغير حاجة . ثم دفعها إلى الحجرة ببعض الرِّفق مُطلقا سراح يدها .

وقفت الزوجة مأخوذةً مُسكَّرَةَ البصر [٦] ، وقد تملكتها رعشة

---

(١) نومتى (٢) مشت مشى المقيد (٣) فاتحة (٤) تستغيث
(٥) هالكة (٦) محيرة البصر

مبرّحة من فرْعِها [١] إلى أخمَص قدمها ، ولم تستطع لأول وَهْلة أن تُلِمّ بما يجرى حولها فى غرفة المريض . ثم نظرت فإذا فاطمة مطروحة إلى الأرض لاحَراك بها ، وإذا شقيان آخران يكتنفان سرير زوجها . فجُنّ جنونُها ، وكادت تقف نَبضات قلبها ، وانبعثت من فمها على غير إرادتها صَيْحة بَحّاء لم يجاوِز صداها مَدَى الحجرة قطع اتصالَها ضربةٌ كَمَمْتْ فاها

صاح صاحب الضربة : تذكرى ما أنذرتك به وإلا فنحن فى حِلّ من هَدْر دمك ودم كل من فى هذا البيت . إن فتاتك لم يَمسّها سوء ، وإنما غِينَ على قلبها [٢] عند رؤيتنا ، ولا تلبث أن تُفيق إلى رُشدها . فهدئى رَوْعك ، واجمعى شتات فكرك ، وأجيبينى عن أسئلتى لك بدون مواربة أو مراوغة ، واقطعى كل أمل فى النجاة من شركنا قبل أن تُلَبّى سؤْلنا . هل فهمت ؟ ولو أن حال زوجك تمكنه من القيام بهذه المهمة لكفيناك مئونة هذا الأمر العسير ، أما وأنت الشخص الوحيد الذى نستطيع مخاطبته فى هذا البيت فاستعدى لإجابتنا .

فصاح الطريح « أمِنَا . أمِنَا . أمِنَا » وتحوّلت إليه أنظار الحضور لحظة ، ثم استقرت ثانية على الزوجة

وأخيرا وجد بعض الكلمات طريقه إلى فيها فقالت . ولكن بالبيت رجلا يستطيع أن يقوم مقامى فى إخباركم عن كل ما تريدون وهو . . . .

---

(١) شعرها (٢) غشى عليها

فقاطعها السبع : مرجان . أليس كذلك ؟ فقالت : بلى . إنه خادمنا الأمين ، ولا أحسبه يمتنع عن إجابتكم ما دامت حياتنا رهينة بها . فصمت السبع قليلا ، ثم دنا منها خطوة وقال : لا تفكرى في ذلك الخادم فهو فى عالم غير هذا العالم . لقد قُتِل لأنه حاول الوقوف فى طريقنا ، فإن أبيْتِ إلا اللّحاق به فامتنعى عن تنفيذ رغباتى !

نَسِيتْ المرأة عندئذ ما يحدق بحياتها وحياة أعزّائها من خطر وتراءى لها وجه ذلك المَاهِن [1] المخلص مخضباً بالدماء ، فغطت وجهها من هول ما تصورت ، ثم تشجعت قليلا وقالت : والآن ماذا تريدون بعد أن ارتكبتم جريمة القتل ؟

فقال السبع بهدوء : إنّا هنا وراء بعض أوراق خاصّة فى حَوْزَة زوجك ، فأعطينا هذه الأوراق ، ولك ألا نُزعجك دقيقة أكثر . . .

وكانت الفتاة قد رجعت إلى عقلها فوقفت متحاملة وقد امتقع لونها وقالت : أعطيهم يا أمى كل ما يبغُون .

وصاح الشيخ قَلِقا « آمنا . آمنا . آمنا » فتقدمت الأم إلى صندوق تحت سرير النائم فجذبته إليها ، ومدّت يدها إلى ضفائرها فانتزعت من بينها مِفتاحا صغيرا معلقا بها ، وفتحت الصُّندوق وأخرجت منه عدة حُزَم من الأوراق المختلفة الحجم وقدمتها إلى السبع قائلة : لعل بينها ضالّتك .

أخذ السبع الأوراق ، وقلب وجوهها ، ثم حفِظ بعضها ورد الباقى

---

(١) الخادم

متنفّسا الصُّعَداء، وقائلا : والآن أين رقبة الجمل ؟

فصاحت المرأتان فى نفس واحد : رقبة الجمل ! فقال نعم إنهم يشيعون أن عندكم رقبة جمل مملوءة ذهباً .

فقالت الكبرى : إنا ياسيدى أسرة فقيرة لاتملك إلا قوتها ، فاكتفوا بما أخذتم من الأوراق ، ودعونا وحدنا .

فقال السبع : سواء أكان ما يشيعه الناس صحيحاأم خطأ فأناعلى يقين من أن عندكم ثروة طائلة . ثم نظر إلى المريض قائلا : أليست الحقيقة كذلك أيها الشيخ المُرْبى الطمّاع ؟ فصاح المسكين « آمنا . آمنا »

وأردَف السبع يقول : و إنامصمّمون ألا نبرَح هذه الحجرة أو نؤوب ببعض هذا المال الدّفين . فأرونا محله نرحكم من حُسْبان (١) أليم . .

فتناظرت المرأتان كأنما تستطلع كل منهما رأى الأخرى ، ثم أظهرتا بعض التردُّد .

وحينئذ رئيت سكاكين ثلاث تقرب شيئا فشيئا من قلوب الشيخ والمرأتين مُهدِّدة بانتزاع الحياة

---

(١) عذاب

الفصل السابع والعشرون

الضربة القاضية

فعل التهديد فعله فى المرأتين ، فتقهقرتا إلى الوراء بقدر ماسمحت الحجرة ، وصاحت الفتاة بصوت المسترحم وقد انقطع سَحْرُها من النجاة [١] خذوا كل ماتملك ، ولكن بربكم لاتقتلونا ، ثم تقدمت إلى حيث وقفت أمها ترتعد وقالت : دعينى ياأمى أكشف لهم عن مخبأ النقود مبعث الشؤم ، وأصل البلاء ، ورأس كل بلية .

تحركت أمها من مكانها إلى جانب سرير زوجها ، وأهوت الفتاة بيدها إلى طرَف بساط بالٍ فرفعته مُظهرة بلاط الأرض الكبير الحجم ، ثم نظرت إلى من ظنته رئيس اللصوص وقالت : أعطنى هذا السكين .

فخنقت ابتسامة ذات مغزى على شفتى المخاطب ، وتقدم منها قائلا: فى شىء من اللين : ولكن ألاتخبرنى سيدتى ماذا تريد أن تفعل بسكينى؟ إنى مستعد لأن أقوم بما تريد إذا أمكنتنى من ذلك .

فأشارت الفتاة إلى بلاطة كبيرة مربعة وقالت : انتزع هذه . فمال السبع نحو الأرض و بسنّ سكينه خلّص البلاطة من مستقرّها كاشفاً عن صينية مغطاة بغطاء من الخشب ومزق من الثياب ومملوءة بالذهب الوهاج .

---

(١) يئست منها

وتقدم أحد الواقفين بِخلاة فأفرغ فيها ذلك الكنز الدفين .

وعلى أثر ذلك وقف السبع وقال للفتاة : إنك تعلمين كما أعلم أن ماظهر قُلٌّ من كُثْر ، وقطرة من بحر ، فأين بقية الدفائن ؟

فلم تجب . فزأر : أسرعى بالإخبار ، فقد طال بنا الانتظار ، والويلُ لك إن لم تفعلى . . .

لم تملك الفتاة حينئذ نفسها من الدموع ، وتوسّلت إلى الآمر أن يُشفق على أبيها ، وأن يكتفى بما أخذ ، ولكنها كانت كالصارخ فى واد إذ لم ينل ذلك التوسل من اللص شيئاً ، ولالوَى له عزما .

فنطق بشيء من الخشونة : إن أباك لم يشفق على الناس حين جرّدهم من ميراثهم ولارثَى لحالهم ، وهأنذا الليلة أقتص منه بنفسى وأذيقه نفس الكأس التى جرّعها غيرَه ، فعلىّ بالمال وإلا فإلى جهنم جميعا ... وآزرَتْ يدُه وعيدَ لسانه .

كانت القارعة فوق ماتحتمل الفتاة . فخارت قواها ، واصطكت ركبتاها وكادت تسقط على الارض ، لولا أن امتدّ لمساعدتها ذراع أحد الأئمة فطرحها بلطف إلى جانب الحائط وفوق موضع البلاطة المستخرَجة .

نقَلَ السبع نظره من الفتاة إلى الزوجة وقال : والآن هل تُصرين أنت أيضاً على الإنكار ؟ ثم أدنى سلاحه من عنقها حتى أحست المسكينة بالنصل يلمِسُ جلدها . وأحاط بها الآخران بحالة تطير الفؤاد ، ويذوب أمامها الوَحْواح[1]

---

(١) الحديد النفس

وعند هذه اللحظة سُمِعَ صوت طفل منبعثٌ من الحجرة المجاورة يقول : أمى ! أين أنت ؟ تعالىْ . . . ثم انقطع الصوت

لم تجد الزوجة البائسة بدًّا من التسليم ، فاستجمعت قواها ودفعت الأيدى الممتدة لغوْلها قائلة : إذا كان هذا قضاءكم الظالم و إرادتكم الأثيمة فاتبعونى إذن .

فسح الرجالُ لها فى الطريق وسارت وهم فى أثرها حتى وصلت إلى غرفة نومها . وهناك لاحظت لصا آخر واقفا على رأس السرير الكبير الذى يَضُمُّ أولادها الستة ، فخشيَتْ أن يكونوا أصابهم ما أصاب مرجانا . ولكن اللص الحارس أخبرها أنهم غارقون فى نومهم ، وأنه لم يمسَسْهم بسوء . ولا يعلم إلا الله وحده بما كان فى سُبْحَانها[٢] حين ذاك

أشارت إلى صِوَان يستر جزءا كبيراً من الجدار قائلة : إن كل ما تبغونه خلف هذا

وما سمع اللصوص ذلك حتى أزعجوا ذلك الصوان من مكانه متشوِّقين لرؤية الغنيمة . ولكن ماكان أعظم دهشتهم حين لم يرَوْا شيئا إلا الحائط

فَطِنتْ المرأة إلى سرّ استغرابهم ، ولم ترد أن يُساء بها الظن . فأومأت إلى بقعة خاصة وقالت : انقُروا هنا . وهمّ اللصوص بالعمل . ولكن إشارة من السيد وقفتْ زملاءه . فنظروا إليه ، ونظر هو

---

(١) نفسها

إلى وجه المرأة متنمّراً[١] ، وقد تقطب جبينهُ لأول مرة وقال : إنك تريدين خدعتنا أيتها الماكرة .

فقالت عفواً يا سيدى فما أفكرتُ ولا أفكر فى خدعتكم ولكنى أنفذ مشيئتكم

فقال : وهل معنى هذا النقر الذى تثيرين به إلا إيقاظُ الجيران ورفعُ الإنذار ؟ إنْ كان هذا ما تبغين فلن تبلغيه إلا فى ظلمة القبر ! وقبض على عنقها حتى كاد يَعصِر الحياة منها . . .

ولكن الكومى حارس الغرفة نظر إلى رئيسه نظرة أطلقتْ المختنقة من قبضته . فوقفت مدة تترنح كالثّمل[٢] ، تنبض العروق فى وجهها كالمطارق ، ثم استردتْ بعض قوتها وقالت بصوت متلعثم : إنك ياسيدى وعدت ألا تقتل أحداً اذا دللتك على بغيتك ، فلماذا إذن تحاول خنقى وأنا على نَجْزِ حاجتك ؟ إنى ياسيدى ناصِحة الْجَيْب[٣] وحسبى دليلا على ذلك أن هذا الحائط لا يتصل بجار مطلقا على أنك لا تحتاج إلاَّ إلى بضع نقرات خفاف ثم ينكشف لك المخبأْ واضحا . و إذا سمحت لى فإنى أكفيكم مئونة العمل ، وأبرهن على أنه لا سبيل إلى التخوف وسوء الظن

تذكر اللصوص معلوماتهم عن البيوت المجاورة فوجدوها وَفْقَ ما قالت . ولم يتذمّم السبع من قيام المرأة بما اقترحت فأمرها بالابتداء و بألاّ تحدث أية ضجة

---

(١) غضبان (٢) تمايل كالسكران (٣) لا غش عندى

أحضرت المرأة ساطوراً وقدوماً وبدأت النقر بيدين مرتعشتين ، وماهى إلا بضع دقائق حتى بدأت الطبقة الرقيقة الحاجبة تتساقط وحتى انحسر الحائط عن قمطر خشبى قد نال منه الطّلاء والرطوبة مما يدل على أنه لبث فى مكانه زمناً غير قصير .

ثم تقهقرت المرأة نحو سرير أولادها بعين عَبْرَى[1] وكبد حَرَّى[2] . وتقدم السبع ففتح القمطر . وكان طوله نحو ثلثى متر ، وعرضه نحو نصف متر ، وعمقه نحو خمس متر — فتحه وإذا علب من الصفيح مرصوصة رصًّا على رفوفه الثلاثة ، فالتقط إحداها وكشف عنها فبدت الجنيهات تلمع لمعاناً .

وبينما اللصوص مشرئبو الأعناق مخلوبو الأفئدة بماشا هدوا إذ سمعوا صوت سقوط جسم ، فنظروا وقد ضرب الشكُّ حولهم نطاقه وإذا الشيخ الأشل مطروح أمام الباب فاقد الحياة .

***

جرى ما جرى أمام الفتى فلم يستطع دفعاً أو استغاثة . راى بعينى رأسه ماله يُسلب قهراً ، فما زايل مكانه ، لأنه لم يقدر على ذلك ، فلقد بَقِيَ أسبوعاً كاملا طريح الفراش يابس الأعضاء ، حتي خيل لمن رآه أنه هامَةُ اليوم أو الغد ، وما زاد على أن قال حين نظر المحبوب الأصفر يسقط فى مِخلاة اللصوص كلمته الوحيدة « آمنا . آمنا » .

---

(١) باكية (٢) عطشى

ولكن إذا كان النطق قد أعياه فإن كُرَتَىْ عينيه الضعيفتين الجائلتين فى فضاء الحجرة كانتا نعم المعبِّر عما اعتوره (١) من سهام، وشفَّه من آلام.

وأخيراً شدَّ منه القلق على ماله المدفون، وأحسَّ بالصاعقة توشك أن تنقضَّ فتذهب بالطريف والتالِد، فانحدر من سريره كمن فاءت إليه مُنَّتُه (٢) ولا يعلم إلا الله بأية قوة كان مسوقا - ثم حبا معتمداً على الحائط حتى كان فى منتصف الممشى الواصلِ حجرته بحجرة زوجه.

وما وقع نظره على مدفن نقوده المنبوش حتى شهق شهقته الأخيرة وسقط كتلة من خشب....

عندئذ طارت شرارتان من عينى السبع واستقرتا على وجه «أبى عيشه» الذى بدا عليه الاضطراب رغم تماسكه. وكان قد ترك مكان حراسته أمام حجرة الطريح، وساقه حب الاستطلاع إلى حيث زملاؤه، مخالفا بذلك أمر الرئيس.

تنبه الكومى إلى ماقد يثيره موت الزوج فى نفس الزوجة مما تُخشَى عاقبته فضرب بيده إلى جيبه فأخرج منديلا صبَّ عليه سائلا ودفعه إلى خياشيم الوانفة قبل أن تُلمَّ بما حدث. ففقدت حواسها بعد بضع ثوينات، وهوتْ بجانب أولادها...

أسرع اللصوص، فى جمع أسلابهم وفروا كما أتوا، لم يشعر بهم أحد،

---

(١) تداوله (٢) رجعت إليه قوته

ولم يعقهم عائق ، تاركين ثلاثة موتى وثلاثين بين الموت والحياة وحاملين جثة واحد من زملائهم قضى عليه مرجان فى دفاعه عن نفسه قبل أن يُقضَى عليه .

أصبح الصباح كاشفا عن سكان ثأر ثائرهم ، وغالية قلوبهم لاعنين مهددين . وقد راعهم منظر الخفير المسكَّر (١) وقد تدلى لسانه وبرز الدم من خياشيمه ومحجريه ، ومنظرُ الخادم المخلص وقد فُصلَ رأسه عن جسده فصلا .

أسقهم حالة الأم وأولادها ميتات الفقى الراحل فرثَوْا لحالهم وتقدموا بالمعونة إليهم

وفى اليوم الثالث من وقوع هذه الحادثة الفظيعة كانت الأوراق المسروقة فى أيدى أصحابها رادَّةً إليهم أراضيهم المرهونة وثرواتهم المهددة بالضياع . ورجع رسل السبع إلى الزقازيق ، وزفتى ، والسنطة وميت أبى خالد وغيرها ، حاملين إليه ما اتُّفق على دفعه نظير استرداد العقود قبل غَلَقِها ، مما رَبا على الألفين عدا

وبهذه الضربة القاضية ثأر رئيس العصابة لمال أبيه الضائع ، واستولى على ما لم يكن يحلم به من النقود ، فقد نيَّفَ ما ربحه اللصوص فى هذه الصفقة على ثلاثة عشر ألف جنيه .

---

(١) المخنوق

الفصل الثامن والعشرون

الزوج المحبوب

في ذلك العصر الذي توالت فيه هجمات الأشقياء على ميت غمر وما جاورها من البلدان تملك الناس نوعان مبرّحان من الذعر . النوع الأول إنسي وسببه العصابات ، والثاني جنّي ومصدره ظهور الجن والعفاريت في مظاهر مختلفة وأوقات متباينة .

انتشرت الأخبار عن أفاعيل تلك الأرواح الخبيثة ، واخترعت الحكايات عن الأرواح الطاهرة ومساعدتها لبعض الناس ، واشترك الجاهل والمتعلم في تصديقها ، ولجأ الأمهات إليها يقصصنها لتنويم أولادهن . رووا فيما رووا من تلك الأقاصيص أنهم شاهدوا امرأة ساربة [1] تنتقل بين الحقول والقبور ، تارة في شكل الملائكة ، وأخرى في هيئة الشياطين فتحصب [2] المارين طوراً وطوراً تعطف على المساكين . واختلف من رأوها في حقيقتها ، فمن قائل : إنها روح امرأة قُتِلَت بالقرب من معبر الصافورية أتت لتروّع القاتلين وتفتك بهم ، ومن زاعم أنها ولية من وليات الله ظهرت لتهدي الضالين ، وتعين المنكوبين

على رِسْلِكُم أيها الواهمون ! لقد ملك الرعب عليكم مشاعركم فلم تميزوا بين الحقيقة والخيال ، ودبّ الجهل إلى رءوسكم فكونتم

---

(١) ذاهبة على وجهها في الأرض (٢) ترميهم بالحصباء وهي الحصى

من الذرّات الجبال ، فليست المرأة التي شاهدتم بملك ولاشيطان ، وإنما هي مخلوقة بائسة أطارت الحوادث عقلها ، وأفقدتها قسوةُ الرجال فؤادَها ومالها ، فنَدَّت (١) من بيتها على غير هدى ، وشردتْ شرود الغزال لاتؤم مُرَاغَماً ، ووجدت في سكنى القبور ، مالم تجده في سكنى الدور ، من الراحة والعزاء .

ألاتعرفون من هي ؟ هي زوجة ذلك المجرم الفتاك الذي أقضَّ مضاجعكم (٢) بعصابته ، وفجعكم في أموالكم وأولادكم بجبروته وقسوته . . هي زوجة السبع .

مسكينة يارقية ! لقد حال حالُكِ ، وذوى جمالُكِ ، وذهبت آمالُكِ ! أين ذلك القلب الطاهر الخفّاق بالحبّ ؟ وأين تانك العينان المملوءتان سِحْراً ؟ وأين ذلك الوجه الوسيم والقد الرشيق ؟ لمْ يذهب بذلك الجمال القرويّ فعلُ السنين ، وإنما ذهب به الجدُّ العاثر وعيشة الشارد الحزين ! وما أقسى الزمان القلّب ، ذا البرق الخُلّب !

لم يكن جنون رقية جنونا مُطْبِقاً ، وإنما كان يعتريها من وقت لآخر في شكل نوْبات مؤلمة . ولقد كانت في أوقات رشدها شديدة الرحمة بكل بائس مثلها ، جمة العطف على الأطفال . ولطالما استجرَى مرآها المُشْجي من شؤون القرويات الدموع . وكثيراً مازَوّدْنها بالطعام والشراب

---

(١) ذهبت على وجهها شاردة (٢) جعلها خشنة متتربة

بعدما يَئِسْنَ من إقناعها بالمكث بينهن . ولم يكن كَلَفُ الأطفال بها قليلا وإن أثاروا أحيانا ثائرها ، وأطاروا طائر حلمها .

ولعل القارىء فى شوق لتعرّف مصدر ذلك الشقاء الذى أصاب تلك المسكينة . فإليك ماحدث :

فى ليلة أُضْحِيَانَة [١] من ليالى الصيف شديدة الحر ساكِرَةِ [٢] الريح اعترى رقية سُهادٌ استقَضَّ معه فراشُها [٣]، فقامت إلى نافذة غرفتها فأطلّت منها على الحقول الممتدّةِ إلى الأفق ، ورمت بنظرة إلى السماء تهبهِبُ فيها النجوم

أمضتْ على هذه الحال نصفَ طَبِيقٍ [٤] . ثم انثنت متثائبة إلى سريرها ولكن لم تخدَع بعينها نَعْسَة [٥] ، فجلست يَشيل بها الفكر ، ويَلِجُ بها الخيال ، وأخذت تناجى نفسها قائلة :

أفٍّ من الوَحدة ! إنها لترتحِل الهمّ ارتحالا ، وإنها لأنجَبُ مطايا الفكر ! إنى لايُعْوِزُنِى شىء من مرافق الحياة ، ولكننى لاأشعر بالسعادة التى يتحدث عنها الناس ويصوّرونها فى مظاهرها المختلفة . وكيف تُحِسّ الزوجة الهناءة ونصفها بعيد عنها ؟

إن إبراهيم زوجى ندىّ الكف محمود السَّجِيّة ، وهبنى قلبه الشجاع وأحاطنى بضروب العناية . ولَشَدّ ما يُرْمِضُنى [٦] تذكرى سوء ظنى به فى الأيام الخالية . توهمت أنه تزوجنى لمالى ، ولكننى كنت جِدّ مخطئة .

---

(١) مضيئة (٢) ساكنة (٣) خشن (٤) ساعة من الليل
(٥) لم تنم (٦) يؤلمنى

وإذا كان قد بدّد ثروتى بإسرافه فإنه لم يهجرنى لفقرى، أو يخْزِ (١) بذمتى. وكيف يُنتَظَر من رجل نبت فى منبت العز، وتعوّد بسطَ الكفّ أن تطيعه أنامله إذا أراد لها تَذَنياً؟

ثم تأوّهت تأوّه السّليم (٢) وقالت: ترى ماهذه الأشغال التى ملكت لبّه، واستفرغت جهده؟ وماذا عسى أن تكون تلك السَّفرَات الطويلة المتمدّدة التى تنافسنى فى راحتى، وتغريه بهجرى، وتُوحدُنى لِلمَضِيفة (٣)؟

شعرت الزوجة بحنين غريب إلى زوجها النائى يفوق حنين الإبل إلى العطَن (٤)، أو المسهّد للوَسَن (٥)، وتمنّت لو كان بقربها يسامرها ويمزّق بيده الشديدة حُجُبَ الحزن المسْدَلة حولها.

وإنها لكذلك تفكر فى أمرها وأمر بعلها إذ سمعت رِزّاً (٦) فنهضت من سريرها مرة أخرى، وأشرفتْ من الشبّاك، فرأت على يمينها بالقرب من زاوية البيت البعيدة أشباحَ رجال ماثلة، فخفق قلبها ذعرا، ثم تبينت زوجها وهو ينبعث من الحقل المجاور، ويسير بخطى هادئة نحو المتكوّفين (٧)، فازداد خفقان قلبها، وخَشِيَتْ أن يكون القوم قد بيّتوا له سوءا

تمثلتْ زوجَها المحبوبَ فى أيدى سُفّاك لا يرحمون، فحدّدت أذنها وتدلّت من النافذة حتى كادت تسقط. ولولا فرع شجرة ممتد إلى الحائط لرآها الناظر بجلاء

---

(١) ينقض عهدى (٢) الملدوغ (٣) تتركنى للحزن
(٤) مبرك الإبل حول الماء (٥) النوم (٦) الرز الصوت تسمعه من بعيد (٧) المجتمعين المستديرين

وبينما هي كذلك طنّ صوت بعلها فى أذنها قائلا : هل تكامل العدد ؟ وسمعت الإجابة « نعم » فقال إلى المحاكمة إذن

وعندئذ تسلّل المجتمعون إلى حجرة كبيرة بالبيت كانت اصطبلا ثم صارت مخزنا للقطن ، بينها و بين مخزن الحبوب كُوّة يغطّيها شبكة من سلك .

دخل القوم ، ودخل وراءهم السبع . ولبثت رقية على حالها ذاهلة لاتدرى ماتفعل ، ثم انتصبت برهة وقد شغفها حب الاستطلاع وحب سلامة زوجها ، فانفتلت قائرة (١) إلى المخزن المظلم .

وهناك أمكنها أن تسمع بوضوح كل مادار من الحديث ، وترى ما يجرى على ضوء ساهرة أقيمتْ على منضدة فى ركن الحجرة

سمعت زوجها يقول وهو واقف أمام المنضدة : إنكما تعلمان علم اليقين أنكما ارتكبتما خيانة عظيمة بإفشائكما أسرار العصابة وتعريضنا جميعا للتلف ، خارقين بذلك قانوننا العادل ، وناكثين بالعهد الذى أخذتماه على أنفسكما حين اندمجتما فى سلكنا . و إنكما لم تكتفيا بمقارفة جريرة واحدة وهى التواطؤ مع أعدائنا ضدنا ، فأضفتما إليها جريرة أخرى هى أعظم فى نظرى وأدلّ على سوء اختيارى ، وهى جريرة الجبن والنذالة ، ففررتما حيث ظننتما نفسيكما بعيدين من يد السبع المطوّحة ورجاله الأمناء

والآن وقد صرتما فى قبضتنا وتحت رحمتنا هل من كلمة لديكما تدفعان بها هذه التهمة الثابتة ، وذلك العار اللاصق بجبينكما ؟

---

(١) أسرعت ماشية على أطراف قدميها

أجب أنت ياغالب . فأجاب غالب بصوت المتجلّد : إنى معترف بصحة ماقاله الرئيس ، و إنها لغلطة فظيعة أرجو أن يشفع لى فيها خِدْماتى السابقة للعصابة وتو بتى عن الرجوع إلى أمثالها

فهأها السبع مردداً : التو بة ! التو بة ! ثم سأل : وأنت ياحاجّ سيد هل لديك ماتقوله ؟ فصاح المسئول بصوت متلعثم : إنى غير منكر أيضا ، و إنى ألتمس الرحمة ، وما دفعنى إلى ارتكاب ذلك الجرم إلا إحَنٌ [١] حملتُها لبعض زملائنا فأعمانى حب الانتقام .

فزأر السبع : كفى ! ثم خاطب بقية الحاضرين ما رأيكم ؟ فصاحوا فى نفس واحد : الإعدام العاجل ! فقال وذلك هو رأيى أيضاً .

وهنا ارتمى الحاج سيد على الأرض فى حالة هِياج صائحاً : ألتمس الرحمة ! ألتمس الرحمة ! ارحمونى ! ارحموا أولادى المساكين ! !

ولـكن ذلك لم يُغْنِه .

بخيم السكون على المتشاوَر بضعَ دقائق كُمَّ فيها فما البائسيْن وشُدَّت فيها أيديهما وأرجلهما ، ثم وقف السبع عند رأسيهما كجزار على ظهر وَضم [٢] برهة ، ثم هوى بساطور حاد على الرقبتين فحزهما حزّاً ! !

فى هذه اللحظة سُمِعَتْ صرخة واحدة مزعجة من القاعة المجاورة ، ثم سقوط أشياء . فتروَّع [٣] الحاضرون ، وعلّقوا أنفاسهم ، ولـكن السبع

---

(١) أحقاد (٢) مايوضع عليه اللحم (٣) فزع

obeikandl.com

قال بهدوء : لا داعى إلى الوَهَل [١] ، فاستمروا أنتم فى عملكم ، وسأعود إليكم بعد قليل .

وما هو إلا أن توارى فى ظل البيت حتى برز الرجال يحملون جثتين هامدتين ، ورأسين منفصلين ، ميمّمين نحو قبرين محفورين فى وسط الحقول المترامية . وبقى الكومى وحده فى ذلك المَجْزِر مشغولا بإخفاء آثار الجريمة الرائعة .

أهرع السبع إلى مبعث الصوت ، ولم يداخله أقل ريْب أن ما سمعه هومن عمل زوجه . وهناك فى ذلك المحزَن القاتم و بين قطع الأثاث البالى والأكياس الفارغة وجد حليلته فى حالة يرثى لها حقا : رأس منكّس على صدرها ، ووجه علاه التراب ، وذراعان مخدوشان من تأثير السقطة ، وجسم ممدود لا حَراك به .

ظن لأول وهلة أنها قُبِضَتْ [٢] ، ولكن تبين له أنها فاقدة الرشد من هول ما شاهدت ، فحملها إلى سريرها وجلس بجانبها يسعفها ولكن بلا كبير جدوى ، فقد فتحت عينيها عدة مرات ثم غابت عن رشدها .

وكانت الخادمتان العجوز والصبية قد أيقظتهما الصرخة العالية فهبتا من نومهما مذعورتين مرتجفتين ، ولم تجسُرا على الهبوط إلى الطبقة الأولى حتى سمعتا صوت سيدهما يأمرهما بإحضار مصباح وكوب ماء على عجل :

---

(١) الفزع (٢) ماتت

ولم تفطنا مطلقا إلى ما حدث ، وما دار بحسبانهما أن سيدتهما غادرت حجرتها ، وجازفت تلك المجازفة الخطيرة .

***

لما عيي الزوج بأمر زوجه وكل العناية بها إلى الناصفتين (١) ثم نزل فوجد الجماعة قد انتهوا من مهمتهم على ما يرام فأمرهم بالانصراف ، ثم صعد هو والكومي إلى حجرة فوق ذلك المخزن وجلسا صامتين مدة وأخيراً قال الكومي : إن هذا الأمر لم يكن متوقعاً أبداً ، فكيف حدث ؟

فقال السبع مطرقاً : إنى لا أعلم بالدقة كيف وقع ذلك الحادث ولكننى لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت إنها المصادفة الغريبة بصّرت رقية بنا فاحتاطتها الشبهات فى أمرنا ، إذ لم تكن تتوقع أنى قريب منها ثم دفعها حب الاستطلاع إلى التجسس فكمنت فى ذلك المخبأ . ولا أشك في أنها رأت وسمعت كل شىء ، ثم خانتها قواها وصرخت تلك الصرخة المرعبة . ولولا أن الله سلم وأن بيتنا منعزل وناء عن بيوت القرية لبرح الخفاء (٢) ، وكنا فى حال غير هذه الحال .

ثم وصف له حالتها عند ما رآها وحالتها بعد ذلك فقال الآخر : خير لنا ولها أن تترك بدون إزعاج حتى تهدأ أعصابها وتفيء من نفسها إلى رشدها . وربما أمهت (٣) كل شىء عند استيقاظها ، أو اعتبرته حلماً من الأحلام المقلقة

---

(١) الخادمتين (٢) وضح الأمر (٣) نسيت

فرّ الليل أمام الصباح ، والسبع مائل أمام زوجته مقطّب الجبين ذابل الجفن ، ينظر إلى وجهها الشاحب ، وعينيها المطبقتَيْن ، ويتعجب من طول غَشْيتها . ولولا تنفسها الهادئ لأيقن أنها فى عالم غير عالم الأحياء .

وأخيراً انفرجت أهدابها المشتبكة عن باصرتين لا تزال فيهما آثار الغشية والذهول ، ونظرت إلى ثوب المائل بجانبها ثم صعّدت نظرها حتى عثر بوجهه فاستقرّ عليه .

نظرت إلى ذلك المحيّا الذى كانت تستشعر السعادة من النظر اليه ، فتمثلت فيه محيّا جزّار ملطّخ بالدماء يهوِى بسكينه على الخراف فيذبحها ، وعلى الأنانِىّ فيشطر رقابها . وعادت اليها صورة ما شاهدت منذ ساعات قلائل فى أرْوَع أشكالها . فأخذتها رِعدة شديدة ، وغطّت وجهها بكلتا يديها ، وصاحت : أغْرُب من أمامى أيها السفّاك الجبّار فما أنت زوجى... وإنما أنت قاطع طريق لا يرحم . . .

ثم قعدت نصف قعدة بارقةَ البصر[1] ، ثم غادرها رشدها مرة أخرى وسقط رأسها على الوسادة .

حصل كل ذلك أمام الزوج الدَّهِش فلم تعدُ شفتيه لفظة ، أو يبدى حَرَاكا ، وإنما قرّ رأيه على العمل السريع اتقاء لما قد يجره حديث الزوجة من خطر .

بَرِحَ الغرفة ، وذهب إلى صديقه النائم ملء جفونه فأيقظه ، ثم

---

(١) برق البصر كفرح ونصر تحير فلم يطرف أو دهش فلم يبصر

أنشأ يحدثه بما جرى ويخبره بما اعتزم سلوكه . قال : إن هـذه الزوجة ستنسج حولنا نطاقا من الشبهات بهذيانها ، ولا سبيل عندى للخروج من هذه الورطة إلا الحيلولةُ بينها وبين العالم خارجَ هـذا البيت ومراقبةُ حركاتها وسكناتها بكل دقة . فالويل لنا إذا ضَجَّعْنَا[1] فى الأخذ بالحيطة.

وهكذا قُدِّرَ أن يستحيل غرام تلك الزوجة إلى مقت ورَهْبَة وازدراء، وأن تصبح مقيَّدة الحرية محدودة المجال ، وأُبْعِدَ عنهـا خادمتاها ، وحلّ محلّهما شقى من العصابة غليظ الكبد دائم اليقظة .

لبثت التَّاعسة المنكودة فى سجنها — وكان حجرة ضيقة ذات كوّة واحدة — ستةَ أهلَّة كاملة ، وزادت حالها سوءا على مر الأيام حتى أصابها الخَبَل ، ونالت منها النوبات الجنونية الحادَّة .

وذات يوم تغفّلت حارسهـا وفرّت من قفصها فرار الطائر ينشدُ الحريةَ ، هائمةً على وجهها لا تعرف لهـا مُلْتَحَدًا [2] ولا مَـلاذاً إلا القبور والحقول .

ولم تخفَ على السبع مآويها ، ولا غابت عنه أحوالها ، ولكنه لم يرد استردادها إلى عُشِّها بل ترك حبلها على غاربها ، بعد أن تحقق أن رياحها لا تُهْوِى [3] بخطر ولا تحمل تهديداً .

---

(١) قصرنا (٢) ملتجأ (٣) تهب

الفصل التاسع والعشرون

الحُبّ

مضى أربعة وعشرون ربيعاً على فرار الحبيسة والسبع لم يَبْنِ على امرأة أخرى (١) ، لا لأنه رَغِب عن الزواج فقد اشتهاه كل الاشتهاء ، ولا لأنه لم يوفق في اختيار الشريكة فقد عثر على ضالته التي ينشدها ، وإنما لأن عقبة كأداء اعترضت طريقه ، وإرادة أخرى عارضت إرادته

أبصر بعَيْد شُرُوب الزوجة ابنةَ عمدة القرية « محمد شهاب بك » فوقع في شركها وهو ناصب الأشراك ، وأسره جمالها وهو آسر الفتّاك . ولبِث مدة غير قصيرة حبيسَ الوجد دفينَ الوَلَه ، كأنه لا ينفك يعتقد أن الحب ضرب من ضروب الضعف الإنساني يجب إخفاؤه ثم أَنْجَحَ (٢) به ذلك السلطان الغالب ، فلم يجد مَنْدوحة من مكاشفة الكومى أولا ، ثم محادثة أبي الحبيبة ثانيا . وتمّ له ما أراد .

غير أنه آضَ (٣) من مسماه بخُفَّى حُنَيْن ، فلقد أبى الأب أن يملّكه يدَ فتاته الوحيدة ، معتذراً بأنها لا تزال صغيرة السن ، وأنه وعد أن يزوجها من ابن خالها الضابط بالسودان .

سمع السبع ذلك الاعتذار فلم يرُقْ في نظره ، وعزَا ذلك الإباء إلى حزازات أسْريَّة قديمة ، ولكنه لم ينل من عزيمته وإن نال في زعمه

---

(١) لم يتزوج (٢) غلبه (٣) رجع

من كرامته ، ولا أتى على أمله في الفوز بطَلِبته يوماً ما .

لجأ إلى عم الفتاة الشيخ «غالب شهاب» فدَلاَ به إلى أبيها[١] ، ولكن الشفاعة لم تثمر الثمرة المطلوبة . وحينئذ هاجت أعصابه رغم ثباته وألَظَّ به الفكر[٢] ، وحال حبه إلى هُيام شديد — وأحب شيء إلى الانسان ما مُنِع — وصمَّم على أن يبلغ بالقوة مالم يبلغه بالمفاوضة واللين

صمَّم مرة على أن يختطف الطائر من وَكْنِه[٣] ، ويطير به إلى حيث لاتقع عليه عين أو تصل إليه يد . ثم نَادَى[٤] له قُبْحُ عزمه ، وتصوَّر سوء المغبة ، فعدل عن سلوك هذا السبيل

ثم فكر نَزْلَةً[٥] أخرى فى قتل أبيها الذى قام حجر عثرة أمامه ، ولكنه أقلع عن ذلك أيضاً ، وعمد إلى سلاح التهديد حيناً ، ولكنه لم يُدْنه من غايته . وحُمَادَى القول أنه مكث بضعة شهور مجالا لأفكار متضاربة وآراء متعارضة ، ومرَّ به فى أثنائها ألوانٌ من الشقاء والحيْرة لاعهد له بمثلها من قبل

وهل يستعصى شىء أمام سلطان الغرام القاهر ؟ وأىُّ كابرٍ لم يَعْنُ[٦] أمامه صاغراً ؟ وأى جَموح لم ترُضْه يد الحب الناعمة ؟ بل وأىُّ متعنت جبَّار ، وقف موقف المُوَلَّه ولم يذُق الذلَّ والصَّغار ؟ وإذا كان لسلطان النوم نفوذه وسيطرته فى بعض الأوقات ، فإن لسلطان الحب عظمته وجبروته فى جميع الحالات ، ولئن لعب الأول بالأبدان لقد لعب الثانى بالمهج والعقول والوجدان !

(١) استشفع (٢) لزمه (٣) عشه (٤) ظهر (٥) مرة (٦) يخضع ويذل

إيهِ أيها السرُّ الخالد ! مجمع اليأس والرجاء ، ومبعث السعادة والشقاء! كم عصفتْ نكباؤك بقلوب مزَّقتها ، وكم مرَّت رُخاؤك على وجوه ضاحكة فداعبتها . وكائن خلقتَ من الرَّعديد مقداماً ، وصيَّرت المقدام مِحْجاماً !

تلك هِجِّيراكَ[١] مع الناس ملوكهم وطغامِهم ، وذلك أثرك فيهم شيبهم وشبَّانهم ، لم يفسُق عن دائرتك فاسق ، ولم ينجُ من قبضتك فَدْم أو حاذق ، اللهم إلا من كان صخراً جُلموداً !

و بينما كان بين مدِّ الفكر وجَزْره ، و بسطه وقبضه ، أتيحت له فرصة غيرُ منتظرة ، ووُضع فى يده سلاح أعانه على حَسْم مُشكلته ، وما أحسن ضرَبات الجدود، وأعجبَ تصرفات الأقدار !

كان فى منتصف إحدى الليالى عائداً الى بيته بعد سَبْحة طويلة من سَبَحاته ، و إذا به يلمح شبحين يبرُزان من حديقة « الشيخ شهاب » و يتسللان بجانب الجدار بحالة مُريبة .

وقف برهة وقد شدَّ منه العجب ! صائحاً فى أغوار نفسه : تُرَى من هذان المخترقان جوفَ الليل ؟ وأى دور كانا يلعبان فى مثل هذه الساعة ؟ إن وراءذلك لسرا !

ثم سار على حِفَافهما[٢] بخطًى رفيقة سريعة حتى أدركهما عندزاوية البستان . وأحس السائران به فوقفا وَهِلَيْن[٣] حائرين

---

(١) دأبك وشأنك (٢) أثرهما (٣) خائفين

رأى فيهما فردين من أفراد عصابته هما « جمعه المغربى » و « سالم السحرتى » فأخذه العجب ، وفجأهما بالسؤال : أين كنتما وأين تريدان ؟

وعرف الشقيان ما آلهما ، إن هما أخفيا سر ظهورهما فى مثل ذلك الوقت ، فأفضيا إلى رئيسهما بحقيقة الحال . قال جمعه بصوت خافت : كنا فى الحديقة نوارى جثة شهاب بك ، بعد أن قتلناه خنقاً إطاعة لمشيئة أخيه . وكان قد جعل لنا جُعْلاً على ذلك هو مائة وعشرون جنيهاً ، وها نحن أولاء ذاهبان إلى مقرنا

فشعر السبع بكابوس يرتفع عن صدره ، و إن لم يظهر لذلك أثر على محياه . وهمس : ولكن كان يجب أن تعلمانى بما انتويتما قبل إنفاذه لاسيما وأنتما منى قريبان

فقال جمعه : إنا لم نعلم بتلك النيَّة إلا ظهر اليوم الفائت ، ولقد أردنا إطلاعك عليها ، فذهبنا إلى بيتك ، واستفسرنا عنك ، فأخبرنا أنك مسافر وقد كنا على أن نُرجئ هذا الأمر حتى نستأنس برأيك ، لولا إلحاح الشيخ شهاب الذى ضاعف الأجر ، وأخبرنا أن فرصة الليلة قد لا تلدُ الظروف مثلها .

ولم نتردد كثيراً فى إرسال ذلك السهم علماً بأن الهدَف مُبْغَض من رئيسنا ، ومَشْنُوء [1] تبعاً لذلك من جميع زملائنا ، وأنا نُصيب بحجر واحد عُصفورين . وإنا لنرجو من صميم أفئدتنا ألا نكون قد أغضبنا

(١) مبغض

الرئيس بانتهاجنا تلك الخطة ؛ أو عارضنا له هوى

وضرب السحرتى يده إلى جيبه فأخرج صرة حمراء ، ودفع بها إلى الرئيس قائلا : هاهو ذا جزاء عملنا الليلة .

فأجابه السبع بهدوء : احفظها معك حتى توصلها غداً إلى الكومى ثم ودعهما وانكفأ إلى بيته مناجيا نفسه : لقد ذلّل القدر فى ساعة ما لم أستطع تذليله فى شهور ! و إن الغد سيكون أرحم على قلبى من الماضى القاسى !

* * *

مضت أيام ولم يُر لشهاب بك أثر ، أو يسمع عنه خبر ، وأشيع أنه رُئى مسافرا فى طريق المنصورة ، ثم ذاع أنه وقع فى أحضان بعض اللصوص فسلبوه ما معه ، ثم قتلوه وأخفَوْا جثته .

وكلما مرّ يوم على اختفائه ، ضعُف الأمل فى لقائه ، حتى قهر اليأسُ الرجاء ، وحتى غاب آخر شُعاع من الضياء .

وكانت الضربة قاسية على ابنته المسكينة التى لم تفقَه سر ذلك الغياب الفجائى ، فبلغ منها الكَمَدُ ، وتَامَها [1] الألم ، ونفَذ إلى قلبها اليأس ، واقتَمّتْ [2] فى وجهها الحياة ، ووَدّتْ لو تطيرُ منها على عجل

أما عمها فقد عمِل كل ما فى وسعه لإخفاء جريمته الفظيعة وستر عاره الفاحش ، فأظهر من ضروب الجزع والحسرة ما أبعد عنه كل ريبة ، ومن ألوان الاهتمام بأمر الفقيد ووحيدته ما عطف القلوب عليه ، وأكبر مصابَه فى أعين الكثيرين

---

(١) ذللها (٢) اسودت

بعث البُرُدَ [1] تباعا إلى المنصورة وغيرها لتسقّط الأخبار عن الأخ الضائع . ولو علموا مكانه من الحديقة لما تجشّموا ما تجشموا من وَعْثاء السفر . وبالغ فى الاحتفاء بالراحل فذبح الذبائح وأقام سرادقا عظيما تُليتْ فيه آيات الذكر ثلاث ليال متتاليات ، وحضرها السبع والكومى والمغربى والسحرتى وغيرهم

وضم إليه ابنة أخيه عائشة ضمّة الأب الشفيق ، راثيا لحالها ومشاطرا أتراحها . وخلَفَ الشيخ شهاب أخاه فى رَآسة البلدة واستولى على ما خلّفه من ثروة بطريق الوراثة والوصاية

التفّ الناس حوله لأنه كان ندىّ الكفّ كثير الولائم للقريب والبعيد ، ولبث أمره محجوبا ، وإن تسرّب الشك إلى قلوب من ناوءوه فى الرياسة ، ونَفِسُوا عليه حظّه وغناه الجديد ، ولم يُحِطْ بجريمته الشنعاء إلا السبع و بعض أتباعه

غَمَرَ العمدة الجديد كابىْ صيده بنَعْمائه ، ونَفَحهما بين زمن وآخر ببعض النقود وقلّدهما وظيفة خفير ين دائمين ، مما ساعدهما فى مهنتهما الخبيثة ونفى عنهما بعض الشبهات .

---

(١) لرسل جمع بريد

الفصل الثلاثون

سلاح التهديد

انقضتْ الليلة الثالثة من ليالى المأتم بمظاهرها ، وتَنَشَّأَ [١] الحاضرون لبيوتهم ، وشُرع فى إطفاء المصابيح الكبيرة ، والسبع جالس بجانب المعزّى يحادثه بصوت خافت فى الدنيا وأحوالها ، والأيام وغِرّاتها ، ثم همس فى أذنه : أريد كلمة منك على حِدَة — وأثبت نظره على نفر قليل من أتباع الشيخ شهاب انْتَبَذُوا [٢] ناحيةً بعيدة من السرادق — أتسمح بها الآن أم تؤثر إرجاءها إلى الغد ؟

فقال الشيخ شهاب مبتسما : وماعسى أن تكون طبيعة هذه الكلمة ومرماها ؟ أهى خارجة عن أفق ما كنا نخوض فيه من زخرف الدنيا الباطل وفَنائها العاجل ؟ فأنعمَ السبع قائلا : إنها كلمة هامة تخصنى وتخصك ، ولا أريد أن تشاركنا فى سماعها أذنا ثالث .

فخفق قلب السامع خفقةً كادت تنُمّ على اضطرابه ، وقال ليس عندى الآن مايحول دون سماع كلمتك أيها الصديق . ثم استدرك قائلا : على أننى لا أدرى موضوعها حتى أحكم بملاءمة هذا الوقت وهذا المكان. وإذا كان لاغنى من سماعها فلنذهب إلى المَضِيف

دَلف الشيخان إلى المكان المقترح ، وأخذا مكانهما من أريكة

---

(١) ساروا ونهضوا (٢) تنحّوا

عتيقة بالية ذات مسند طويل ملاصق للحائط ، وشرع السبع يقول فى صوت مؤثر : إنك تعلم مقدار هُيامى بعائشة وتصميمى على الاقتران بها ، وأنه لم يحلْ بيني و بينها سوى عِناد أبيها المرحوم . والآن وقد خلا الجو من ذلك العناد ، وصرتَ الوصىّ عليها ، فإنى أطلب يدها منك ، ولا أحسبك إلا موافقاً

فصمت الشيخ برهة ثم قال : إن هـذه المفاجأة آخرُ ما كنت أتوقَّع من رجل عُرف بالحزم و بعدالنظر مثلك ، إذ كيف يمكننى أن أفاتح بنتّى المسكينة فى هذا الشأن ، وهى على ما هى عليه من كسوف الحال ، وتشتت البال ، وأبوها لم يُنْسَ خَطْبُهُ ؟

فأجابه السبع ولم يفارقه سكونه : ولـكنى لم أطلب من سيدى أن يَكشف لها عن رغبتى الآن ، وإنما طلبت اليه أن يلى هـذه الرغبة بالموافقة أولا . وما إخال الأمر إلا هيناً بعد ذلك ، إذ مايدور بخَلَدى أن الفتاة تعترض إرادة وصيّها وعمّها

فقال الآخر : هـذا حسن . ولـكن فاتك أن عائشة تحبّ ابن خالها كما يحبها ، وأن إرادة الفقيد كانت فى ضمهما معا . فصاح السبع : ولـكن تلك الإرادة قد ذهبت إلى الأبد مع صاحبها

وهنا أراد الشيخ شهاب أن يخرج من تلك الورطة ، فأظهر رغبته فى تسويف المناقشة ، ولـكن السبع أبى إلا أن يسمع كلمة حاسمة قبل أن يغادر المـكان

وعندئذ هاج هائج العمدة وصاح : إذا كان لا بد لك من سماع الجواب الليلة فاعلم أنه الإباء ! !

فاحمرّ وجه السبع لحظة ثم قال : ولكن هل لسيدى أن يبين السبب الحقيقى الذى دفعه إلى النطق بهذا الحكم القاسى ؟

فتردّد الآخر برهة ثم قال : لقد ذكرتُ لك أسبابا ، و إذا أبيتَ إلا المزيد فإني أخبرك فى غير مواربة أنك لم تُشْغَفْ بابنة أخى إلا لمالها . وهذا ماحدا بالمرحوم إلى الإباء ، إذ خشى أن يكون مآلُ وحيدته مآلَ زوجتك من الإفلاس والتشريد ، على أن شبهات قوية تكتنف حياتك ، وتحول دون رضائى عن هذا الزواج .

فشعر السبع كأن إبراً مسمومة تنفذ إلى كبده ، ولم يتمالك نفسه من القهقهة ، ثم حدّق فى وجه محدثه قائلا :

أما أنى أبغى الزواج للمال فهذا محض افتراء ، فما أحببت عائشة إلا لذاتها ، وما أفكرت إلافي إسعادها ، و إنى مستعد لأن أتنازل لك بالنيابة عنها عن كل ما يخصها من ميراث .

وأما أنّ حياتى مجال المظانّ فليس مثلك أنت من يُقْطَع برأيه فى هذا الشأن ، فإن القاضى يجب أن يكون شريفاً طاهر الذّيل قبل أن يتعرض للفَتْح [1] بين الناس !

فامتعض الشيخ من هذا التقريع ، ودبّ إلى فؤاده الذعر والشك

---

(١) للحكم

معا . ولكنه تشجع قائلا : ومن ذا الذى يجرؤ على تدنيس ثوبى التقى ؟

فأجابه الآخر وفى صوته رنة الاستهزاء والتحدّى : أنا أيها العمدة الجديد ، والوارث الوصىّ ، والقاتل الماهر ! وهل بعد قتلك شقيقَك الوحيد رغبةٌ فى عَرَض زائل مُفْتَقِرٌ إلى التدليل على خِسّتك ودناءتك ؟ لقد انتحلتَ الأسباب ، وجاهدت ما استطعت فى ستر سوءتك ، وإخفاء جريمتك ، وأردتُ أنا مشايعتَك فى هذا التستر ، ولكن أبى لسانك العاثر إلا أن يفتضح أمرُك ، ويُذاع سرك .

زعمتَ أن فى مَكِنَتك [1] ردّى عن هواى بتهديدك إياى ولكن طاش سهمك ، وفَال زعمك [2] ، وردَّ كيدُك إلى نحرك من حيث لا تشعر .....

ألا فاعلم أن حياتك معلّقة بخيط واهٍ يكتنفه شِقّا مقَصّ القضاء ، وأن كلمة واحدة من فمى تنبُش دفين بستانك ، وتلطّخ جبينك ، وتطوّح بأملك .... بل تنسِف حياتك نسفا ... !!

ثم خفف من لهجته ، ونَهْنَهَ [3] من وعيده قائلا : فأنت ترى الآن أنى قصدتُ المسالمة مع قوتى ، وأبيتَ أنت إلا المحاربةَ على ضعفك

على أنى ما برِحْت مستعدا للمصالحة بل شدّ أزْرِكَ فيما تريد على شريطة أن تُقرّ الزواج وتعمل على تنفيذه

شعر المخاطب المسحور بثِقَل الوطأة ، وأنه فى قبضة خصم لا يرحَم

(١) قدرتك (٢) أخطا (٣) قال

فلم يجد مناصاً من الانحناء حتى تمرّ العاصفة بسلام . فبدأ يعتذر عما فرط منه نحو صديقه . وقال إنه لم يقصد تهديده مطلقا، وإن ما فاه به إنما كان صَدى ما تردّد على بعض الألسنة الهاذية ، وإنه هو يعتقد فيه الشهامة والفتوّة [١] وطهارة الإزَار ، وإنه يعتبره صهره من الآن .

شكر السبع له تغيير رأيه فيه وإقراره الزواج ، ثم صافحه وانطلق منبسط الأسرة مثلوج الفؤاد . وقضى الشيخ شهاب ليلاةً [٢] سوداء كان فيها نُهْبَى للهواجس ، ومُسْتَرَادا [٣] للريب والوساوس ، وهَدَفا لوَخزَات مؤلمة ، وَلَذعات محرقة .

لم يمض على هذه المحاورة أسبوع حتى صُوِّب سهم آخر إلى فؤاد عائشة المكلوم ، وانتُزع منها الرضا انتزاعا . وكيف تستطيع المقاومة وحلُها من الهم والوَهْى [٤] حالُها ؟ وكيف تفكر فى الإباء وقد صُوِّر لها الزوج ملَكا من ملائكة السماء خَلقاً وخُلُقاً ، ورُسمت أمامها السعادة المنتظرة والمستقبل البهيج ؟ ثم أليس عمها أدرى بمنفعتها ، وأحرصَ الناس طُرًّا بعد أبيها على راحتها وهنائها ؟ ثم ماذا يكون غضب ابن خالها فى جانب إرضاء وصيّها ؟ إنها لم تحبّ ذلك الضابط ولم تُبغضه لأن قلبها لم يتذوق الحب ، ولأن طبيعتها لم تألف البغض . وكل مافى الأمر أنها نشأت وإياه نشأة طفلين قريبين ، ثم كرت الشهور وتعاقبت السنون وهى تسمع أنها محجوزة له ، فليست المسألة مسألة حب من الجانبين كما ادّعى عمها .

---

(١) الكرم (٢) ليلة (٣) موضعا (٤) الضعف

عُقِد العقد فى غير مظهرَ ومن غير ما اعتِيدَ من الاحتفاء فى مثل هذه الأحوال ، وضُرب موعد قريب للزِّفاف ، وسارت الأمور على مايهوَى العروس حتى قُبَيْل اللقاء المعيَّن. ثم حدثت حادثة غير منتظرة أتت على كل ترتيب ، وزلزلت أركان السلام :

كان الوقت أصيلا ، وكانت أشعة الشمس العَسْجَدِيَّة[1] تسقط على الأزهار فى حديقة العمدة فتزيدها بهجة وحسنا ، وكانت عائشة تجوب خلال ذلك البستان الصغير شاردةَ العقل مطرِقةَ الرأس كأنما تريد أن تستشف ما تحت أديم الأرض من عظام محبوبة ، و إذا بامرأة حافية القدمين مشتملة بملاءة سوداء ، ومقنَّعة بقناع أسود تَلِجُ باب الحديقة المفتوح قليلا ، ثم تتبعها بخطى قطِّية ، حتى إذا دانتها صاحت بصوت أبحّ : عائشة !

التفتت المناداة مرتاعة لأنها لم تتوقع مثل هذه المفاجأة ، وهمت بالصُّراخ ، لولا أن القادمة أسرعت بالكشف عن وجهها قائلة : أرجو ألا تنزعجي يا سيدتى من مَرْآىَ هنا ، فإنى آتية لأبلِّغك رسالة هامَّة لابد أن تسمعيها ، ولكنى قبل أن أقفك على متضمَّنها ألتمس منك أن تسوقينى إلى مكان أمين لا ترانا فيه عين أو تسمعنا فيه أذن

وقفت العروس حيْرَى ذاهلة ، ثم زفرت زفرة عميقة وقالت : ولكن من أنت أيتها السيدة ؟ إن عينى لم تقع عليك قبل هذه الآونة ومن عسى أن يكون ربّ الرسالة التى تحملين ؟

---

(١) الذهبية

obeikandi.com

فرددت الأخرى : من أنتِ ؟ من أنتِ ؟ ثم دنت منها خطوة وقالت : ليس بعجيب ألا تعرفيني يا عائشة الآن فلقد كنتِ طفلة حين رأيتِني وجالستِني وآكلتني . آه ما كان أحمد ذلك الوقت الذى كنت أعانقك وأقبلك فيه ، كما يعانقك و يقبلك والدك الرحيم المفقود !

فجاشت نفس العروس لذكرى والدها ، وتحلبت الدموع من شؤونها على الرغم منها . واستمرت الأخرى تقول : إنني يا عزيزتى زوجة السبع البائسة المنكودة .

ثم أدنت وجهها من عينيها وقالت : أنظرى إلى وجهى !

فنظرت المخاطبة كما سئلت فإذا هى أمام جسم هَبَط (١) الشقاء لحمه ووجه علته الكُمْدة ، ونال منه الهُزال ، مُظِلّ العينين (٢) متهدّل الأجفان يتدلى على عارضيه خصُلات مشعثة مغبرّة من الشعر قدشاع فيها القَتير (٣) وعبثت بجمالها يد الزمان

وذكّرها ذلك الشبح الماثل أمامها بتلك المرأة التى كانت كلِفةً بها منذ ثلاث سنين ، وأعاد اليها صورةَ ذلك الوجه القَسِيم والقدّ الرشيق والوداعة الآسرة ، فكاد يصعقها ذلك البون الشاسع ، والتغيير الرائع ولم تمالك نفسها فأخذت ذلك المحيّا الذابل بين يديها الصغيرتين فقبّلته وكَفَتَتْ (٤) صاحبته إليها كَفْتَ الأمّ الرءوم لواحدها حتى التصق

---

(١) هزل (٢) غائر (٣) الشيب (٤) ضمت

الصدران الكليمان، وتناجى القلبان الخافقان، واختلطت الدَمعات، وتصاعدت الزفَرات . . .

منظر من أروع المناظر يُغْنى رفائيل عن الخيال ، ويجمع بين الرهبة والجَلال ؟ جمال ذاوٍ وآخر مؤذن بالزوال ، وحياة آفلة وأخرى ذات كفاح نفسىّ ونضال .

الفصل الحادى والثلاثون

العِصْيان

افترقتْ المتعانقتان على أثر صوت عربات تدنو من المنزل . وهمست عائشة فى أذن صاحبتها : إنها العربات تُحضر تقية الجهاز ، فهلُمّى معى إلى حجرتى حيث نستطيع التحدث بدون مقاطعة .

وسرعان ما احتوتهما غرفة فسيحة مُطلة على الحديقة . وأنشأت رقية تقول : حمدا لله على أن خَلَصتُ إليك بعد أن كاد اليأس يقضى على أملى فى لقائك . لقد حاولتُ الوصول إليك مراراً وكَمَنْت فيما ظننتك تترددين عليه من الأمكنة ، ولـكننى كنت فى كل ذلك غير موفقة . وهأنذى الآن مُفضية إليك بما حملنى إلى هنا :

لقد بلغنى خبر والدك الـكريم فحزنت له و بكيته بكاء مرًّا ووددت لو أستطيع مساعدتك فى مُصابك ، ثم تأدّى [1] إلىّ أمر زواجك بالسبع فطارت البقية الباقية من عقلى ، وأقسمت أن أحول دون إتمامه ، لاغَيْرَةً منى على زوج أحببته يوماً ، فإنى أشنؤه الآن ولا أتمنى رؤيته ، ولـكن لأنك شابة جميلة طاهرة القلب حسنة الطوية . وفتاة هذه صفاتها حرام أن

---

(١) انتهى

تقترن بوحش ضار ، واص أثيم ، وجزّار سفّاح مثل زوجى ! ! لقد رأيته بعينى رأسى يذبح بيده رجلين من رجاله لأنهما أفشيا سرًّا من أسرار عصابته . وكانت نتيجة كشفى لسره ما ترين الآن من هُزال مبرح وتشريد دائم ، وجنون مفاجىء . . . .

ثم لمحته مرة أخرى هو ونفرا من أتباعه يحيطون بشيخ ضعيف أعزَل ويسلبونه مامعه ، وسمعت المسكين يستغيث ولكن مامن مغيث . ولم أرُمْ مبارحة مَكْمَنى قبل أن أمد يد المساعدة لذلك البائس ، ولم أقدر على تنفيذ متمنّاى إلا فى الصباح .

ونظرته مرارا هو وصديقه عيسى وراء مثل هذه الشرور . وإن أنسَ لا أنسَ سجنه لى شهوراً طويلة وإذاقتى الأمرّين حتى اختلط عقلى وتاه رشدى . . . فكيف رضيت به بعلا أيتها الحبيبة المسكينة ؟

فصاحت الأخرى . وقد هالها ماسمعت ، والعَبَرَات تخنُقها : إننى قبلته مُكْرَهَة لاطائعة ، ولو كان لى الخِيار لنبذت كل فكرة عن الزواج سواء أكان به أم بسواه . ولكن لايزال فى الوقت فُسْحَة ، وسأعمل كل مافى مَكِنَتى لفسخ العقد ، فان فزت بمتلَمَّسى فوافرحاه ! وإن كبوْت دون دَرْك أمنيّتى فويلاهُ مما ألقاه فى الغد ويلاه !

ذلك عهدى ألا يمسّنى إلا جثة هامدة !

فصاحت الأخرى : والآن قد ارتاح ضميرى ، وخففت عن عاتقى . وسأبلغهم أنى أديت الرسالة ، وأنكِ ستنفذين مشيئتهم

فقالت عائشة وقد لاحظت شيئا من التغيّر فى حالة محدّثتها : ولكن عمن تتحدثين ياعزيزتى ؟

فأجابت على الفور : عن الملائكة ، إنهم هم الذين كلفونى القيام بمهمتك ، ولطالما زارونى فى اليقظة والهجوع واستحثونى على إنجازها . وإنهم الآن ينتظرون الرد بفروغ صبر . . .

ثم حدّقت ببصرها نحو السقف ، وأشارت بيدها قائلة : أنظرى إليهم بأجنحتهم الخضراء ، ووجوههم الضاحكة ، وأجسامهم الشافّة ! أنظرى إليهم ، وحيّيهم بيديك ، فهم حارسوك ومنقذوك من مخالب ذلك الجبّار الظالم . . .

ثم عُقد لسانها ، وحال هذيانها نظرات حائرة ، وأخذت نوبتها القصيرة تُغْرق نفسَها فى لُجّة الدموع

لم تشأ عائشة كفّ صاحبتها عن البكاء لاعتقادها عن تجربة أنه متنفس المكروب ، وسَلْوَة الحزين ، فتركتها على حالها ، واكتفت بوضع رأسها على كَتِفها ومَسْحها بين لحظة وأخرى ، ولم تغير من وضعها إلا حين سمعت عمها يناديها أن انزلي لترَىْ ماأحضرنا من الأثاث . فنهضت إلى باب غرفتها وأطلت منه صائحة : إنى آتية بعد قليل ياعماه .

وكانت النوبة الخفيفة قد قضتْ أجلَها ، وما شعرت رقية برجوع رشدها حتى استأذنت فى الانصراف ، فشيّعتها عائشة حتى باب الحديقة هامسة فى أذنها : غداً قُبَيْل صلاة العشاء سأنتظرك فى الحديقة لأخبرك

بما قرّ رأيي عليه ، فاحضرى إلىّ ، وحذارِ أن تنسَى الميعاد .

رجعت عائشة أدراجها إلى حيث ينتظرها عمها ، فأدهشه ما لمحه على محيَّاها من شحوب ، وما فى وجنتيها من آثار الدمع ، وفى عينيها من ذبول ولم تخدَعْه تلك البَسْمة المتصنَّعة تخفُقُ على شفتيها . فصاح متأثراً : مابك يابنيتى ؟ لقد فارقتك فى الصباح وأنت مغتبطة قريرة و يبدو لى الآن أنك تبكين . فهل جدَّ أمر ؟

فأجابت متماسكة : ليس علىَّ من بأس ياعمى ، و إنما هو تأثر خفيف عرانى لرؤية امرأة لاهِفَة [1] مسكينة نال منها رَيْبُ الحدثان

فقال : إنى لا أعذلك على رقة قلبك فذلك وليد الفطرة ، ولكنك أحوج ماتكونين إلى رؤية مايبعث السرور وتنكب مايثير الشَّجَن . ومن عسى أن تكون تلك الزائرة ؟ لقد لمحتك و إياها بالحديقة .

فترددت برهة ثم أجابت : إنها بائسة قصدتنى لحَوْبَةٍ [2] وقد أجبت سؤلها .

ولم يرد إطالة تلك النغمة المشجية فعطف إلى نغمة أخرى ظنها مفرحة قائلا : دعينا من هذا الآن ، وتعالَىْ معى نمتع النظر بما اشتريت لك .

ثم قادها إلى حجرة واسعة ، وأخذ يريها قطع الجهاز المختلفة . وكانت بلا ريب نفيسة وثمينة تأخذ بالبصر ، وتسيِّر السرور إلى الفؤاد

فألقت نظرات عَجْلَى هنا وهناك متكلفة الفرح والابتسام ، ثم شكرت

---

(١) مظلومة مضطرة (٢) لحاجة

عمها ، وانحدرت إلى غرفتها معتذرة بحاجتها إلى الراحة والنوم وقضت فَحْمَة ليلها بين سهاد مبرح ، وأحلام مزعجة

جاء الصباح مضيفا سنين إلى عمرها ، ولم يشكّ من رآها أنها فى حالة يسأل من مثلها العافية . ولما علم عمها بحالتها ذهب توًّا إلى حجرتها ، فألفاها مضطجعة فى فراشها ، وبجانبها زوجه العقيم تلاطفها وتواسيها . وأثّر فيه مرآها حقا ، ولكنه طمأنها وأخذ يشجعها قائلا :

ليس مابك إلا أثراً من آثار التطور فى الحياة ، إذ لكل مرحلة من مراحل المعيشة لوازمها . وإنك قد قطعت المرحلة الأولى وستبدئين الثانية غدا ، وإن زوجتى قد أصابها من الوهم ما يصيبك الآن قبيل زفافها إلىّ . . . .

ثم نظر إلى زوجته وقال : أليس الأمر كذلك ياصفية ؟ فتذكرت صفية عهد الشباب الغابر ، وكشفت عن ثغر أطار الزمان واضِحَتَه (١) . وتوجهت نحو المضطجعة قائلة : إن ما يقوله عمك هو عين الصدق ، فتشجعى يا ابنتى واطردى هذا الوهم ، وفكرى فى المستقبل السعيد الذى يترقبك . ولخيرٌ لك أن تنهضى من سريرك وتأتى معنا ، فإنا فى افتقار إلى ذوقك فى تهيىء الجهاز . ولقد آن لنا أن نُعِدّ كل شىء فى محله .

فصاحت الفتاة مُغْضَبةً ، ولم تكن قاهت بلفظة حتى هذا الوقت : ليُهَيِّئ الجهاز من يتمتع به ، وليهتمّ بالزواج من يريده . أما أنا فلا أبغى زواجاً ولا جهازاً . . . .

---

(١) الواضحة الأسنان تبدو عند الضحك

فتملك السامعين اضطرابٌ عجيب ، وتعاقبت على وجهها سحابات مختلفة الألوان من صفراء وحمراء وسوداء ، وترامیا بالنظرات ، وتقاذفا بالآهات ، وصاحا فى نفس واحد : ومامعناة [١] هذا الكلام ؟

فقالت عائشة معناته أنى غُششت فى أمر هذا الزواج المختار ! وأن الذين غشونى ورطمونى [٢] هم أقرب الناس إلىّ ، وأظهرهم بالعطف علىّ ، ثم هبت من مضجعها ، وانتصبت على قدميها ، وقد طفا الدم إلى وجهها الشاحب ، وسرت فى كل عضو من أعضائهارعشة الحمى وصاحت : إن من اصطفيتموه لى بعلا لص محتال .... وسفاك أثيم .... وطاغية ظالم .... ! لم يكفه أن طغى على فتاة فسلبها مالها وقلبها ، وأطار منها عقلها ، وتركها شريدة تتخبط ، فأتى ليقضى على حياة فتاة أخرى ، ويلصق بها عاره وآثامه الصارخة !

حرامٌ على الطعام والشراب حتى أبعد من ذلك الشين ، وأنتشل من براثن ذلك المجرم العاتى ! فالأمر بينكم فإن شئتم أنقذتمونى ، وإن شئتم أهلكتمونى !!

ثم نظرت إلى زوج عمها بحالة مُذيبة نظرةَ المسترحم، المستنجد وقالت ارحمنى ياأمى وانتشلينى من هذه النيران الملتهبة ! اعطفى على فتاة لا معوّل لها بعد الله إلا أنتم !

---

(١) معنى (٢) رطمه أوحله فى أمر لايخرج منه

فصاحت المخاطبَة وقد خَضَبَتْهَا العَبرَات ، و بلغت من قلبها التضرعات : اهدئي ياعزيزتي ، واعلمى أنى سأكون عند ظنك بى . ولا تأخذنى بجريمة غيرى ، فليس لى فى هذا الشقاء يد ، ولا استشيرلى فى هذ الزواج رأى ، و إذا كان ما تقولينه صحيحاً فالإجرام على زوجى وحده ، والخطأ خطؤه !

فَدَمْدَمَ [١] حينئذ الزوج الغضبان على زوجته ، وزأر : كفى أيتها الخرقاء المجنونة ، وإنى آمرك أن تبرحى هذه الغرفة حالا ، و إلا هشمت رأسك ـ ولوّح بقبضته فى الفضاء مُوعداً ومهدداً

لم تر الزوجة مَنْدوحة عن الفرار من وجهه ، ففرّت . ولبث هو فى مكانه يرْغى و يُزبد .

وتهيأت الفتاة لخوض الحرب المظلّة الحاسمة ، فدرّعتْ نفسها بكل ما تستطيع من عُدَّة غيرَ حاسبة للنتيجة حسابا

تقدم عمها منها خطوتين ، ثم قال فى شىء من اللين : إنك تلعبين بالنار ياعائشة ، و إلا فما مغزى هذا التغيير الفجائى والظهور بمظهر العاق العنيد ، وقد أوشك أن يتم كل شىء على مانهوى ونأمل ؟ وما أحسب منشأ هذا التبلبل والاضطراب إلا زورة تلك المرأة الملعونة لك بالأمس أليست هى رقية السكيالة ؟

---

(١) كلمها مغضبا

فصاحت : بلى هى زوجة السبع المنكودة المشرّدة ، وقد أفضت إلى بكل شىء ، وهدتنى إلى طريق الرشد بعد أن أوغلت في طريق الغىّ !

فصاح فى شىء من الحدّة : ولكنها مجنونة لا تفقه ماتقول ، وإنك كنت مُحَمِّقةً حين نشرتِ لها أذنك لتفرغ فيها سموم أباطيلها ومفترياتها وكيف تجيزين لنفسك أن تحكمى على شخص كريم النِّجَار [1] عظيم القدر حكمكَ الظالم لشبهة سِيقَتْ إليك على جسر من الخديعة ، أو لفِرْية [2] مبعثها الغيرة والحقد ؟ على أنى لم أبتّ فى هذا الزواج إلا بعد أن استشرتك .

فصاحت : إنك لم تستشرنى ، ولكنك خدعتنى ، واغتصبت منى القبول اغتصابا ! وسواء أكان ما بلغنى صدقا أم مَيْنًا [3] وسواء أكان غرضك شريفا أم مَدْخُولا ، فإنى لن أتزوج بهذا اللص ولا بغيره . . . . .

أطارتْ هذه الألفاظُ المتحدّية طائرَ حِلم عمها ، وأفقدته بعض صوابه فقبض بيمينه على مِعصم يسراها وصاح : لقد نسيت أنى عمك ووصيك ، وأن لى الحق المطلق فى إرغامك على ما أريد ! فصاحت غير مكترثة : لك أن تُرْغم أعضائى على الخضوع لقوتك الجثمانية ، ولك أن تتصرف فى مالى كيف شئت ، ولكن ليس لك أن تُصرِّف قلبى ، أو تبدل اعتقادى وعاطفتى !

---

(١) الأصل (٢) كذبة (٣) كذبا

فقال بصوت المهدّد : وماذا أنت فاعلة إذا أنبأتك أنى لن أحيد قِيدَ شعرة عن خطّى المرسومة ، وأنك ستذهبين إلى بيت زوجك غدا طَوْعاً أو كُرْهاً ؟ .

فصاحت كمن به خَطْرَة [1] من الجن : وإنى أنبئك أنى لن أذهب إليه وفىّ عرق ينبِض! ولم هذا الاصرار المؤلم والأمر معلق بحياتى وبمستقبلى؟ اللهم إن وراء ذلك لسراً كميناً لا أستطيع كشفه !

فنال : اهْذِى ما شئت ، وشطّى فى حكمك كما أردت ، فليس هذياتك بشانٍ لى عزيمة ، ولا شططك بذى أثر أو قيمة . . . .

ثم تركها وخرج صافقا الباب وراءه ، وأمر فى الحال بحمل الجهاز إلى بيت العروس ـ ونفذ الأمر .

---

(١) مسّ

الفصل الثانى والثلاثون:

لقاء الزوجتين

فرّت جيوشُ النهار ، و بدت طلائعُ ابن حام [١] ، والسبع جالس بجانب صهره يحادثه ، وعلائم السرور على محيّاه بادية ، وصفية والخدم مشغولون بإعداد الطعام للضيوف ، والفلاحون مابين خارج وداخل و إذا برائحة شِيَاطَةٍ تنفذ إلى خياشيم الحاضرين . فتناظروا برهة ، ثم صاح رب المنزل : اذهب ياحمّاد واكشف مبعث تلك الرائحة . . .

وما أتم كلمته حتى سُمِع صراخ وأصوات تصيح : حريق ! حريق ! الماء ! الماء !

هبّ الكل مُفزّعين [٢] واندفعوا إلى البهو ثم إلى السلالم ، وما انتصفوها حتى قابلتهم زوبعة من الدخان مُعْمية ، فتراجع بعضهم انقاء وخاض بعضهم غِمَاره متخبّطا .

وتراكض الناس لإحضار المياه . وكان السبع أول المغامرين بحياته فحمل على باب الغرفة المقفل - حيث النار تلتهب - حملةً هشّمت أعضاءه ، واندلع على أثرها ألسنة النُّور [٣] المعقولة ، وتصايح القوم : إلى النجدة ! نجوا العروس التاعسة ! نجوا العروس التاعسة ! ! !

ولكن العروس كانت أبعد من أن تصل إليها يد بمساعدة ، فقد

طوتها النار فى جوفها طيًا ، ولم تُبق منها إلا على آثار سوداء !

وبعد كفاح ولأى تمكن الناس من إطفاء النار على أن تشبّ فى أفئدتهم ، فقد راعهم منظر الفتاة المحترِقة أىّ رَوْع ، وأسال من أعينهم غزير الدمع !

أما السبع فلم يُرَ فى حياته أكثر جزعا وذهولا ، ولا أضيع عقلا وقلبا . وقف أمام آثار عروسه لهيف القلب [١] ، يبكى بكاء الطفل ، ويندب حظه المنحوس ، ويصيح فى أغوار نفسه : سُحْقا لى وَجدْعا ! فأنا الذى عجّلت حَيْنها [٢] ، وسقتها إلى هذه الخاتمة الصاعقة !

وبينما الحضور فى ذهولهم وحزنهم إذ سرَى إليهم صوت قهقهة عالية فملكهم الدهش . وانفتل السبع مُغْتلِماً [٣] يتعرف مصدر تلك السخرية . وما جاوز عقبة الباب المكسّر حتى رأى نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة واقفة على الدَّرج الموصِّل إلى السَّطْح فى سَحْنة أهل القبور . . هى زوجته الأولى

فوقف فى مكانه فجأة ، مُنكرا ما رأت عيناه وأعادت الواقفة قهقهاتها صائحة بأعلى صوتها : لقد أخبرتها بكل شىء ونجّيتها من شر مستطير ، ووحش كاسر . ولقد وفت بوعدها وها أنذى لاحقة بها

ثم قفزت إلى السطح مهأهئة ، وطار السبع وراءها . ولكن قبل أن يمسّها بخير أو شر طوحت المجنونة بنفسها فى الفضاء ، وهوت إلى الأرض مدكوكة العنق !!

---

(١) محترق (٢) هلاكها (٣) هائجا

حادثتان مروّعتان فى مَساء واحد ، ومشهدان رهيبان يبعثان الشّجَى والحزن ، و يسيّران القلوب فى الصدور تسييراً ، مشهدا زوجتين منتحرتين فراراً من وجه الحياة العابس ، وتخلصاً من عذاب شافٍ تائم

وَدَاعاً أيتها العذراء الطاهرة ، ولَهَنَا على ذلك الشباب الغضّ حَظِيَتْ به يد النار ، وذلك البدر الساطع لم يمهل لوقت سِرارا . لقد بررتِ بقسمك ، وآثرتِ الموت على حياة كدرة ! فلينعمْ عمك بما خلفتِ له من تراث ، وليذُقْ ثمرة تآمره و إصراره ، وليثقّل عاتقه بالأوزار ، فالسّاهرة[1] تناديه و بئس القرار — غفر الله لك زلتك ووسعتك رحمته !

وأنتِ يا رقية لقد أبيتِ إلا أن تلحقى بضَرّتك الحسناء بعد أن غسلتْ يدُ الحوادث القاسية حَوْبَاتِك[2] ! وليت شعرى أية عاطفة كانت تنبُت بينكما لو قدرت لكما معيشة الضّرّات ؟ إنكما التقيتما فى دار غير هذه الدار الفانية حيث لا حسدَ ولا ضرار ، ولا غَيْرَة ولا شجار !

* * *

آلت تركة الشقيق المخنوق إلى العمدة بقَضّها وقَضِيضِها[3] . فهل سَعِدت نفسه الخبيثة الطامعة ، أو نَعِمَ باله بما دبّر من سوء ؟

إن حالته تنبىء بغير ما ينُمّ عليه ظاهره ، فلقد استيقظ ضميره على أثر جنايته الثانية . وويلٌ للآثم إذا رنّ فى أذنه صوت الضمير ، ونفذ إلى قلبه نداؤه !

---

(١) جهنم (٢) اثامك (٣) جميعها

إيه أيها السرّ الخفىّ ، والوحْى الإلهىّ ، والرقيب الحسيب ، والحاكم العادل ! كم بعثت الندم والاستغفار ، وأكَنْتَ [١] من عنيد جبار ! وكم سُقْتَ السعادة إلى من راجعك ورعاك ؛ وأذقتَ الشقاء من ناوأك وعاداك ! لك وخز كوخز النصال أو أشدّ ، ورِماية كرماية الموت أو أسدّ ! اذا هجمتَ فيالك من ضرر ، و إن انتبهت فيالك من خَطر ، و إذا صحت فبالعظات والعِبَر ! إن فى إرضائك راحة ولذّة ، و إن فى إغضابك اضطراباً وثورة !

وهكذا أنفذ الضمير حكمه فى ذى الجنايتين ، فأولع به السهاد ، وأقضّ عليه المهاد ، و بلبل منه الفكر ، وصبّ عليه سوط عذاب !

أصبح وأمسى منهَباً للريب والوساوس ، وزاد سوء ظنه بالسبع وخوفه منه ، وعدّه خصمه الألدّ الذى يجب التخلص من حياته بأى ثمن وفى أقرب فرصة . ظن أنه يستطيع اشتراء سره بالمال فعرض عليه ضعف ما يستحقه من ميراث زوجه المحرّقة ، ولكن السبع طرح ما عرض عليه بإباء وشمَم قائلا : احتفظ به لنفسك وكفانى ما سُلبت مزهّدا فى كل نفيس .

منذ انقطع ذلك الخيط الذى يربط الصهرين بانقطاع خيط عائشة ، والعمدة ينصب الحبائل و يُعدّ المكامِن للتخلص من السبع مبعث حَوْبَتِه [٢] ومذلته بالنهار ، وكابوس نومه بالليل . ووجد أن أسلم الطرق وأنجعها الالتجاء

---

(١) أذللت (٢) همه

إلى كلبيه السحرتى والمغربى، فجدّ فى إغرائهما به و إرسالهما فى أثره ، طورا بالمال ، وآخر بالرجاء ، وحينا بالحب والخديعة

أمكنه بعد مفاوضة يسيرة أن يمحو أثر جريمته الماثل فى الحديقة بنقل رُفَات أخيه إلى مكان بعيد عن الشبهات ، و بذل كل مافى طاقته لحمل الخفيرين اللصين على قتل رئيسهما حتى قبلا ، ولكنهما عدلا فى آخر لحظة حينما تراءى لهما شبح السبع المخيف ، وتمثل أمامهما هول العقاب فى حال الخيبة . وأرادا إرجاع مقدّم الأجر وهو مائتا جنيه ولكن العمدة وهبه إياهما عن طيب خاطر ، بل عرض عليهما فضلا قائلا : إن مالى تحت تصرفكما ما أرحتمانى من ذلك الفاتك الجبار . فأجابا : و إنا كذلك تحت أمرك ، ، ولكن دعنا قليلا حتى نحكم الشبكة وتتاح فرصة ملائمة .

الفصل الثالث والثلاثون

الـكمين

كانت الليلة إحدى ليالى الخريف ذات ريح حاصب [1] بدا هلالها كزورق فِضىّ أثقلته حُمولة عَنْبَرِيَّة ، أو كمنجل لُجَيْنِيّ يحصد أزهار الدُّجُنَّةِ ، ثم انحدر إلى مهده فانتثرت الدرر فى قبة السماء

وما انتصفت الساعة الثانية عشرة حتى بدت أشباح تتسلل إلى بيت كبير يميت غمر قائم على ضِفَّة النهر الشرقية زالت معالمه الآن ، وجرى فوق أرضه شارع البحر ، وقام بالقرب منه بيت لبعض أسرة رجب . وكان ذلك البيت لتاجر يونانى ثَرِى يدعى « بنى بابا »

بدأ اللصوص هجومهم من طُنُف مشرف على الماء ، وخَلَص السبع والكومى وسبعة آخرون إلى غرفة متصلة بالطنف . وانتشر ستة حول البيت يحمون إخوانهم ، و يقومون مقام النُذُر إذا دَهِمهم داهم

وكان البيت فى ظلمة القبر على غير عادته ، فأوجس بعض المهاجمين فى نفوسهم خيفة ، واعتقد البعض أن البيت خال من السكان وأن العمل لذلك أيسر عليهم . ولم تحُلْ الظلمة دون وصولهم إلى حجرة متوسطة الحجم مطلة على النهر من الجهة الجنوبية حيث الخزانة الحديدية .

وصل اللصوص إلى تلك الغرفة ، وأخذ الكومى يوقد شمعة فى يده

---

(١) تحمل التراب

وما انتهى من إيقادها حتى سُمِع صوت صَفَّارة عَقِبه صوت إطلاقات نارية . فخفقت قلوبهم خفقة واحدة ، وسكِّرت أبصارُهم ، وعُلقت أنفاسهم برهة ، ثم صاح السبع : إنا وقعنا فى فخ محكم ، ولكن ذلك لا يمنعنا من المقاومة حتى تسيل آخر قطرة من دمائنا ، فاتبعونى .

واندفع إلى الباب رافعاً غدارته ، وما وصله حتى رأى نفسه أمام ضابط مديد [١] القامة فى لباسه الرسمى شاهر مسدسه ، وحوله عدة عساكر مصوِّبين بنادقهم نحو صدره ، وأن البيت الذى كان مظلماً حين دخلوا صار فى ضوء النهار ، فقال : هذه مفاجأة جميلة لم نكن نتوقعها ، وأظن أنكم تريدون القبض علينا ؟

فقال الضابط : لم نأت لغير ذلك ، وإنا نتحرَّج [٢] من سَفْح الدماء بلا داع . فإن رأيتم أن تساعدونا فى إتمام مهمتنا — وأشار إلى الأصفاد [٣] تنتظر تكبيلهم — وإلا أمرت الجنود بإطلاق الرَّصاص وكانت عاقبتكم وخيمة ! ولا يُطمعنكم فى المقاومة قلة عددنا ههنا ، فحول البيتُ ثُلَّة كبيرة من العساكر تنتظر الإشارة للهجوم بعد أن أسرت كل رجالكم . وقال رب البيت فى لغة مكسرة لا تنس يا حضرة الضابط أنى أنا وزوجتى مستعدان للحرب أيضاً إذا دعا الحال .

فنطق بعض اللصوص متحمسين : إنا نؤثر الموت مقاومين عل خضوع مَعِيب وتسليم شائن

(١) طويل (٢) نمتنع (٣) القيود جمع صَفَد

ولـكن السبع صاح مُومِضاً إلى الـكومى إيماضاً له معناه الخفىّ : لا. لا . أيها الرفقاء . لاداعى لإسالة الدماء ، وخير لنا أن نسلّم . ثم نظر إلى الضابط قائلا : هايداى فكبّلهما كما تريد ياحضرة الضابط . ومد ثلاثة آخرون من المعارضين أيديهم ، دافعين رئيسهم بشدة إلى الوراء وقائلين : فلنكن نحن أول من يُكبّل ، لأنا عارضنا إرادة رئيسنا .

فضحِك السبع ضحكة متكلّفة وقال إنما الرئيس من يفضلُ غيره فى الشجاعة . . . وما أتم جملته حتى مرّت من جانب أذنه اليمنى رصاصة ذات دوىّ استقرّت فى جمجمة الضابط . فجُنّ عند ذلك جنونُ العساكر ، وأخذوا يطلقون بنادقهم على غير هدى .

وكان ظلام الحجرة التى بها اللصوص خير مساعد لهم على اتقاء الرصاص وتنظيم المقاومة مدة غير قصيرة . وأبدى الـكومى من ضروب البسالة والتضحية ماجعل خصومه يترحّمون به فيما بعد

دفع الـكومى السبع إلى إحدى نافذتى الحجرة وقال : أنْجُ بنفسك . ولانفعتْك مهارتُك فى السباحة ، إن لم تنفعك الآن !

فظهرت علائم التردد على وجه الرئيس ، ولـكن الـكومى صاح : أستحلفك برُفاتها إلا نجوتَ بحياتك ، وإنى تابعك بعد قليل . ثم دفعه بكل قوته نحو النافذة ، وتنفس الصُّعَداء إذ سمع صوت وثبته فى الماء

لَبِثت الحرب سِجَالا بين اللصوص والعساكر مايناهز على ثلث الساعة ، ثم رَجحت كفة الجنود بقتل الـكومى الذى عرّض نفسه كثيراً للخطر ، ووصول نجدة إليهم من إخوانهم

وانجلتْ المعركة عن قتل ثلاثة من الأشقياء وأسر الباقى . أما الجنود فقد قتل منهم غير رئيسهم جنديٌ ، وجرح أربعة جروحاً خطيرة .

اختفى السبع ، ولم يوقف له على أثر لافى الماء ولا فيما جاوره من الأمكنة والطرق ، ورُجّح غرقه ، لأن البقعة التى رمى بنفسه فيها كانت مشهورة ببعد غوْرها ، وشدة خطرها ، بل بكونها مسكناً للغيلان وشياطين النهر . وباختفاء السبع وموت وكيله فُضَّتْ خَدَمَةُ (١) أقراد العصابة العظيمة التى روّعت الأهالى ورجال الأمن على السواء سنين طويلة ، وضعُف شأنها ، وزال خطرها .

ولم يمض على أفرادها بضعة أسابيع حتى كان معظمهم فى غيابات السجون القاتمة يُسَامُونَ الخسفَ والهوان ، ويعانون من الشقاء الأشكال والألوان . وكان بَطشُ القضاء بهم شديداً ، وعقابه صارماً وأليما ، فقد حكم على كثير منهم بسجن الأبد ، كما حكم على سبعة عشر منهم بالإعدام شنقاً وكان أقل الجزاء عشر سنين مع الأشغال الشاقة . وخُصِّص مبلغ كبير لمن يقبض على السبع حيًّا أو ميتاً .

فعلت هذه الأحكام السريعة الرادعة فعلها فى نفوس كثير من أهل الإجرام ، فَقَبَعوا فى دورهم رَيْثما ينقشع السحاب المهدِّد ، وتخمُدُ جذوة رجال الشرطة الجادِّين فى أثرهم والشامِّين لريحهم

---

(١) فرق جمعهم

الفصل الرابع والثلاثون

زواج فاطمة

كانت الضربة التى أصابت أسرة الفتى ضربة قاضية حقاً ، فجعتها فى ربها النشيط وما أزنى وثمر ، وفى أبر وأخلص خادم شاهدته

ولولا ألف أو يزيد ضمه بعض زوايا البيت العتيق ، ولم تمتد اليه أيدى اللصوص ، لبات المدهورون (١) على الطوى ، ولضاقت فى وجوههم سبل الحياة . ألف جنيه أو يزيد قليلا ، وبيت بال . هذا كل ما أفلت من جشع المعتدين ، وهذا كل مابقى من تلك الثروة العريضة التى كد صاحبها فى تحصيلها ، غير متحرج من إثم أو رث لمضطر ، والتى ولدت له المضيقة والحسرة ، ثم الشلل والموت !

تزوجت فاطمة من تاجر من صغار تجار ميت غمر ، وعاشت معه عشرة شهور عيشة الحمل مع الذئب ، ثم غدر بها وطلقها بعد أن عبث بتراثها القليل ، وبعد أن أراها من ضروب العسف والخدعة مايعد أنطق مثال لشر الأزواج ، وأسوأ الشركاء

ثم تزوجت من إمام مسجد « البحيرى » وكان رجلا وديعاً ورعا

(١) المدهور من نزل به مكروه

طيب القلب ظاهر الزهد فى الدنيا . غير أنه لم يكن من الذين ينسون السيئات بسرعة ، أو يتأخرون عن الانتقام إذا سنحت فرصه .

ولد بقنا ، وترعرع بين جدران الأزهر حتى نال العالمية ، ثم تقلب فى عدة وظائف من التدريس والإمامة فى القاهرة وغيرها ، وعُيِّنَ أخيراً بمسجد البحيرى بميت غمر ، وكان فى أزهى عصوره ، وإن كان الآن خرابا تَنْعِق فى زواياه البُوم . فكان إمامَه وخطيبَه ومدرّسه ، وأظهر من العلم الغزير والكفاية النادرة ما أكبره فى أعين سامعيه ومخالطيه وأبقى له ذكراً عطِراً بين قُطّان البلد ومن جاورهم .

كان هذا العالم فى مختتم العقد الرابع ، فوق القصير ودون الطويل وبين البادن[١] والهزيل ، تكاد شدة أُدْمَتِه[٢] تُلحقه بالسودانيين ، صغير الرأس حليقه ، طويل العنق ، يُظلّ عينيه الغائرتين الضيقتين حاجبان رقيقان قد رُسما فى جبهة واضحة البروز . ولقد أطل أنفه الكبير المخروم على فم ظاهر الضيق منضد الأسنان جميلها امتد بين وجنتين غليظتين . وفوق ذلك الفم نبت شاربان مَحْفوفان[٣]

سكن هو وزوجته وولده فى الطبقة الثالثة من بيت الفقى ، ثم لبّتْ زوجته نداء ربها بعد بضعة شهور من قدومها إلى ميت غمر . فاكتأن[٤] عليها اكتئاباً شديداً ، ثم أحسّ بحاجته إلى من يقوم بتربية ابنه الصغير الذى لم يتجاوز ثلاثة أشْتِيَة

(١) الجسيم (٢) سمرته (٣) مقصوصان (٤) حزن

رأى أن يبنى على فاطمة الفتى بعد أن ألمّ بقصتها المحزنة وقصة أبيها الراحل ففعل ، وما ندِم على فعْلته ، ولا ندمت على قبوله . فعاشا عيشة الزوجين السعيدين ، وتوثقت بينهما أوَاصِرُ المحبة ، ولاقى الطفل من عطفها وعنايتها ما جذبه إليها وحبّبه فيها

أما أرْملة الفتى فقد عَدا على أفلاذ كبدها عادى الموت ، ولم يرأف بحالها ، فاختطفهم واحداً بعد واحد فى مدى سنتين ، ولم يُبق إلا على أصغرهم سنا . وكان هزيلا تنتابه الأمراض ، ويُوقن من رآه أنه لاحق عما قريب بإخوته . ورأى الشيخ سعيد الحلاوى أن يضُم حماته وابنها إليـه فى العشرة ففعل .

بدأت الفتاة وأمها تشعران بشىء من الرَّوْح[1] وحلاوة العيش بعد أن أذيقتا ألوانا من مرّه ، وبعد أن جُرِّعتا غُصَص العذاب .

وهكذا قدر أن تعيشا فى كَنَف رجل من الصالحين عيشةً وادعةَ بَلهاء[2] بعيدة عن جلبة المال وهمومه .

---

(١) الراحة (٢) ناعمة

الفصل الخامس والثلاثون

الشيخ الصالح

فى أوائل سنة ألف وثلاثمائة من الهجرة هبط أرض طنطا رجل غريب فى سحْنة البرَرَة الأتقياء ، وفى زِىّ العلماء الصالحين . قال إنه شريف من نسل النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنه أتى من الأراضى المقدسة ليحظى ببركة « السيد البدوى » وليقيم بين أهل طنطا مدة قصيرة ، ثم يرحل ثانية إلى تلك البقعة المباركة ليقضى فيها أيام حياته الباقية .

جاء ذلك الغريب وليس له من صاحب سوى حقيبة صغيرة وعصاً غليظة ، وأقام بضعة أيام لا يعرف له مأوى سوى الجامع الأحمدى فكان مجلسَه ومبيته ومتعبّده

وفى مساء اليوم السادس من قدومه جاءه أحد كرماء البلدة وعرض عليه أن يقضى مدة إقامته فى منزله . فتمنّع أولا ثم قبل .

كان هذا الضيف فى مستهلّ العقد الخامس ، متوسط القامة كَتِفاً[1] ، مُكْتَنِز الجسم ، ذا وجه قسيم[2] نضرته التقوى وعلته الهيبة وحفّه الجلال ، قد نبت فيه شارب مَحْفُوف ولحية كثّة سوداء ، يحجُب عينيه منظارٌ أسود يظهر أنه قريب العهد بمهنته ، ويزين وجهه الوضّاء الأشجّ الجبين حاجبان

(١) عريض الكتف (٢) جميل

مقرونان ، ويكسو رأسه الكبير شعر مسترسل[1] طويل يلمع فيه بعض شعرات بيضاء .

أما لباسه فكان جبة خضراء ، وقفطانا قطنياً يضرب إلى الصفرة ويجرى فيه خطوط قاتمة ، يغطى رأسه عمامة خضراء .

وكانت عصاه الغليظة متكأه فى مشيته إذ كان بساقه اليمنى بعض الظلع[2] وسبحته السوداء الطويلة لا تفارق أنامله ، سار أو جلس صمت أو تحدث ، وكان ذكر الله لايبرح لسانه ، وخشيته لا تزايل فؤاده . كان طويل الصمت عميق التفكير ، كثير الميل إلى العزلة والوحدة ، يؤثر مخالطة البائسين والملهوفين ، على عشرة ذوى النفوذ والموسرين .

ولبث مايتيف على الثلاثة الشهور محدود دائرة المعارف ، تحمله قدماه من المسكن إلى الجامع ، ومن الجامع إلى المسكن . ثم حدثت حادثة أجبرته على الخروج من عزلته ، وكانت سببا فى هبوب ريحه و بعد صيته : جاءته يوماً جارة له مالة[3] قد طرق أذنها شىء عن ورعه وصلاحه ، وصفاء سريرته ونقاء نفسه ، جاءته تستنجد به على علة ألحت عليها ، وهزال ألظ بها ، بعد أن أعيتها الحيل وعجز الطبيب عن شفائها .

دفعها اليأس من الحياة إلى من سمعت أنه حظيرة الطهر وموضع سر خفى وسلطان روحى ، فأتته شاكية باكية ، والتمست منه أن يسأل ربها اللطف بها ويريحها من عنائها . وشاء القدير الرءوف أن يكون برؤها على

---

(١) مسترسل (٢) عرج يسير (٣) غنية

يد ذلك الشيخ المهيب الخائض الطَّيْر (١)

نظر إليها والدموع تسيل على خديها ، وزوجها وأولادها جالسون حواليها ، وقال بصوت رحيم هادىء : لا تقنطى من رحمة الله وثقى أن الكرب إذا اشتد هان . ثم مسى (٢) رأسها ووجهها متمتمًا ببعض كلمات غير واضحة المقاطع ، ثم ولى وجهه شطرَ القبلة ، وجثا على ركبتيه ، ورفع كفيه ورأسه إلى السماء برهة ، ثم أطرق برأسه أخرى ، وتحركت شفتاه فى صمت ، ثم نهض من مَجْثاه قائلا : اعتمدوا على الله وانتظروا الشفاء العاجل !

وهكذا قُدِّرَ أن يزول الخطر المتوقَّع ، وأخذت العافية تتراجع إلى المُضْناة حتى أبَلَّتْ تماما مما كانت تقاسيه . وهكذا أخذ نجم الشيخ المَلِيح (٣) فى الظهور وشرعت الأقدار تُوَاتِيه .

ولم يمض على هذه الحادثة ثلاثة أسابيع حتى تناقلت الألسنة خبر معجزات الشيخ الشريف ، وتعالَمَ الناس مُبِين آياته ، ورووْا عنه الأخبار غير متحرِّين صدق ما يروون ، أو مجانبين الإغراق فيما ينقلون ، شأنهم فى كل زمان ومكان .

نَسَلَ الناس إليه زرافات ووُحْداناً ، وأهْرَعوا إليه من كل حَدَب وصَوْب ، ما بين عَلِيل يستشفى ، ولَهْفَانَ (٤) يلتمس الهدى ، ولَهْانَ يستعين على الهوى ، وصحيح يتبرَّك ، ومستجْلٍ للحقيقة ، وعقيم تلتمس

---

(١) الوقور (٢) مسحه بيده (٣) الجليل (٤) متحير

علاجا ، وعانس[1] تطلب زواجاً ، ومهجورة ترجو وصْلاً ، ومَمْسُوسَة تفتقد حرْزاً ، حتى ضاقت حجرتاه المخصَّصتان له بالزائرين والزائرات ، من مختلفى الأغراض ومتبايني الطبقات .

رأى « أحمد بك صادق » صاحب المنزل ما وصل إليه ضيفه الكريم من الشهرة وذيوع الصيت ، فازداد له إجلالا وبه تعلقا ، ولاحظ تدفق سَيْل الناس إلى بيته ، فلم يجد بدًّا من إخلاء الطبقة الدنيا جميعها وتخصيصها للشيخ ومحبِّيه ، مضيفا بذلك حسنة جديدة إلى حسناته السابقة قَدَرَها الشيخ قدْرها ، وأثنى عليه كل الثناء من جُلِّها[2] .

كان الشيخ موفّقا فى معظم ما وصف ، مَجْدُوداً فى جُلِّ زوْراته مصيبا فى كثير من حالاته . فكم من عِلّة زالت على يده ؛ ووهم عولج بكلمة من فمه ، وسعادة رُدَّت بما كتب من تمائم ، ولكم فعل بَخُوره فعله فى الحاضرين ، ونالت تمتماته من نفوسهم ؛ وأثّرت إطْرَاقَاتُه الصامتة الطويلة ، ونظراته الحادَّة الشاخصة فى قلوبهم . ولقد كان لهذا الفوز العظيم صدًى رنَّ فى آفاق طنطا أولا ، ثم انتقل إلى ما حولها من القرى ، ثم سُمِع فى أنحاء مختلفة من الوجه القبلى والبحرى . :

ولا عجب فالناس مشغوفون بالغريب ، تَوّاقون إلى كشف حجب المغيب . وتزاحمت الوفود لا سيما وفود النساء على ذلك الولىّ الجديد « والمنهل العذْب كثير الزِّحام » مما اضطرّه إلى ترتيب وقته

---

(١) مسنة لم تتزوج (٢) أجلها

وتنظيم زياراته ، فكان يستقبل الزائرين كل يوم من التاسعة صباحا إلى الواحدة ، ما عدا يومى الإثنين والجمعة

ومن عجيب أمر هذا الشيخ الصالح أنه كان لايطلب أجراً على فتاويه ، فلم يبسُط كفه لزائر ، ولم ينتظر شكر شاكر ، بل كان كل عمله لله ولمرضاة رسوله . ولكن الناس لم يجحَدوا عوَارفه ، ولا أنكروا صنائعه ، فأغدقوه بالهدايا ، وساقوا إليه الأحمال على الرغم من إبائه وتعففه ، حتى صار مُسْبَغَ النعمة ، موفور الخير .

وكان الشيخ سَمْح النفس ، سخىَّ اليد ، ظاهرَ الزُّهد ، فلم يستأثر بتلك النعم المتتالية ، بل أشرك فيها المعُوز والمضطر ، والقانع[1] والمعْتَرّ[2] ، حتى انقلب إجلال الناس له إلى حب خالص ، وقَضِىَ على ما جال فى أفكار بعض الناس بشأنه من الشك والوساوس

لم يقتصر عمل ذلك الوَرِع على معالجة الزَّمْنَى[3] ، ومواساة البائسين ورياض الجامحين ، ونصح الضالّين ، بل تعدّى ذلك إلى الدرس وتفقيه الناس فى أمور الدين

كان يجلس كل مساء عُقَيْبَ صلاة المغرب في الجامع الأحمدى ويفسّر للناس آىَ القرآن وأحاديث النبى بعبارة شائقة وأسلوب خلاب ، ويشرح بعض ما غَمُض من مسائل الفقه والأحوال الشخصية .

---

(١) الذى يسألك فما أعطيته قبله (٢) المعترض للمعروف من غير أن يسأل (٣) ذوى العاهات

وكان المصلون يتشوّقون لدرسه تشوق السّارى للقمر ويتسارعون إلى حَلْقَتِهِ تسارع الظّماء إلى الماء ، فكان فى الجامع موضع الإكبار ، كما كان فى المنزل مَلاَذ[1] الزوّار . وصار له أتباع وأشياع يترسّمون خطواته ويتيمنون ببركاته ، ويتحدّثون بمُعجزاته

مضى على الشيخ سبعةُ شهور كاملة ، زادت فيها ثقة الناس وتعلقهم به ، وشعر فيها بالسعادة ترفرف على كل من داناه

وفى مساء ليلة جلس إلى مُضيفه وبعض حاشيته يحدّثهم عن نفسه ، ويظهر لهم رغبته فى السفر إلى الأراضى الحجازية ، وأنه عزم على مغادرة طنطا فى القريب العاجل

وما طرق هذا الحديث آذانَ سامعيه حتى صاحوا فى صوت واحد : إنّ ذلك لن يكون ياسيّدنا . فابتسم الشيخ وقال : ولكنى لا أستطيع البقاء هنا الى الأبد ، فهناك فى البقعة المطهرة واجبات تضطرنى إلى الرحيل . هناك أولادى وزوجتى ينتظرونني ، فلا بدّ من السفر آجلا أو عاجلا . فقال أحمد بك صادق فى خشوع : إنا لا نودُّ الوقوف فى طريقك أيها الشيخ التقىّ . ولكنا نلتمس أن تبقى معنا ما استطعت ، فإن فى بقائك سعادةً لكثير من الناس ، وتخفيفا لويلات المنكوبين والبائسين . وعهدُنا بالسيّد لا يطرح ملتَمَساً فيه نفع للعباد كبير

---

(١) ملجأ

فأطرق الشيخ طويلا ، ثم رفع رأسه قائلا : خَارَ الله لنا فيما ننوى[١] !

ولما كان الصباح أقبل جميع الأنصار والأحباب والمعارف من رجال ونساء وكانوا قد بلغهم عزم الشيخ على السفر فقلِقُوا ، وقضى كثير منهم ليلةً ساهرة . وبعد أن لَثِمُوا يده الطاهرة أفضَوْا إليه بما أصابهم من الحزن والقلق من جرَّاء عزم مولاهم على الرحيل . وتحدَّرت دَمعات الكثيرين منهم ، وتعالت آهَاتُهم ، ورجَوْا منه بكل مافيهم من قوة أن يغيِّر نيته ويبقى معهم .

تأثر الشيخ بما رأى وسمع ، ولم يجد بدَاً من تلبية مطالبهم إلى حين . وحينئذ تهلَّلت الوجوه الحزينة ، وأقشعت القَطَرات المتحدِّرة ، وضرَع الكلّ إلى الله أن يطيل حياة سيدهم وأن يبقيه فرجة المكروب وسلوة الحزين .

انصرف الجمع المحتشد مسروراً ، وبدأ الزائرون يفدون على الشيخ الصالح ، وكان من بينهم امرأتان أتتا من ميت غمر لتريا الشيخ خاصة لما بلغهما من عظيم خبرته ودقة معرفته . أولاهما لاتزال فى ظل الصبا ، والثانية أشفَتْ[٢] على الخمسين تقود غلاما نال منه الهُزال وبرَّح به المرض . جلست الزائرتان على مقربة من الشيخ ، وكان مشغولا بإلقاء بعض البخور فى الموقد ، وما استقرتا فى مكانهما حتى سألهما ما خطبكما أيتها السيدتان ؟

فقالت الصغرى إنى سمعت بعلم مولاي الروحانى ، وأتيت من ميت غمر

---

(١) جعل الخير (٢) أشرفت

لأستفسر عن سر عدم الحمل ، وأطلب دواء يزيل العائق

فقال وعيناه إلى النار ، وسُبْحَتُهُ تجرى بين أصابع يمناه : وما اسمك ؟ فقالت فاطمة . فقال : وما اسم أبيك ؟ فقالت : محمد الفقى . فضاعفت الحبات سرعتها فى يده ، وتحوّل ببصره من النار إلى وجه المتكلمة ثم عاد سيرته الأولى ، ثم قال ومتى تزوجت ؟ فقالت : تزوجت مرتين لم أسعد فى أولاهما . فقال : مسكينة يافاطمة ! إنك سيئة الحظ

ثم ألقى بكمية كبيرة من البخور فى النار ، فتصاعد الدخان حتى ملأ الحجرة وكاد يخنق من فيها ، وقال : وهذه السيدة أمك أليس كذلك ؟ فقالت بلى . فقال : وإنها أيضاً عاثرة البخت . ثم حدّق ببصره فيهما على غير عادته وقال : ما أبأسكما ! لقد رأيتما من العذاب أشكالا وجرّعتما كأس الحزن حتى الثّميلة (١) . ولكن لم يكن لكما يدٌ فيما حل بكما فقد أخذتما بجريرة غيركما ، وحلّ بكما شؤم المدل الذى حلّ بكثير من قبل . ثم سكت ودفع بكمية أخرى من الدُّخْنَة (٢) فى النار . وأحسّت المرأتان برهبة المجلس ، فتقاربتا حتى تلاصق كتفاهما .

واستأنف الشيخ يقول فى صوت رهيب : أفٍّ من الربا آكل الحسنات ، ومضاعف السيئات ، ومجلبة الكروب والويلات ! ثم قهقه قهقهة خفيفة ، وصاح فى وجه الداهلتين : ماذا جنى ذلك المُرْبى غير الحسرة والشلل والموت الشنيع ؟ ثم أخفت صوته قائلا : ولكن ليس لنا أن

(١) الثمالة والثميلة البقية من الطعام والشراب (٢) البخور

نشمت فى الذاهبين ، بل علينا أن نطلب لهم الرحمة من صاحب الرحمة ، وننسى الماضى الأليم ! ثم صوّب نظره إلى فاطمة وقال : لا تجزعى يابنيةُ على فائت ، واعلمى أن أمامك مستقبلا سعيداً . ثم مد يده إلى طرَف سجّادة تحته ، فأخرج ورقة مطوية ، وأعطاها إياها قائلا : علّقى هذه الورقة فى صدرك ، وانتظرى الخير !

ثم نظر إلى أمها وقال : وأنت أيتها الزوجة المنكودة ماذا تريدين أن أفعل لك ؟ فقالت ودموعها تسيل على خديها : أريد أن تُبارِك هذاالطفل السقيم الذى لم يترك لى الموت سواه !

فتأوّه الشيخ وقال : حقا إن الرِّبا مُؤْذن بخراب البيوت العامرة ! لم يكفه أن ألْوَى [1] بصاحبه ، وهوى بابنته وزوجته ، فامتدت يده إلى الأولادالخمسة فعصفَتْ بهم عَصْفاً ! ثم أمرّ يده على رأس الطفل ووجهه قارئا بعض آى القرآن وقال : والآن اذهبا إلى بلدكما فى راحة وسلام . فمدّت الأم يدها بشىء من النقود ، ولكنه أبى كعادته أخذه قائلا : كفى أنكما تجشّمتما السفر من أجلى .

عادت المرأتان أدراجَهما إلى ميت غمر مأخوذتين بما شاهدتا وسمِعتا ، مُوقنتين بعلم الشيخ الواسع وخبرته الفائقة . ولم تغب صورته من ذهنهما طول الطريق ، ولا فارق سمعيهما رناتُ صوته رغم جلبة القطار وضجيج المسافرين ، ولاجرَى على لسانهما ذكر غير ذكر الولىّ المهيب ، وشأنه

---

(١) ذهب

العجيب ، وآياته الناطقة ، ومعجزاته الخارقة .

وما بلغتا مقصدهما حتى أخذتا في سرد قصتهما للجيران والمعارف بحماسة ووفاء ، فاشتاق كل سامع أن يطير إلى طنطا ليحظى ببركة ذلك الولى ويتمسح بأعتابه ، ويستفسر منه عن بعض شأنه .

ولم يكن زوج فاطمة أقلّ عجباً من السامعين ، ولا أبعدَ تصديقاً لما قُصّ عليه ، بل أخذ يؤيد كرامات الأولياء ، ويروى الحكايات عمن كشف الله عن بصائرهم من المقرّبين المطهّرين

وخرج الكل من حديثهم إلى أن الشيخ الصالح قُطْب من أقطاب الله الأخيار ، ورسول الهداية إلى أهل الشرّ والغَوَاية ، وأن الله قد خصه بكشف حجاب الماضى ، وصدق التنبُّؤ بما يلدُ المستقبل .

ولما انتهَوَا إلى هذه النتيجة صاحت فاطمة والبشر يعلو محيّاها القسيم : إن للشيخ الصالح علىّ نذراً — إن أنا حملت — أن أحمل إليه خروفاً وأرزاً وشمعاً . وصاحت أمها عقبها : وللشيخ على عهد أيضاً إن شفى ولدى فتح الله أن أبعث اليه بصابون وعسل وسمن !

ولكن الله لم يشأ أن توفى الأم بنذرها ، فقد امتدت يد المَنُون إلى وحيدها بعد ثلاثة أيام فقط من زيارتها لطنطا

زعزعت هذه الحادثة ثقة الثكلى ، ولكنها لم تنل من إيمان فاطمة بالشيخ إذْ عزتْ موت أخيها إلى إرادة الأقدار . وازداد هذا الإيمان حينما أحسّت فيما بعد بأنها صارت جَنْن سلاح .[1]

---

(١) حبلى

الفصل السادس والثلاثون

تابع قديم

كان أحمد صادق بك ذلك المِسماح الكريم من الضباط الذين أدّوا خِدْمات جُلّى إلى وطنهم فى السودان . أحيل على المعاش بعد أن استوفى الأربعين بقليل ، وعاش فى بلده عشر سنين كاملة مثال التقوى والكرم ومحل احترام عارفيه . وهو وإن نَيَّفَ على الخمسين بادى القوة معتدل القامة ، ظاهر الجراءة ، سبّاقٌ إلى موارد الخطر اذا نادى منادیه .

غير أنه كان مفتوناً ككثير من الناس بحب الظهور . أضاع ثروته كلها فى تجهيز بناته الثلاث بفاخر الرِّياش ونفيس الأثاث ، ولم يُبق إلا على دار أجداده العتيقة . ثم اضطره بعض مظاهر السخاء إلى رهن تلك الدار وهاهو ذا الرهن أو شك أن يَغْلَق وليس فى يده مايدفع به ما يهدده

جلس ذات ليلة مُحَلاّة التّرائب [1] بعقود الكواكب إلى ضيفه يحدثه فى أمور الدنيا وأحوال العالم ، وكان على غير عادته قلِقَ البال ، ظاهر البَلْبَال . ولاحظ الشيخ حالته ، فسأله عن خَطْبه وعما يَعُوله [2] فأنكر أمره أولا ، ثم عاد فنفض اليه جملة حاله ، وكيف أنه صار عرضة لأن يطرد هو ونزيله من مسكنه المحبوب .

---

(١) موضع القلادة من الصدر جمع تريبة (٢) يهمه ويثقل عليه

« إن شخصى لا يهمنى كثيراً ، ولكن لا أستطيع أن أخْزَى فى ضيفى ، أو أن يُمَسَّ شرفى » صاح رب البيت متأثراً

فابتسم الشيخ ابتسامته الهادئة ، ثم قال هدىء روعك أيها الصديق الكريم ، وثق أن الله أرحم من أن يُسكِين[1] عبداً طائعاً وشهماً نَدْباً[2] مثلك و إن سيّدى جلّتْ قدرته أطلعنى منذ حين على بعض سِرِّك فاحتطت للأمر قبل حلوله . و إنى أحمَده كل الحمد على أن جعلنى قادراً على أن أؤدّى لك بعض مافى عنقى من دَيْن ، فسَمِّ ما تريد فهو مقضىّ بإذن الواحد القهار . فعلتْ وجهَ السامع حمرةُ الخجل ، وأطرق غير مُحيرٍ جوابا . فأدنى الشيخ فمه من أذنه هامساً : كم دينك ؟

فتردد صادق بك برهة ؟ ثم أجاب : خمسمائة جنيه . فقال غداً سيكون ذلك المبلغ فى يدك ، فقَرَّ عَيْناً ، وطِبْ نفساً

بَرَّ الشيخ بوعده من غير أن يُشعر أحداً ، فارتفع بذلك كابوس ثقيل عن صدر المَدين ، ورجع إليه بشرهُ ، وزالت مخاوفه ، واعتقد أن العُرْف[3] يشعر العُرْف . وأن الصنيعةَ مع أهلها غير ضائعة

لم يمض على هذه الحادثة بضعة أسابيع حتى صار الضائف والمُضيف صهرين قريبين ، بعد أن كانا صديقين متحابّين ، فقد بَنىَ الشيخ على أخت البك الوحيدة تنفيذاً لرغبة صديقه . وكانت شابةً أرملة غازلت[4] ثمانية

---

(١) يذل (٢) خفيفاً فى الحاجة (٣) المعروف (٤) دنت منها

وعشرين خريفاً حُبِيتْ خُلقاً متينا ، وعقلا رزينا ، وإن حرمت رَوْعة الجمال . وَغَبَطَهَا الكثيرات من صواحبها على ما مُنِحَتْ من نعمة وشعرت هي بالسعادة ترفرف عليها من جديد بعد أن فارقها على أثر رحيل زوجها الأول

تفانت الزوجة فى خدمة زوجها الشيخ ، وأحاطته بكل ضروب الرَّوْح والعناية حتى ضُرب بهما المثل « صالحةٌ لَقِيَتْ صالحاً » ورزقت منه بغلام وسيم الطلعة جميل الخلقة أسمته « أحمد البدوى » .

كان بيت أحمد صادق من الطراز العتيق ، يتكوَّن من طبقتين يحيط به حديقة صغيرة ، ويُطِلُّ من الجهة البحرية على ترعة « الجعفرية » . وكانت الطبقة التى خصصت للشيخ وزوَّاره مكوَّنة من أربع حجر كبيرة يتوسطها رَحْبَة فسيحة ، وكانت الحجرتان الأماميتان والرحبة معدة لاستقبال الزائرين ، أما الحجرتان الخلفيتان فكانت إحداهما للنوم والثانية للاختلاء والتهجُّد

كانت حجرة التهجد هذه حرَما مقدسا مُغْلق النوافذ ، لا يترَبُها غير الشيخ ، ولا يلمس مفتاحَها غير يد الشيخ ، ولا يعرف ما بداخلها غير الشيخ . وبَقِيَتْ كذلك عُنْوان الرَّهبة والخشوع ، وسرا من الأسرار الخفية ، وحِصْنا لا يجسُر على مداناتة أحد ، طولَ مدة إقامته .

وطاحت بالناس الظنون فى أمر تلك الحجرة : فمن زاعم أنها مهبِط وَحْى الشيخ يستمدّ منها علمه وأخبار الغيب والمستقبل ، ومن ظانّ أنها محْبِس للأرواح الخبيثة التى كانت تحلّق فى سماء المدينة قبل قدوم الشيخ

قُصِرَتْ (١) فيها منعا لعبثها وشرها ، ومن خائل أنها تحوي لكنوز ثمينة وآثار نفيسة ، حتى إن بعض اللصوص هموا بمهاجمتها وسلبها ثم قيدهم الخوف من بطش الشيخ بهم ، وفضحه أمرهم . وهكذا لبث ذلك المتهجد معقلاً حريزاً تراعى حرمته ، حتى حدث حادث ووجدت قدمان أخريان سبيلهما إليه ، وصارت جوانبه تضم اثنين بدل واحد أحيانا .

كان اليوم من أيام راحة الشيخ ، أدى صلاة الجمعة فى الجامع الأحمدى كعادته ، وخرج يحف به جمع عظيم من شيعته ومحبيه . ولما وصل الى المنزل حياه المرافقون ، وانصرفوا الى وجوههم المختلفة .

انصرفوا إلا شيخا مُتَعَاوِنَا (٢) فى أطمار (٣) زرقاء ، حافى القدمين متهدلَ العامة قذرَها ، أشعث الوجه ، قوست السنون ظهره فلا يستطيع انتصابا ، ونالت من بصره فغدا مُطرقا متكسرا ، قبض على عصا غليظة قصيرة هى عماده عند النهوض والمسير

وقف ذلك المتحيفُ بحاف المَتْرَبَة أمام الباب برهة ، ثم دلف وراء الشيخ قائلا بصوت متهدج (٤) مؤثر « لله ! » وما وصلت إلى أذن الشيخ كلمته حتى دار على عقبه ، ومد يده إلى جيبه ، ثم إلى كف السائل

ولكن السائل بدل أن ينطلق استمر فى حبوه ، حتى وصل إلى دَرَج الخارجة وصاح : يومان بلا طعام ! فهل من كِسْرة خبز أسُدُّ بها رمقى ؟

---

(١) حبست (٢) طاعنا فى السن (٣) ثياب خلقة

(٤) متقطع فى ارتعاش

فصاح رفيق الشيخ وربّ المنزل : يا سليمان! أعط ذلك المُستَكِف [١] بعض الطعام ـ ثم أشار إلى الشحاذ أن يجلس بالحديقة ريثما يأتيه الأكل، وصَعِد مع صهره لتناول الغذاء

أمضى الشيخ نحو ساعتين فى الطبقة العليا ثم نزل ليَجِدَ بنفسه قليلا. وبينما هو يهمّ بفتح محرابه إذ سمع همساً ، فأخرج المفتاح بسرعة ، وتقدم نحو مصدر ذلك الهمس ، وإذا به أمام المُتكفف [٢] العجوز ، فلم ترُقْه هذه المفاجأة ولا بَسَطَتْه [٣] رؤية ذلك المتسكع ثانية بل داخله شئ من الشك فى أمره ، ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث قائلا :

يظهر أنك لا تحب مفارقتنا أيها الأخ ، فهل فى نفسك حاجة أخرى تريد أن نقضيها لك ؟ فنهض العجوز متثاقلا ومتكئا على عُكّازَته ، وقال بصوت منخفض : نعم إن لى قِبَلَ الشيخ طِفْلاً [٤]

فأجاب الشيخ مشمئزا : هَاتِ طِفْلَك . فنظر الآخر حواليْه نظرة عَجْلَى كمن يريد أن يُفضى بسر لا يريد أن يطلع عليه أحد ، فلما تحقق خلوّ المكان التوى على نفسه يميناً وشِمالا ، ثم انتصب قائما ، وحدّق بعينين سليمتين فى وجه مخاطبه ، وقال بصوت خافت : أنا درويش العلايلى أحد أفراد عصابتك أيها الرئيس . . . .

فخفق قلب السامع وقال : ولكن ماذا يهمنى إذا كنتَ حامل هذا الاسم أو سواه ؟ ولِمَ تدعونى بالرئيس ، وأنا لم ألتمس الرياسة فى حياتى ؟

(١) الشحاذ (٢) السائل (٣) سرته (٤) حاجة

فأحَّ السائل أحَّةً كادت تنمُّ عن موقفه ثم قال : لابَرَاحَ[١] فى أنه يهم سيدى الشيخ . . . . السبع أن يعثر فى طريقه برجل شريد كان ولا يزال من خدامه الأوفياء المخلصين ــ ثم التوى لجأة على نفسه ، و بدا الرجلَ الهرِمَ المقوَّسَ الظهر المُخْتَلِجَ اليد[٢]

نظر الشيخ خلفه و إذا بسليمان الماهن يبرُز من السُّلَّم حاملا القهوة ومتقدما بها نحوه . فقال : بُورِكَ فيك يا سليمان ، إنك لم تنس موعد قهوتى ولقد كنت عازما على الاستراحة قليلا لولا أن هذا البائس اعترض طريقى ، ورجانى قضاء بعض حاجه ، ثم مدَّ يده إلى الفِنجانه فأخذها وقدمها للسائل ، وطلب من سليمان أن يُحضر فنجانة أخرى له

لما احتوى سليمانَ السلَّمُ أشار الشيخ إلى محدِّثه قائلا : اتبعنى واحتفظ بمظهرك ، وسار الاثنان إلى حجرة الاستشارة اليومية

بعد قليل أحضر الخادم الفنجانة ، ثم أُمِرَ أن يوقد المَوْقد ففعل . ولما التهبت النار بما ألقى فى جوفها من أنواع البخور تأوه الشيخ وقال : أُدْنُ من النار يادرويش ، فلست أقرأ فى وجهك شراً ، أو أتوقع من تابع قديم مثلك ضراً

ففعل درويش كما أمر قائلا : إنى أُعيذُ سيدى الرئيس أن تساوره خَلْجَةُ شك فى أمرى ، فلست إلا مريدا الخدمة والمساعدة إن كان ثمَّ ما يتطلب مساعدتى لرئيسى المِقْشَم[٣]

---

(١) لا شك (٢) المضطرب (٣) الشجاع

فقال الرئيس : إنى أخبر الناس بطِيّتك [١] ، وأعرفهم بوفائك وهذه مسألة قد انتهينا منها ، والذى يهمنى معرفته الآن هو كيف وقفت على أثرى ، وعرفتنى رغم تنكرى الشديد ؟

فقال إن الأمر أهون مما يتصوره حضرة الرئيس ، فما هو إلا الاتفاق العجيب ساقنى إلى هذه المدينة الرحبة ، ورمى بى فى طريقك فاشتبهت فى حالك أولا ، وكان ذلك منذ شهرين ، ثم حملنى حب الاستطلاع على تتبّع خطواتك واستقصاء أخبارك . وتمنيت أن يُسْفر استقرائى يوماً ما عن نتيجة مرضية ، ويحول حَدْسى إلى حقيقة واقعة لا رغبة فى كشف ستر الرئيس وتعريض حياته العزيزة للخطر ، ولكن لأشعر أنى مقيم بالقرب من ذلك القلب المُوَقّى [٢] وتلك النفس الأبيّة الكريمة ولأعمل على حياطتها مما قد يهددها وقتاً ما

وقد كان ما تمنّيت ، فعرفت شخصك بعد أن ترددت على حلقات تدريسك ، وتبينت صوتك على تغير فى نَبَراته ، ومعارفَ وجهك على ما بها من تنكر ، وترسّمت خطاك فى غَدَواتك ورَوْحاتك . ولكن شيئين اثنين شغلا بالى مدة غير قصيرة ، وكادا يُفْسدان علىّ استنباطى . أحدهما ما لاحظت فى رجلك اليمنى من غَمْز ولقد كان حل هذه المشكلة يسيراً ، فلقد عزَوْت ذلك إلى التصنع وإرادة التستر ، وثانيهما مالمحت على جبينك من أثر شجّ عميق وهذا ما لم أستطع تعليله إلى الآن

---

(١) بنيتك (٢) الشجاع

فضحك السبع وقال : ليس ما بى تمارجاً ، ولكن وثبتى فى النهر فى تلك الليلة الكاسفة ولّدت لى هذه العاهة المستديمة ، وطبَعت جبينى بذلك الطابع الذى تراه ! والآن ما وراءك خاصّاً بإخوانك ؟

فقال ليس عندى من الأخبار ما يُثلج الصدر ، فلقد تمزّقت العصابة أيّما تمزق على أثر غيبتك وموت الوكيل ، وشنق عدد كبير من أفرادها ، وسجن الباقون مدداً طويلة . ولم يستطع الفرارَ منهم غيرُ نفسى وغير الهلالى والجندى . فررنا معاً إلى المنصوره بعد أن طوردنا من رجال الشرطة مطاردة الكلاب الكَلِبَة ، ثم رأينا ضرورة التفرّق ففعلنا ، ولم أعلم ماحل بهما بعد ذلك . قضيت طول تلك المدة متنقلا متنكرا ، يطوينى اليأس وينشرنى الرجاء حتى رسا بى التّسْيار على هذه المدينة . وراعنى كثرة المتكففين بها فاندمجت فى غمارهم ، وفعلت شَرْواهم . وإنها لمهنة سهلة جمّة الأرباح ، فلقد هبطت أرض « السيد » وأنا صِفر اليدين ، وهأنذا أعد نفسى من الأغنياء ، فإن هذا اللباس الذى يغطى جلدى يحوى بين أضعافه [1] ثمانين ذهباً . فما أسعدَ الشحاذين ، وأبعدهم عن عيون الرقباء !

فضحك السبع وقال : والغريب أنك حَذَقتَ تلك المهنة حتى لا يشك من يراك فى أنك شحاذ عتيق ، نشأ فى حِجر الفقر وترعرع فى أحضان السائلين

---

(١) طيّاته

فهأهأ درويش هأهأة قصيرة وقال : وما أظن الرئيس إلا مشتاقا للوقوف على سبب ما حل بنا وبإخواننا من نَكَبات ؟

فقال الرئيس : إنى من غير ريب جدّ مشتاق ، ولقد فكرت مراراً فى كشف تلك العلة ، فما وقف بى الفكر على سبب مُقنع ، فكيف وقعت تلك الخيانة الفظيعة ؟ فقال : لم يكن مصدر ذلك الشر المستطير سوى جمعه المغربى وسالم السحرتى ، فلقد ابتدع الشيخ شهاب منهما أسرار العصابة رجاء الانتقام منك ، ووقف منهما على نيتك لخابر رجال الضبط . وكان ما كان ، مما يبعث الأسى والأشجان !

فلم يتمالك السبع نفسه من الصياح : عَمْلة [1] ونذالة يستحقان عليهما حزّ الرقاب ، وتمزيق الإهاب ، فأنّى لى بهما وبذلك العمدة القاتل لأخيه ؟ فقال درويش فى هدوء : ليسكُن ثائرك ، ولتعلم أن يد الانتقام السريع بطشت بأولئك الثلاثة الخَوَنة ، فلقد حمل الجشع ذينك الشقيين على قتل العمدة طمعاً فى ماله ، وأبى الله إلا أن يُقبض عليهما متلبّسين بجريمة القتل ، وأن يساقا إلى السجن مكبّلين بالحديد ، وما أحسب إلا أنّ حكم الإعدام نفذ فيهما من زمن طويل

فصمت السبع ، ثم دفع بيده مقدارا من البخور فى النار ، فمَقَدَ الأُوَامُ [2] المتصاعد سحابةً سوداء فوق رأسيهما لم تُعتِّمْ أن تفرّقت ذرّاتها ثم اختفت كأن لم تكن ، وخَبَتْ [3] النار على أثرها . . .

---

(١) خيانة (٢) الدخان (٣) انطفأت

هنا زفر الشيخ زفرة طويلة تنم عما خطف فى رأسه فى تلك اللحظة وقال متوانيا : إن مثَل الحياة فى هذه الدنيا يا درويش مثلُ هذه النار ، تلتهب بالشباب وتخمدُ بالشيخوخة ! و إن مثَلَ أفراد هذا العالم مثلُ السحب فى السماء ، تتجمّع وقتا ، ثم هى لا محالة متفرقة وعائدةٌ ذراتها إلى جوهرها الأصلى !

ثم أطرق برأسه قليلا ثم رفعه قائلا : لقد دقّتْ ساعاتُ غيرنا فدَرَج[1] وها هى ذى ساعاتُنا أوشكت أن تدقّ ! ! ! .

---

(١) مات

obeikandl.com

الفصل السابع والثلاثون

شبح الماضى

قضى السبع بين جدران طنطا اثنين وأربعين هلالا متورّعا متنسّكا ، تحفُّ به الهيبة ، ويكتنفه الإجلال ، يزداد إيمان الناس بخوارقه ، وتنمو الثقة به وبقوته الروحانية ، لم تحُم فى سمائه طائرة رِيبة ولاسيقت إليه لُبْسَة(١) ولا شُكٌّ فى ماضيه الدّموى الأسود .

وليت شعرى هل كانت تروقه هذه المعيشة الرَّتيبة الساكنة وهو عاشق التغيير والهِيَاج ، ورِبيبُ الشر والإجرام ؟ وهل لَذَّتْ له حياةُ النفاق والزَّيْفِ ، وطرقُ التصنع والاحتيال ؟

إنّ ظاهر الحال يدل على رضاه ، وإن العقل يحكم بمثل ذلك ، ولكن حالة الرجل النفسية تؤيِّد العكس ، وطبيعته تناقض ظاهره .

إنه اندمج فى سلك الدَّجالين المداجين مُكرَها ، وعاش عيشة الوَقْوَاق(٢) مُجْبراً ، ولم ترُق في عينه تلك الحرية المحدودة ، ولا بَهرَتْه سلاطتُه الممدودة . ولطالما حدثته نفسه بهجر مَيْدان الولاية إلى ميدان الكرّ والصيّال ، حيث الحرية الكاملة والعمل الجرىء ولكن الإنسان

(١) شبهة (٢) الجبان

إنسان، تُطلقه الجرأة ، و يقيّده حب الحياة ، و يرسله الخَرَق ، و يجذبه العقل!

وكذلك كان شيخنا ، ماهمَّ بالمجازفة إلا عزّتْ عليه نفسه ، ولا تصوّر آخرته إلا بالغ فى التنكّر . ولِمَ يُطوّح بنفسه فى المعاطِب ، وقد أرْخَى عمامته[1] وأمِنَ الشرّ من كل جانب ؟ ولم ينبِذُ لباس الأطهار ويرتدى رداء الفجّار ، وقد جاز على الناس أمره ، وسالمته الأقدار ؟

و إذا كانت صفحة غابره ملطّخةً بالآثام ، وتورّعه ليس عن عقيدة راسخة ، فحياته الأخيرة كانت مصدر خير كثير ، سواء أوقع ذلك عفواً أم قصداً . والناس يحكمون بالآثار لا بالوسائل والنيات وللمخلوقات الظواهر وللخالق الضمائر .

ولسائلٍ أن يسأل : كيف أحرز ذلك اللص المطارَد هذا النجاح الباهر فى حياته الجديدة ، ولم يسبق له اشتغال بفنون الراجمين ولا علوم المُشَعْوِذين ؟ وكيف قطع تلك المِلاوَة[2] من الزمان دون أن يُفضح له أمر ، أو يهتك ستر أو تلحقه ظِنّة[3] أو تَبِين له فِرْية ؟

والجواب على ذلك أنه نجح كما نجح الذين سبقوه والذين لَحِقوه من كل مدّعٍ محتال ، ومُراوغ جوّال . ولِمَ نذهب بعيداً وبين ظهرانَيْنا الآن من هم دون السبع خِبًّا ودهاء ، وافتراء وادعاء ؟ تراهم يتظاهرون بمظهر الصوّامين القوّامين يرجُمُون بالغيب ، ليبتزّوا ما فى الجيْب ، و يتاجرون باسم الدين ، ليخدَعوا السُّذّج والجاهلين ، و يوهمون أنهم يخاطبون الأرواح

---

(١) أمِنَ وترفه (٢) الحين (٣) تهمة

وتتراءى لهم الأشباح ، ويستخدمون الجن والشياطين فى درك اللُّبانات ، وكشف المحجَّبات .

خبِّرنى بربك أيها القارىء الكريم ، كم ببلادنا من وحش ضار ، فى صورة التقىّ البارّ ؟ وكم من معتُوه ظاهر الغبا ، يدَّعى علم مافى السَّما ؟ إن الجهل لايزال ضارباً أطنابه حول كثير من الرُّبوع ، وإن الاعتقاد فى الترَّهات والخرافات مافتئ بادىَ الشيوع ، و إن الأوهام مابرحت تعمل فى الحاضرين ، عملَها فى الغابرين !

و إذا كان هذا حالَنا على تقدمنا وانتشار التربية والتعليم بيننا فكيف نستبعد نجاح السبع في عصر سادت فيه السَّذاجة والغفلة وشاعت الجهالة وانتشر رداء الظلْمَة ؟ إن الرجل لم تنقصه عُدَد الدَّجالين ، ولا أعوزتْه حيل المتنكرين ، فلقد سلَّحته الطبيعة كما قلنا بكثير من الذكاء ، وحضور العارضة ، وجادت عليه بمظاهر الهيبة والوقار ، وأكسبته تجاربُهُ القاسية الماضية ضروب الاحتيال والتصنّع ، وعلّمه الحرص على الحياة صنوف الخداع وسالمته المقادير حيناً فغدا سره مكتوماً ، وصالحته الجدود مَلاَوَةَ فأمسى فضله معلوماً !

أُجْبِرَ على اعتلاء عرش الأقطاب فرضى ، وحُشر فى زمرة العالمين بالغيب فما أبى ، بل افترَصَ ما أتيح له من نُهَز (٢) ، وتناولت

---

(١) حيناً (٢) فرص

يده ما مُدَّ إليه من خيط فنسج منه بحذق غِشاواتٍ على أعين المبصرين وأغطية على أفئدة المرضى من الفِدَام[1] والأميين ، واستغلّ اعتقاد معاصريه فى قوى السحر ، ومزايا الأحراز والتمائم . وكثيرا ما تُشفى علل بالعقائد والأوهام ، وتتأثر نفوس بالرؤى والأحلام !

ولا عجب بعد ذلك إذا جاز على كثير من الناس أمرُه ، وخفى سرّه ولمع فى سماء الأولياء والعلماء نجمه . تعاقبت تلك الأهلّة والسبع إلى حدٍّ ما هادئ السَّرب[2] قليل المخاوف ، وها هو ذا أخذت نفسُه توحِى إيحاء لا يعلم مأتاه[3] ، و يتوقع شراً لم يسبُر مَدَاه .

كان اليوم الأول من شهر رجب سنة أربع وثلثمائة وألف هجرية من أيام الشيخ المعدودة . امتاز بكثرة الزوّار ، و بأنه كان فاتحة عصر رعب و إرهاب ، وقلق وارتياب ، ومؤذنا بقرب انقضاض الصاعقة ، وظهور شبح الانتقام . أخذ الزائرون يتسللون إلى منازلهم وأَشْفَى موعد الزيارة على الانقضاء ، و إذا بجماعة تلوح عليهم آثار السفر يتقدمون نحو بيت الشيخ حاملين هدايا مختلفة .

« ماء . ماء » ثغا خروف أبيض سمين يقوده أحد الحمالين .

وصل الجماعة إلى الباب ، فدلف إليهم رجل مُنْحَن على عُكَّازةٍ وقال : ما إخالكم إلا تريدون سيدى الشيخ الصالح .

---

(١) جمع فَدْم : وهو الساذج (٢) البال (٣) يقع فيها خوف

فأجابه رجل فوق القصير ودون الطويل ، آدَمُ[١] ، مرتدٍ جبة وقفطانا وعمامة يعلوها غبار السفر : هذا ماجئنا من أجله ، وإنى أرجوك أن تخبره برغبتنا ، وتتسلم هذه الهدية المتواضعة

فأجابه العجوز : أما الإخبار فسأقوم به ، وأما قبول الهدية فمتوقف على إرادة الشيخ ، فإن شاء قُبلت ، وإن شاء رُفضت[٢] . ثم قاد القادمين إلى المنتظَر ، وطلب منهم أن ينتظروا قليلا ريثما يستأذن لهم فى الدخول

وما هى إلا بضع دقائق حتى كان الجمع فى حضرة شيخ مطرق محاط بسحب البَخور المتصاعدة . رحّب المزُور بضيوفه ، ثم سألهم أن يجلسوا قائلا : ما أحسبكم إلا متعَبين بعد الذى عانيتم من السفر

فقالت فاطمة الفتى بعد أن لَثَمَتْ يده المباركة ، وجارتها أمها وزوجها: إن كل صعب فى سبيل لقائك سهل أيها الشيخ الجليل ، وما ساقنا إلى هنا إلا حبُّنا لك واحترامنا لمقامك ، وإلا الرغبةُ فى أداء بعض ماعلينا لك من دين

ثم أشارت إلى رضيع ساكن إلى صدرها قائلة : وإن هذا الطفل ثمرةُ علمك وبركتك ، فحق على أم جاءتك يائسةً لهفى[٣] أن تُقِرّ لك بالفضل ، وتصوغ لك عقود الشكر ، إذ وافاها ما تمنّت على يديك .

فصاح الشيخ فى خشوع وتواضع : إنما الفضل والشكر لله القادر

---

(١) أسمر (٢) تركت (٣) مستغيثة

الرحيم ، فليكن ما توجهين إلىّ من الحمد له وحده ، فهو الذى يقول للشىء كن فيكون . فهزّ زوجها رأسه علامة على الموافقة ثم قال : لقد أحضرنا هدية صغيرة لمولانا الشيخ وَفَاءً لنذر نذرَتْه زوجتى عقب زَوْرتها الأولى ، فهل له أن يتنازل لتقبلها ؟

صمت الشيخ برهة خُيِّل إليه فيها أنه يسمع صوتا طالما سمعه فى عهد دَرَج ، ثم رفع رأسه لأول مرة ، وصوّب نظرة ثاقبة نحو المتكلم لم يلبث أن استردّها بسرعة ، ووجّهها نحو الموقد . ثم قال فى صوت خافت : إنى أتقبلها مع الشكر . وحينئذ أهوت فاطمة على يد الشيخ فقبلتها ، وحاكتها أمها . أما الحلاوى فلبث برهة فى مكانه يُمْعِنُ بصره فيما حوله ، ثم جثا على ركبتيه وقبض على يمنى الشيخ فأشبعها لثما ، ومسح وجهه بنظرة عجلى ولكنها لاقطة ، وسأل الشيخ أن يباركه ، ثم استوى قائما وانصرف مع رفيقتيه .

خرج الحلاوى وهو فى ليل من الشك فى أمر الشيخ ، وسار يتبعه المرأتان وهو شارد الفكر ، آمًّا مسجد أحمد البدوى . ولما انتهى من طوافه ترك زوجه وحماته تكملان دوراتهما السبع حول « المقصورة » وجلس فى ناحية يقلّب كفّه ، ويخاطب نفسه :

أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ ومن هذا الذى رمانى القدر فى حُضنه اليوم ؟ أهو طيف خيال أم حقيقة رائعة ؟ أنى أتّهم عينى وسمعى

ولا أكاد أصدق نفسى ! ثم قهقه قهقهة كشفت عما احتواه من عجب ناسيا حرمة البقعة ووجوب الصمت .

ولكن هل نبهت تلك القهقهة واحداً من المطوفين ، وسرت إلى سمع فرد من الجالسين المتبتلين ؟ لقد غرقت تلك القهقهة فى لجة اللثمات المتتابعة يطبعها الزوار على نحاس المقصورة وخشبها ، والمصافحات الماسية تجرى على الجدران ثم الوجوه والصدور ، ورنين حبات السبح تهاوى فى خيوطها . وما نبهت غير نفسه التائهة فى ملاً (١) التفكير ، فأرسل الزفرات ، وصاح فى أغوار قلبه : اللهم إن هذا يدق على فهمه !

حملته الذكرى على جناحها إلى حيث العهد الغابر عهدُ الدراسة بالأزهر والمنافسه على زعامة الأزهريين ، وتصور السبع ذلك الخصم الألد والزعيم العنيد ، وتراءت أمامه صور مناوشاته وحملاته عليه ، وتمثل له دؤدؤ صديق السبع ضاربا ومهدداً .

كل ذلك مر بخيال الحملاوى كما تمر الصور المتنوعة على صفحة الخيالة أمام النظارة ، ثم طارت به الذكرى ثانية من سماء القاهرة ودوّمت (٢) فى سماء طنطا ، ثم حطت به على منزل الشيخ الصالح ، فاستعاد هيئة الحجرة العجيبة وما فيها من عوامل الإيهام ، وما فى جوها من غموض وإبهام ، وذكر الشبه العجيب بين زعيم الأمس وشيطانه ، وولى اليوم وعظم

---

(١) صحراء (٢) حلقت

سلطانه ، ورنّ فى أذنه صوت بعيد ينادى : القصاص ! القصاص !

همّ بمغادرة مكانه غير دار مايفعل لولا أن رأى زوجه وحماته أمامه وجها لوجه ، وقد أصابهما الدوار من كثرة التّطويفات ، وتأثرت شفاههما وأكفهما من عديد اللّثمات والمصافحات . وصاحت فاطمة أغثنا بقطرة من الماء ، فقد أخذ منا العناء !

استيقظ الحلاوى مما كان فيه ، وخرج مهرولا فى طلب الماء . ومن حسن حظه أنه صادف أحد السقائين المنبثين حول الجامع وداخله بالقرب من باب المقصورة ، فتناول منه قدحا مملوء ، وعاد به إلى الظّمأيْنِ ، ثم تركهما وانصرف على أن يعود بعد قليل .

الفصل الثامن والثلاثون

الرِّيبَة

كانت زيارة الحلاوى مبعث شىء من القلق والاضطراب للشيخ لم يعبدَّ[١] أن اختفى كأن لم يَغْنَ[٢] . إذ اعتبر السبع لقاء قِرْنه القديم من مواليد المصادفات ، ولم يَشَمَّ منه ريح خطر يتهدده ، أو يتوقع منه أذى متعمداً ، ودافع ماتسرَّب إليه من سوء الظن بما عُهِد فيه من الشجاعة ومعالجة الشدائد بالتروى وعدم الاكتراث ، وأخذ يناجى نفسه قائلا : إن الأمر لم يخرج عن كونه محض اتفاق ، وليس بعجيب مطلقاً أن تسوق المقادير هذا الرجل إلى حجرتى بعد أن فرقت يد النَّوَى بيننا تلك السنين الطوال ، وإنما العجيب أن أتشاءم من طلعته ، أو أستشعر خطراً من زوْرته . إنه سعى إلىَّ طائعا متشوقا ليوفى دينا لى قِبَلَ زوجته كما قال ، وما أحسب أنه عرفنى على تنكرى المُضِلّ ، وفعل السنين الخوالى فى . فلِمَ أتهمه بتبييت السوء لى وليس له عندى على ما أعتقد ذَحَلَ[٣] ؟ نعم إن شيئا من التنافس كان بيننا يوم كنا نطلب العلم ونتنازع لواء الزَّعامة ، ولكن ذلك زال بالتصافح والتفاهم ، وما إخاله الآن إلا قد دَرَجَ فى أثناء النسيان ، وطوته يد الحِدثان .

---

(١) لم يلبث (٢) يكن (٣) ثأر

هذا ما كان يجول بضمير السبع عقب زيارة زميله ، وهذا ما كان يحدث به نفسه . لم يرد أن ينقاد للأوهام ، أو يقاوم وليس ثَمَّ اصطدام

خرج من هذه المناجاة النفسية هادئ السَّرب ، وحسنَ الظنِّ بالحلاوى ، ولكن سرعان ما انتَجَلَ له [1] خطأ استنباطه وسرعة انخداعه وسرعان ما تحقق أن شركا يُنصب له فى الخفاء ، ويداً باطشة تمتد لغوله

أتى الحلاوى وحده فى اليوم العاشر من زيارته الأولى ففرَّخ [2] السبع حقًا لمرآه ، إذ لم يكن يدور بخلده أن خصمه لا يزال تحت سماء طنطا وأنه منه فُقْرَة [3] ، ولكنه تجلَّد كعادته ، ولم يظهر للسهم الذى أصاب فؤاده أثرٌ ما فى حركته أو معارف وجهه . نظر إلى زائره ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة متكلفة ، ثم قال فى هدوء : تفضل أيها السيد وأخبرنا بما تريد .

جلس الحلاوى أمامه وعلى مقربة منه وقال : لقد حظيت بشرف المثول بين يدىْ سيدى مرة قبل هذه ، وحلَّت بى بركاته

فقال السبع متجاهلا : إن كثيرين يأتون لزيارتى ، ويستفسرون عن أشياء تهمهم ، فيوفقنى العليم لما فيه رضاهم ، ثم ينصرفون . ولا أذكر من ملامح وجوههم أكثر مما أذكر من ملامح وجهك

فنظر الحلاوى اليه نظرة المنكر لما يسمع ، وهزّ رأسه عدة هزات ثم قال : إنى جئت لأتيمّن ببركة الشيخ قبل سفرى ، ولألتمس منه حِرْزًا يقى

---

(١) ظهر (٢) فزع (٣) قريب

زوجى شر الأرواح الخبيثة وحسد الحاسدين . فضرب الشيخ يده إلى صدره فأخرج منه تميمة ، وناولها إياه قائلا : احمل هذا الحرز البَرِيك [١] إلى زوجتك ، و إنى أوصيك أن تحتفظ كل الاحتفاظ بتلك الزوجة التَّعِسة وأن تريها من عطفك مايُنسيها مصائبها الغابرة

فقال الحلاوى : حقاً إن الدهر قسا عليها وعلى أمها القسوة كلها و إن اللصوص فجعوها فى عائلها وفى ثروتهما ، وأفلتوا من يد القضاء الإنسانى ولكن هل يفلتون من يد القضاء الإلهى ؟ إن الله يُمْدى للظالم ، ولكنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر . وهل يُكبُّ الناسَ على مناخرهم في جهنم يوم القيامة إلا حصائدُ [٢] أعمالهم ، وما ارتكبوا من آثام ؟ فليجْنِ كل سفاح ثمرة ما قدمت يداه إن عاجلا و إن آجلا !

ثم ضرب فخذه بيمناه ، وجَهَّمَ [٣] وجه السبع بعينيه تجهيما . فسرتْ فى جسم السامع قُشَعريرة غريبة لم يجرِّبها قط فى حياته ، ونفذت كلمات الحلاوى إلى قلبه نفوذ الإبر فى الجسم الحساس ، وساء ظنه بمجالسه ، فنارت ثائرتُه [٤] ، وسوَّلت له نفسه أن يأخذ بعنقه ، فيعتصر الحياة منه اعتصاراً ، و يتملَّص من عدو لدود وخصم عنيد ، ثم ليحدثْ بعد ذلك ما يحدث !

ولكنه دفع طائر حلمه المُرْنِق [٥] إلى وَكْره وقال متوانيا : لِيُفْرِخ

---

(١) المبارك فيه (٢) نتائج (٣) أحد النظر فيه (٤) ثارت عداوته (٥) أرنق : رفرف ولم يطر

رَوْعك[١] أيها الشيخ ، فكل ما يجرى فى هذا الكون الشاسع إنما يجرى بقضاء الله وقدره . وكم من نعمة كبيرة بين طيات كريهة . . . ثم صمت ومال الحلاوى إلى كلا كميه المتدلّيين فقبلهما قبلات عدة وطويلة ظاهراً وباطناً ، ثم سأله الرضا ، وهمّ بالانصراف . غير أنه لم يطأ عتبة الباب حتى سمع الشيخ يقول : أحْسِنْ ظنك بالناس أيها الضيف ، فكم من ظنين[٢] وهو برىء ، وكم من مشروع ظاهر الحسن وهو وبىء ؟ وكم من كيد يُرَد إلى نحور الكائدين ، وكم من سهم يصيب صدور الرائشين[٣] ! ولقد أعجمت[٤] قولى فليفهم الفطنون ، وليروِّ العَجلون !

فوَجَمَ الحلاوى لحظة ، وقد غمرته موجة ذهول خفيفة ، ثم دار على عقبه ، وانفتل إلى الطريق العام ، مقهقها ومردِّدا : وكم من ظنين وهو برىء !

ولو نظر وراءه لرأى شيخاً مسناً يتأثّر[٥] خُطاه ، ويستشفّ نواياه

---

(١) ليذهب فزعك (٢) متهم (٣) ملزق الريش على السهام
(٤) لم افصح (٥) يتتبع أثره

الفصل التاسع والثلاثون

التبليغ

حجرةٌ صغيرة أقيمت فوق سَطْح النُّزُل السّارب [١] فى السماء قُبال حجرة تماثلها تحوى سريرا حديديا أخضر أخذت من طلائه الأيام ، ومقعداً خشبيا تعلوه حشيّة بارزة الأرجاب [٢] ، وكرسيّين من الخشب كدّهما النّزلاء ، حتى صارت أرجلهما على غير استواء ، وقلة من الفَخّار طار عنها غطاؤها ، وزوجين من القباقيب استمدّا من سنابك الخيل صوتهما ، وتَنَقّلا من حجرة إلى أخرى حتى رسا بهما الطواف على مستقرهما الحالى .

هذه صورة الغرفة التى استأجرها الحلاوى بالنُّزل الأحمدى أمام جامع السيد البدوى ، وتلك كانت محتوياتها .

جلس ربّ تلك الحجرة على كرسى وراء الباب المُغْلَق غارقاً فى بحار التأمل ، وجلست بجواره على المقعد حمانه تخيط لباساً ، وجلست على طرف السرير زوجته تهزّ رجليها .

« ماذا دهاك أخيراً ياسيدى حتى صرت ظاهر القلق ، شارد الفكر على غير عادتك ؟ أأنت مريض أم ماذا حدث » ؟ صاحت فاطمة وقد عيل صبرُها من طول الصمت

---

(١) الذاهب (٢) الأمعاء.

ثم قفزت من السرير ، ووقفت بجانب زوجها تداعبه ، وعلى وجهها ابتسامة حُلوة . ثم صاحت : إني أعلم سرّ ذهولك ياسيدى ، إنك قد اشتقت إلى ولدك العزيز . فأنت تفكر فيه ، وتودّ لو تطير إليه ، أليس الأمر كذلك ؟

فنظر إليها الزوج نظرة ملؤها الحنان وقال : إني لا أنكر حنيني إلى « عبد الواحد » ولدى ، ولكن ليس هذا عِلّةَ تغييرى ، وداعية قلقى .

فصاحت فى وجهه : وما عسى أن يكون السبب إذن ؟

فأطرق برهة ثم نظر إلى محيَّاها الوَضِيء ، ثم إلي محيًّا حماته المتجعِّد ، ثم صعَّد زفرة طويلة وقال : ادْنُوَا منى إذن ، وأصغيا إلى كل كلمة أقولها ، فإن ما سأقصه عليكما من المُعْقِرات [1] العجيبة !

ففعلتا كما أراد ، وأنشأ هو يتحدث فى تؤدة ، وعن شعور عميق قائلا :

أتينا إلى هذا البلد مختارين لنرفّه عن أنفسنا ، ونوفى نذراً أخذناه على عاتقنا ، أتينا لنكرم عالما ، ونتبرّك بولىّ ، مسوقين بحسن النية ، مجرّدين عن كل هوًى شائن . . . فهمّت فاطمة بمقاطعته لأنها لم تفهم مايقول ولكنه أشار إليها بالسكوت ففعلت ، واستمر هو يقول : وكان ما أردنا ، فأطلَقْنا أنفسنا من رقّ النذر ، ورفعنا آيات الشكر والإجلال ، واستنزلنا البركات الطاهرة . أليس كذلك ؟ فقالت المصغيتان بصوت واحد : بلى .

---

(١) المدهشات

فابتسم ابتسامة ملؤها الازدراء ، ثم قال بصوت المتهكّم : ولكن ألا تدريان من كنا نكرّم ، ولمن كنا نتذلّل؟ . . . . ولم يترك لهما وقتاً للإجابة ، بل صاح بكل مافيه من قوة : إنا كنا نكرّم لصاً كبيراً ونتذلّل لسفّاك جَريم ! !

فشَهَقَتْ المرأتان شَهْقَةً كادت تقطع نِياطَ قلبهما ، ولبثنا لحظة فاغرتى الفم ، بارقتىْ البصر ، ثم صاحت الكبرى : لاعجب ! فلقد حدثنى قلبى منذ النظرة الأولى بأن ذلك « الشيخ الصالح » من أكبر الطالحين ، وأنه دعىٌّ بين الأولياء ، وما راقتنى سَحْنته ، ولا خدعتنى شهرته وإلا . . . . فقاطعتها فاطمة : لاتَعْجَلى يا أمى بالحكم ، ولا تقسى على الرجل قبل سماع قصته ، ثم توجهت نحو زوجها صائحة فى شىء من الغضب :

إن ماتقوله لشبيه بالمستحيل ، إن لم يكن المستحيل ذاته . وإنى لا أسمح لعالم مثلك أن يَنحَتَ أثْلَةَ رجل[1] عدّه الناس من صفوة الأتقياء واعترفوا بأنه من كبار الملهَمين العلماء ، وكان جُلّ حياته مصدر الخير وهادى الضال ، وآسى المكلوم . ولطالما رفعتَ عَقيرَتك[2] بوجوب ترك الغِيبة والوقيعة ، فكيف استبحت لنفسك ماحرّمت على غيرك ؟

فهمّت أمها بمحاجّتها ، ولكن الحلاوى نصح لهما بالإقلاع عن المحاجّة حتى يتم حديثه ، وأخذ يقول : إنى مُعْجَب يافاطمة بتذمّمك من البتّ فى الأشياء قبل استثباتك منها وعقلك إياها ، وإن غَضْبَتك كانت

---

(١) يعيبه وينقصه (٢) صوتك

تكون على حق ، لو أنى اغتبت الرجل حقا ، وكنت عليه متجرماً [١] أما وإني أسرد حقيقة واقعة مؤيدة بالبراهين مدعمة بالتجارب فلا داعي للغضب أو التسرع . وما عليك إلا أن تصغى قليلا حتى أتم كلامى ، وبعد ذلك لك حكمك كما لأمك حكمها .

صمتت الزوجة . واستمر هو يقول : إن ماضيّ مرتبط بماضى ذلك الرجل الذى يسمى نفسه « بالشيخ الصالح » الآن — وعلم الله أن ليس له من الصلاح نصيب — والذى عرفته فى الأيام الخالية باسم أحد الوحوش الضارية . . . أعنى السبع . وليس المقام مقام وصف حياته معى فى الأزهر أكثر من تسع سنين ، وإنما يكفى أن ننعتها بأنها كانت حياة مشاغب ثائر « وفتوة » جرىء . ولا أخزن [٢] أنى كنت هدفاً لدسائسه المتعددة وأني لم أسلم من أذاه بل هددت بالقتل من بعض أشياعه . وإذا كان المرء أن يحكم على مستقبل الشخص بماضيه وحاضره فقد حكمنا على السبع حينئذ حكما قاسياً ، وتوقعنا له حياة ملأى بالمنازعات والدسائس . وقد صدقت نبوءتنا فيه ، فقد سمعنا عنه من بعض أهل بلده المجاورين فى ذلك الوقت ما كانت تدفعه أحلامنا ، ولا تصدقه آذاننا .

دارت الأيام دورتها وإذا بنا نسمع عن جرائم مروعة وحوادث جريئة تقع بين فترة وأخرى فى منطقة ميت غمر خاصة وما جاورها عامة ، وإذا بسكان تلك البقاع أمام عصابات منتظمة من الأشقياء وأسراب

(١) مدعيا عليه ذنبا لم يفعله (٢) أكتم

من الوحوش الكاسرة . وما أحسب إلا أن صاحبنا كان أحد قوادها ورءوسها المصرَّفة

فصاحت فاطمة : ان النتائج لاتُبْنَى على مجرد الظن

فأجابها بايتسامة وديعة : كان ذلك حَدْسا كما تقولين ، ولكن لم يلبث أن صَرَّحَ الشكُّ عن اليقين [1] فلقد تطايرت الأنباء فى طول البلاد وعرضها عُقَيْبَ مجيئى إلى ميت غمر ، واصفة اهتداء رجال الأمن إلى كشف أكبر عصابة فوق أديم مصر ، و إلى القبض على كثير من أفرادها ، وكيف فرَّ رئيسها ولم يُعْلم له أمر . طُورِدَ هذا الرئيس الفارّ كما طورد غيره ممن حامت حولهم الشبهات ، ونشرت أوصافه الخلقية ، وأعلن اسمه ، بل خصص جزء كبير من المال لمن يأتى بحامل ذلك الاسم حيّا أوميتاً .

فقاطعته فاطمة : إنك إذن وراء هذا المال ، ومن جُلِّ هذا المال تحاول أن تدفع برجل سليم الطَّيَّة جمّ الصنائع فى قرار جهنم

فقال : لا تسيئى الظن بى إلى هذا الحد يا عزيزتى ، فلست بمتحامل عليه مطلقاً . ثم استمر فى حديثه : مما نُشر ولا كتمه الألسنة عرفت أن رئيس العصابة الآبق هو زميلى القديم ، ومنافسى العتيد . فعجبت كل العجب ، ولكن لم يطرأ على بالى أنى سألتقى به يوماً ما بل غلب على ظنى أنه قَضَى [2] ، وهنا يمكنكما أن تتصورا مبلغ دهشتى وذهولى حينما وقعت عيناى على ذلك السَّفاح وقد تنكَّر تعمية وتضليلا ، واجترأ على مقام المطهَّرين

(١) انكشف (٢) مات

نصباً واحتيالا . عرفته لأول نظرة ، وليس من شك فى أنه عرفنى جيد المعرفة ، وإن لم ينمّ على ذلك مظهره ، ولم أشأ أن أفجأه بخبر كشفى له ، ولا أفجعه فى أحلامه اللذيذة ، حتى آخذ للأمر عدّته . أمْلَيْتُ له قليلا ، وأنشأت أرقُب حركاته وسكناته عن كَثَب وأتسمّع كل ما يقال عنه من عدو وصديق ، وأصغيت الى علمه المهوش ، حتى ازددت يقينا بأنه هو السبع المطارد . ولم أرد أن أكشف سره لأولى الأمر حتى أتثبت بنفسى من نقطة واحدة ، وللوصول إلى ذلك كان لا بدّ لى من زَوْرة ثانية للشيخ الصالح ، وتمّت هذه الزيارة أمس صباحا ، وخرجت منها مرتاح الضمير كامل اليقين .

وهنا وقفت فاطمة فجأة ، وهمست : يخيل إلى أنى سمعت وقع أقدام بالقرب من بابنا . . . .

فأصغى الكل برهة ، ثم نهض الحملاوى ففتح الباب ، وأطلّ منه على السطح ، ولكنه لم يسمع غير صفير الرياح يدوى فى سماء طنطا ، ولم يميز غير ضوء ضعيف منبعث من عقب باب الحجرة المقابلة المغلق .

ثم دخل وأغلق الباب قائلا : لا شىء مطلقا . وما استوى فى كرسيه حتى سألته زوجته : وهل لك أن تخبرنى عن دواعى زورتك ؟ فأجابها : لقد ذكرت حين كنت أفكر فى أطوار هذا الشيخ الغريبة ، وأحواله الفريدة ، أنى رأيت فيما مضى على مِعصَمِ يده اليسرى وشما يحكى سِنَّوْراً[1]

(١) هرا

كاشراً عن أنيابه ، وأنى رأيت فُوَيْق ذلك السّنور لفظ « السبع » مكتوبا بجلاء . ولا أكتمكما ما نالنى من السرورحين وُفّقت لهذه الذكرى القيمة

فقالت الأم : وهل رأيت هذا الوشم الغريب حين زرته ثانية ؟ فقال نعم ، غير أن اللعين حاول على ما يظهر لى أن يزيل ذلك الأثر الناطق بحقيقته ، فتمكن من طمس اسمه بعض الشيء ، أما السنور فلا يزال كما رأيته منذ سنين

فصاحت السائلة : إنى موقنة الآن أن هذا الشيخ القَبَقَاب[1] إبليس من الأبالسة الضارّين ، وأنه يحب سوقه إلى المشنقة حالا . وإنى لا أشك بعد الذى سمعت ، وبعد الذى يوحى به قلبى ، فى أنه كان لهذا الشرير يدٌ فى مقتل زوجى العزيز وخادمى الأمين ! إن معارفه وحركاته ونَبرات صوته هى هى معارف ذلك اللص الجبار الذى فجعنا فى أعز الأشياء لدينا وحركاتُه ونبراتُه !

فصاحت فاطمة وقد نَبَشَتْ الذكرى الأليمة دفين أساها وأفاضت دموعها ، وإن لم تنل من عقلها الصافى ، أو تؤثر فى منطقها السليم — صاحت كيف تدّعين يا أمى ذلك ، وقد كان اللصوص مقنّعين ومتنكرين ؟ ليس من البِلِّ أن نتهم الأبرياء ، ولا من الوفاء أن يَجْحَدَ الإنسان أيادىَ الناس عليه . فصاحت أمها : ليس لهذا الرجل علىّ من يد ، وحسبه أنه كذب علىّ ، فات ولدى الأخير بعد قليل من مباركته الخادعة . فقال

(١) الكذاب

الزوج : إن هذا الولى الزُّعْمِىّ [١] ليس له فضل على إحداكما فما حدث فهو من عمل القدر ، شاء الله أن يقبض ولداً ، ويخلق ولداً ؛ فكانت له مشيئته جلّ وعلا . فقالت فاطمة : وماذا أنت صانع بهذا الشيخ الآن ؟ فقال فى هدوء : إنى لا أفعل غير ما يمليه علىّ واجبى فى مثل هذه الأحوال . رجل ماضيه ملوّث بالدماء ، وحاضره حافل بصنوف الخداع والرّياء ، الحكمة تقضى بإسلامه إلى يد القضاء ، حتى ينال جزاء ما اقترف من آثام ، وسبّب من آلام !! وهذا ما لجأت اليه اليوم ، فلقد وقفتُ رجال الضبط على جَلِيّة أمره ، وكشفت لهم اللثام عن حقيقة حاله ، إذ كان حقّا على أن أغيّر منكراً أراه ، وأقطع رأس الحارِيَة [٢] قبل أن تنفث سمومَها فى أجسام الناس . والآن وقد نفضتُ يدى ، وأرضيت ضميرى ، فليفعل القضاء واجبه ، وإنّ الغد لقريب !

وهنا سرتْ إلى مفاصل الباب رعشة قوية ، فدبّ الرعب فى قلوب الجميع ، وأسرع الحلاوى إلى السطح ، ولكنه لم ير شيئاً ، وأطل من قِمّة السلّم ولكن لم ير شيئاً أيضاً . فتراجع إلى حجرته مُنْكَفِئ [٣] اللون مطرِقَ الرأس ، ظاهرَ الارتياب ، ومازاد على أن قال : ما أظن ماحدث إلا من عمل الريح .

ساد الحجرة سكونٌ غريب بضع دقائق ، ثم سُمِعتْ فاطمة تخاطب

---

(١) الكذاب (٢) الأفعى (٣) متغير

زوجها بلهجة الجِدِّ : خير لنا أن ننكفَّ عن طنطا [1] على عَجَل فإنى ألمح شبحا يتهدَّد حياتَنا ، وأرى آية الشيخ المظلوم توشك أن تظهر فينا . وهو لايُعذل إذا مسّنا بشر ، بعد أن سلقته ألسنتنا ، وتَلاَنْناه بتِلَّةِ السَّوْء [2]

فضحك زوجها ضحكة متكلفة وقال : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، فهدئى روعك ، ولاتُسلمى نفسك المخاوف .

---

(١) نترلها (٢) رميناه بالقبيح

الفصل الأربعون

المخبآت

منذ زيارة الحلاوى غير المتوقّعة والسبع مشغول البال ، ظاهر الالتياع[١] ، يتوقع كشف سره من ساعة إلى أخرى ، ويتصور خاتمته وما لابدّ أن يلحق زوجتَه وأهلها من شقاء وعار على أثرها ، وهم الذين آوَوْه ، وقضَوْا مَذَمّتَه[٢] ، ومزجوه بلحمهم ودمهم

تخيل ابنه الصغير المحبوب شابًّا قد انزوَى عن لُمَاته وأترابه حياء وخجلا ، لا لذنب سوى أنه ابن مجرم فتّاك ، وولىّ أفّاك[٣]

« ليتنى لم أتزوج ، وليتنى لم أرزق ولداً » صاح النادم من أعماق قلب كليم ، وقد شعر بوخز الضمير لأول مرة فى حياته المفعمة بالحوادث الجُلّى . « ماذا جنت هذه الزوجة الطاهرة حتى ألطّخ سمعتها باسمى ؟ وأىّ جرم اجترمه ذلك الطفل حتى أدفع به فى ذلك العالم الذى لايرحم ، والذى يأبى إلا أن يَزِر الابنُ وِزْرَ أبيه[٤] ، ويُؤخذ الأخ بجريرة أخيه ؟ إن العالم أعمى لايقدر الظروف ، ولا يراعى الأحوال ! » .

تلك كانت مناجاته التي كشفت لنا ناحية من نواحى نفسه المعذّبة

---

(١) الاحتراق من الهم (٢) أحسنوا إليه حتى لا يذموا
(٣) كذاب (٤) يحمل الابن إثم أبيه

وأبرزت عاطفة من عواطفه ، والآباء آباء فى كل جيل وزمان ، يشغلهم النّسل وراحته ، ويحتويهم حبُّه ، وتهمهم سعادته ، لافرق بين مليك وصُعلوك ، وسجين وطليق ، ومهتدٍ وضالّ .

ولننظر الآن إلى ناحية أخرى من نواحى ذلك الرجل المهدَّد . إنه شعر بالخطر يطوّقه تطويقاً ، وأيقن أن ساعة الحساب العسيرة تدنو منه وَشيكا [1] فهل يقف مكتوفَ اليدين حتى يشدَّ على رقبته الخناق ، وتسد أمامه أفواه النجاة ؟ لا . إنه لابدّ أن يعمل لخلاص نفسه بجد و بسرعة . وعلى من يعتمد فى تسيير سفينة الخلاص من مأزِقه ؟ على نفسه أولا ، ثم على تابعه ثانياً .

بدأ فى العمل ، فامتنع فجأة عن التدريس حتى لايعرّض نفسه لعيون تريد به سوءاً ، وامتنع عن رؤية الزائرين للسبب عينه ، معلّلا هذا وذاك بأن صحته تقضى عليه بلزوم الراحة قليلا . ولجأ إلى متعبّده فقضى معظم أوقاته فيه ، إمّا منفرداً و إما مع درويش العلايلى ، يرسُم الخطط فيه ، ويصدر منه الأوامر . وأطلق درويشاً فى إثر الحملاوي ليتبين نيّاته ، ويترسّم خطواته ، وزوّده بفنون الحيل ، وصنوف التنكر ، فقام بما عُهد إليه خير قيام ، وأظهر كفاية عظيمة فى ميْدان التجسس .

فكنت تراه فى مختلف الأزياء ومتغاير الأعمار ، متنقّلا بين مقرّ الحكومة ونُزُل الحملاوى والقهوات ، ناشراً أذنَه لكل ما يقال ، وقافياً

(١) سريعا

أثر عدوه قَفْوَ القدر بطرق شيطانية . ملكت هذه المهنة الجديدة كل حواسّة حتى نسى أنه هو مطارَد ، وأنه عرضة لأن يقع فى الفخّ قبل أن يوقع غيرَه فيه . ووافى رئيسَه بكل ماوصل إليه علمه أولا فأولا ، ولم يكن بين مايحمل من الأنباء شىء يسوء ، فلم تخرج عن أن الحلاوى لايزال فى طنطا ، وأنه نازل بالفندق الأحمدى مع زوجته وأمها ، وأنه هو نجح فى استمالة بعض رجال الشرطة إليه ، وأنه أقرض بعضهم بعض النقود ، وأنه تمكّن من استئجار حجرة بالفندق الأحمدى تُجَاهَ حجرة الحلاوى . واستمرت الأنباء على ذلك بضعة أيام حتى خيّل إلى السبع أنه كان مخطئاً فيما تصوّر ، وأن خَصمه لم يعرفه مطلقا .

ولكن فى صبيحة يوم مَقْطور [1] بينما كان بمعزله يقلّب بعض أدواته وينثر مختلف مخبّآته إذ سمع نقرتين خفيفتين على باب حجرته فأسرع فى رد الأشياء إلى محلها . ثم ذهب ففتح الباب ، و إذا به أمام درويش . دخل الطارق وأغلق الباب وراءه ، ثم عمد إلى كرسى صغير فى زاوية الحجرة فجلس عليه ، يعلوه عبوس الغاضبين ، وكآبة الحزين .

فلم يرتَبْ السبع فى أنه يحمل نبأ خطيراً ، وقال بهدوء : ماوراءك اليوم يادرويش ؟ فأجاب مطرقا : ورائى أخبار سيئة . إن العدو ألقى الشرك وينتظر القَنِيص [2] . ثم صاح بكل مافيه من عزم : ولكنه لن ينال أربَه

ابتسم السبع ابتسامة الذاهل وقال : وما معنى ذلك أيها الصديق ؟

---

(١) مطور (٢) الصيد

فقال إن الخبيث قد أنجى [١] كل سرك لأولى الأمر ، وأفضى اليهم بكل شيء ، وهو يتوقع القبض عليك ما بين آونة وأخرى ، وما عليك إلا أن تحتاط لنفسك قبل نفاذ السهم ، وأما أنا فأعرف كيف أنتقم من الخائنين النمامين . أقسم أنه لن يخرج من طنطا إلا محمولا على الأكتاف ، ولقد أقسمت وسترى أنى لن أحنث في يمينى !

ثم ضرب يده إلى جيبه فأخرج سكيناً طويلة ذات حدين ، ولوح بها فى فضاء الحجرة ، ثم قال فى حماسة : لقد اشتريتها فى هذا الصباح وسأسقيها اليوم من دمه النجس ! فنظر اليه السبع المُعْجَب ، ثم قال : لله أبوك يادرويش ! إن ماذقته من المُرَّنين [١] لم ينَلْ من شجاعتك القديمة وحماستك المعهودة ولكن خبرنى فى روية . ألا ترى أن انتهاج خطتك هذه قليل الجدوى ، إن لم يكن مجلبة الشر ؟ إنك إن قتلت ذلك الثعلب عرضت حياتك النفيسة للموت ، ولم تدفع عنا الخطر

فصاح درويش إنى ألوى [٢] الموت مع الانتقام من هذا النذل على الفرار بحياة سئمتها وسئمتنى . . . فقاطعه السبع قائلا : لقد شبعنا من رؤية الدماء ، وإنى غير ثَمِلٍ إلى سفح دماء أخرى [٣] ، مالم أضطر إلى ذلك اضطراراً ، فهدىء ثائرك وأصغ إلىَّ كل الإصغاء .

إنى قبل أن تجىء كنت أقلب وجوه الرأى ، وأرسم مايجب عمله

(١) كشف (٢) الشر والأمر العظيم (٣) أفضل

(٤) غير ميال إلى سفك الدماء

لو وقع الأسوأ ! فقرت عزيمتى على سلوك طريق واحد وهو التنكر والفرار . ولقد خدمتنا هذه الوسيلة فى الماضى والحاضر فلم لاتخدمُنا فى المستقبل؟ فلنعدّ العدة من الآن ، ولنرحل من هذا البلد قبل أن يُقرع ناقوس الخطر . وفى الأرض مَنأى واسع لمن يريد الحياة .

فلم يرُقْ هذا الاقتراح فى نظر درويش ، ولكنه جارى رئيسه ظاهراً واحتفظ لنفسه برأيه .

نهض السبع بعد هذه المحاورة القصيرة إلى صناديقه الثلاثة الصغيرة ففتحها ، ونثر مابها على أرض الحجرة ، فاذا أنواع مختلفة من الملابس وأغطية الرءوس وألوان من الأصباغ ، وإذا شعر وحواجب وشوارب صناعية ، وعيون زجاجية متباينة الحجم واللون ، وأحزمة جلدية ، وأخرى حريرية ، وغير ذلك من كل مايحتاج اليه المتنكرون ويدّرع به الخائفون . ثم عمد إلى حقيبة صغيرة فأخرج ما بها ، وإذا بأسلحة مختلفة ، من غدّارات وسواطير ، ومسدسات وسكاكين .

ثم مد يده إلى قِمَطْر بجوار الحائط فأخرج منه عدة زجاجات مملوءة بسوائل مختلفة ، وأكياس محشوّة بالرصاص .

وقصارى القول أن هذا المحراب المقدّس بدا مكمنا لأسلحة مختلفة تكفى بضعة أفراد للدفاع عن أنفسهم وقت الحاجة

تفقد السبع تلك المنثورات ، ثم التفت إلى رفيقه قائلا : أظن أن فى هذا القدر مَنفَذاً إلى النجاة . وكَفَى المرء أن يتخذ أهبته ، ويترك النتائج

للحظوظ . ثم دنا منه خطوة وقال : أىّ هذه الأسلحة يروق فى نظرك يا درويش ؟ فضحك المسئول وقال : أظن سيدى لم ينس أنى لا أجيد الرِّماية . فقال إنى لم أنس ذلك ، ولكنى أذكر أنك تجيد الطعن كل الإجادة . فقال هو ذاك ، ولكنى أرى أن أحتفظ بسلاحى الجديد . ثم أخرج سكينه مرة ثانيــة ، ورمقها بعينىْ خبير ، ثم قبّلها قائلا : لعلك لا تَغْدِرِين بى عند الدعوة للنزال ، وما أحسبه إلا قريباً .

ثم وضعها فى غِمدها ، وأرجعها إلى مقرّها من صدره ، ثم نهض و بسط كفه قائلا : خير لنا أن نتصافح ، فإن المرء لا يدرى ما يَخبَؤُه له القدر بين كل فينة وأخرى من هذا الوقت العصيب . ومن يدرى أنلتقى بعد ذلك ؟ فنظر الشيخ اليه نظرة العاطف ، ثم شدّ بكلتا يديه على يد محدّثه وقال : لا تظهر هكذا يا درويش بمظهر اليائس فإن الوقت لا يزال فيه فُسْحة ، ومصباح الأمل لا ينفكّ مضيئا . ثم وضع كفه على كاهل مخاطبه وقال : اعتقدْ أن ما سيحدث لا يفوق ما حدث ، لقد رأينا الموت معاً فيما مضى فى صورتى وأوضاع مختلفة ، فلمَ نرهَبُ مقابلته الآن ؟ ليأت على الرّحب والسعة ، ولكنْ ليعلمْ أنى قِرْنه القديم ، وأن دم السبع لا يسيل رخيصاً ، وأن الطعن منى سابق الآجال !!

فسرتْ حُمَيّا الحماسة في أعصاب درويش ، وذكر مواقف رئيسه الرهيبة ، وصاح معجَباً بتلك النفس الباسلة : إن مثلك لن تلده الأمهات ،

ولن يجود به الزمان ! ! ثم استأذن فى الانصراف ليتفقد الجو و يعود بعد قليل .

خرجَ درويش بين جوّين حالكين جو الطبيعة وجو النوّادى (١) الأخيرة ، وسار تحت بريق السماء ورعدها ، وفوق الأوحال ، حتى وصل إلى جامع السيد ، فعرّج على مغطسه فمكث فيه قليلا ، ثم خرج بشكل غير شكله وزي غير زيّه . دخله فى أخلاق الشحاذ المدّى (٢) ، و برز منه فى لباس القروىّ المعتدل القامة

و بينما هو يعبر الطريق إلى النزل الأحمدى إذ صادفه صديقه العسكرى . حياه ذلك العسكرى تحية الصديق ، ومدّ يده إلى صدره فأخرج منه بعض نقود ، ودفع بها اليه قائلا : هاهو ذا دينك مقرونا بالشكر

فأبى الملابلى أن يأخذها قائلا : لاحاجة بى إليها الآن ، فاحتفظ بها حتى أسألك . فتهلل وجه العسكرى فرحا وقال : إذا كان الامر كذلك فإنى سأردها اليك فى أول الشهر ، ثم صافحه وانصرف شاكراً .

---

(١) الحوادث (٢) المسن

الفصل الحادى والاربعون

الساعة الرهيبة

كانت عفيفةُ صادق زوجةُ السبع من النساء القانتات الطاهرات القلب أخلصت لزوجها كل الإخلاص ، وأحبّته محبة الزوجة التي ترى فى زوجها مثال الكمال وتبادل العاطفة

وكان لايُضْجرها أن تراه يقضى الساعات الطويلة بمعزل عنها ، لاعتقادها أن الرجل خُلق للجميع لالها فقط ، وأن للناس نصيباً من عنايته وحَدَبه كما أن لله قسطاً من عبادته وتَبَتّله .

وكان طفلها المحبوب صورةً مصغّرة من صورة أبيه ، تجد فيه سلوتها إذا طالت غيبة زوجها . وما ظهر عليها يوماً ما علامة تذمّر أوندم ، أو بدت منها نحو زوجها بادرةُ غضب ، بل عاشت فى ظل الرضا هادئة النفس سعيدتها . وأكْبَرَ زوجُها منها هـذه التضحية الملموسة ، وتلك القناعة النادرة ، ولم يكتُمها حبّه لها ، بل أظهره فى عدة مواطن

دخل عليها وهى تخيط جَوْرَبا له ، وولدها أمامها يَعَضّ كرة الخيط . فقابلته كعادتها بوجه طلق وثغر باسم ، وقالت : لعلّك تشعر بتمام الراحة والعافية الآن ؟ فقال : حمداً لله على نعمه ، ثم مال إلى ابنه فحمله بين يديه ومَسَحَ وجهه تقبيلا ، زافراً عدّة زفرات ، ثم وضعه فى حِجْر أمه ،

وصاح بصوت ينم عن حرقة غالبة : أستودعكَ الله ياولدى !

وما طرقت هذه الجملة سمعَ زوجته المشغولة حتى سقط الجورب من يدها . وحملقت فى وجه زوجها ، فراعها دَمعات غزيرة تنحدر من مقلتيه وصاحت فى ألم : ماذا جرى ياعزيزى ؟ فقال : لا شىء . فقالت لاشىء وأنت بهذه الحالة التى لم أعهدها فيك منذ عرفتك ؟ فصمت ولم يجب . ثم جفّف دموعه ، وقال بصوت فاتر : اسمعى ياعفيفة !

فقالت : كلّى سمع . فانفض إلىّ حالك ، علّى أستطيع أن أفرّج همك ! فقال متأثراً : إن أموراً خطيرة قد تحدث ، وتضطرنى إلى مغادرة طنطا . . . بضعة أسابيع . . . فاتسعت حدقتا عينيها شأن الذاهل ، وقالت أمور خطيرة ؟

فقال نعم . و إنى لم أرد بإخبارك إلا أعداد نفسك لتحمل ماقد يكون فإنى أعرف أنك لا تقوَين على الصدمة الفجائية . فقالت : وهل هناك مفاجأة أشدّ من هذه المفاجأة التى تكاشفنى بها الآن ؟

فصمت مفكراً ، ثم قال : اصفحى عنى ياعفيفة ! فلقد أسأتُ إليك من حيث لاتدرين ، وسُقت إليك شقاء لاتستحقين ، وكتمتك أموراً كان يجب أن تُلِمّى بها قبل أن تهبينى يدك . ولكن . . هكذا قُدّر فكان ! وما كان يدور بخلدى أنى سألجأ يوما إلى وقوفى مثل هذا الموقف المُغْنى والمزْرى معا ! !

فكادت الزوجة تَصْعَقُ مما سمعت ، وصاحت : إنى لاأفهم ماتقول ،

ولا أتذكر أنك أسأت إليّ قط ، فأرجوك الإفصاح

فقال متأثراً : إنك ترجين الإفصاح ؟ فهاك إذن الحقيقةَ مُرَّة غير سائغة ، ولتصبّى اللعنات فوق رأسى بعد ذلك صبا ، ولتبرئى منى براءة الطاهر التقىّ ، من النّجس الشقىّ ! !

فجاشت المسكينة إليه ، وصاحت والدموع تنهمل من مآقيها : آه ! ! إنك تمزق أحشائى بكلامك هذا ! وتضع نفسك فى منزلة لا أرضاها لك مطلقا ! ! فقال لا : يا عفيفة ، إنى دون ماتتصوّرين بمراحل ، إن ماضىّ أسـ

فصاحت : لا يهمنى ماضيك ، ولا يغيّر من اعتقادى فيك . فقال : إن بى من السّوْءات ما يجعلنى غير أهل لزوجة طاهرة مثلك . فقالت إنك أهل لخير منى .

فبلغ منه ذلك الإخلاص والإكبار ، وشعر بالألفاظ تقتتل فى فيه اقتتالا ، فصاح فى نفس واحد : إنى مدّع محتالٌ مطاردٌ لِصٌ فتّاك سَفَّاح أثيم ! ! !

فناءت المسكينة تحت هذه الصدمة القوية ، وشعرت كأن سكيناً حادة تمزق أحشاءها تمزيقاً . ولبثت برهة زائغةَ البصر شاردةَ الفكر ، ثم ارتمت على صدر زوجها ، وطوّقت عنقه بذراعيها صائحة : إن ذلك مستحيل ! إن ذلك مستحيل !

فتركها على حالها برهة ثم دفعها برفق ، وأخذ رأسها بين يديه ،

قائلا : ألم أقل لك إن الحقيقة مرة ؟ فقالت إن ما تقوله بعيد عن الصواب . فقال بل هو عين الصواب . فقالت لا . لا .

ثم تعلقت بعنقه مرة أخرى ، وأخذت تجذبه وتدفعه بين ذراعيها صائحة : قل إن ذلك غير صحيح ! قل إن ذلك غير صحيح !

أدرك السبع أنها فى حالة تهيج شديد ، وأن الكلام معها ربما أدى إلى مالا تُحْمَدُ عقباه ، فلزم الصمت وأخذ يَلْوى عليها (١) . وما زال بها حتى سكن ثائرُها بعض السكون .

وحينئذ وضع يديها بين كفيه ، ونظر فى عينيها نظرة لم تر مثلها فى حياتها ، وقال فى هدوء : لقد كشفتُ لك أمرى ، فهل تصفحين عن غِشّى لك ، وتَنْسَيْن معى ذلك الماضى الملطخ بالدماء ؟

فقالت : أما الصفح فليس فى مقدورى ، لا لأنى ضنينة به ، بل لأنك لم تُجْرم فى نظرى فتستحقه ، وأما الماضى فلا عهد لى به . وخير لك أنت أن تسدل عليه ستاراً ، وألا تنبشه من قبره إن كان لا يبسُطُك

فقال : إذن أنت تقبلينى على علاّتى ؟ فأنعَمَتْ . فقال : حسن . والآن لم يبق إلا أن تعرفى ما اعتزمت عليه

ثم أخفت من صوته وأطرق قائلا : إن رجال الحكومة قد كشفوا مخبئى ، وعرفوا فىّ اللص الهارب ، وإنهم جادّون فى إثرى . ولا يدرى إلا الله متى ينقضّون على فريستهم ، ولكنى على يقين أن الشرَك قد نُصب ،

(١) يعطف

وأن ساعة الهجوم قريبة . ولذا فقد صممت أن أفر متنكراً مساء اليوم . فإن رافقنى الجدُّ أقمت فى بقعة ما ، ثم بعثت إليك سرًّا فى الفرصة الملائمة، وحينئذ يمكننا أن نعيش عيشة هادئة بعيدين عن مباعث الريب . وإن لم تُتَحْ لى النجاة فأرجوك أن تلتزمى الصبر وتجتهدى فى نسيانى ، وتعفى عما سببت لك من عار . . . .

وهنا شعر بيديها تأخذان فى البرودة ، وقبل أن ينظر إلى وجهها هَوَتْ بولدها تحت قدميه ، كمن فارقت الحياة . . .

***

هبَّ الشيخ من مقعده وَهِلاً مذعوراً ، واحتمل الطفل وقد استيقظ من نومه صارخا على أثر السقطة ، ووضعه على السرير ، ثم أسرع فاحتمل زوجته إلى الأريكة ، وأخذ يفرك أطرافها ، ويُسعفها ببعض المنعشات حتى أفاقت من صَعقتها

وبينما هو يلاطفها إذ سمع طرقا على باب الغرفة ، فقام ليرى من الطارق وإذا صادق بك ماثل ، وبيده ورقة صغيرة يعبث بها . ففسح فى الطريق ليدخل ، ولكنه لم يفعل بل قال : إنى لم أظن أنك هنا وقد كنت آتياً لأخبر عفيفة بأنى ذاهب إلى « البندر » لأن المأمور بعث فى طلبى . وضحك قائلا : إنى لا أحسبه إلا مريداً تسخيرى فى توزيع أوراق دعوة من الحفلات كعادته

فخفق قلب السبع خفقةً شديدة ، وقال متكلفا الابتسام : أظن

أنه يريدك لغرض أهم من هذا وإلا ما بعث إليك فى مثل هذا اليوم الكثير الوَحَل . فقال محدّثه من يدرى ؟ ثم هرول نحو السلم .

أما السبع فوَجَمَ فى مكانه وُجُومَ الذاهل ، ثم انكفأ إلى الحجرة صائحاً فى نفسه : ترى ماذا يضمر هذا اليوم المكفهرّ فى جوفه ! ! ؟

ولم يكَدْ يستقر فى مكانه حتى سمع طرقا خفيفا آخر على الباب فصاح من الطارق ؟ فقال سليمان إن حسنا (يقصد دروبشاً) يُلِحُّ فى طلب سيدى الشيخ . فقال وقد هاله هذا الطلب : أخبره أنى ملاقيه بعد قليل

ثم شعر بخطر التريّث مع زوجته ، وأن كل دقيقة تمر لا يمكن تعويضها ، فمال نحوها فقبلها ، ثم قال تشجعى ياعزيزتى ، وتذكرى كل ما قلته لك وارعَىْ ولدنا بكل ما فيك من حب وعناية !

ثم دفع إليها بصرّة نقود ، وقال خذى هذه ، واستعينى بها على قضاء حاجتك . . . . . حتى نلتقى . . . .

ثم سار إلى السرير فاحتمل الطفل بين يديه ، ثم ضمّه إلى صدره وغمر وجه بالقُبلات ، ثم ردّه إلى صدر أمه وعينه تَكِفُ [1] ، وقلبه يَجِف [2] .

وما وضع يده على أُكْرَة الباب حتى نهضت عفيفة صائحة : خذنى معك لأشاطرك الخطر ، وأقاسمك الهموم ...

فنظر اليها والأسى يُحرِقه ، وسيل الكرب يجرُفه ، وقال : عهدى

---

(١) تقطر (٢) يضطرب

بك ياعفيفة جَلْدَةَ عاقلة ، فلِمَ تُضَعْضِعين اعتقادى فيك ؟ إن فى بقائك هنا راحة لضميرى ، وسلامة لحياتى وحياة ولدنا ، فاستريحى ولا تقنطى فاللقاء قريب . . . . ثم غادرها بين التياع لاذع ، ويأس قاطع ، وأزواق مُسْبِلَةٍ [١] ، وأوْفَضَ إلى متعبَّده [٢]

دخل السبع الحجرة وقد هارَ النهارُ [٣] ، وطَفَلَتْ [٤] الشمس للغروب وتبعه درويش ينْغُضُ أنفَهُ [٥] غضباً . وما استقرا فى مكانهما حتى صاح التابع فى غضب : لقد فرَّ الجبان !

فقال السبع ومن تعنى بالجبان يا صاحبى ؟ فقال إن الحلاوي أغْدرَ [٦] نُزُلَه صباح اليوم ، ولا يوجد له أثرٌ ما فى طنطا ، ولا أحسبه إلا شعر بخطر غلطته فآثر الهروب .

فقال السبع : وماذا يهمّ وجود الرجل أو غَيْبَتَه بعد أن انصَرَحَ [٧] أمرُنا ، وعَلَنَ [٨] سِرُّنا ؟ إنه شفى غليله ، وانتقم من خصمه القديم ، فلم تنتظر منه رَيْثاً ؟

فعضّ درويش شفته السفلى حتى كادت تَدْمَى ثم قال : لقد غادرتك صباحا على أن أغمد سكينى فى قلبه ، ولكن كان أمرى دِبَارا

فقال السبع مبتسما : إذا كنت لا تزال على نيتك فالأمر لم يفُلتك

---

(١) دموع سائلة (٢) أسرع (٣) ذهب أكثره (٤) دنت للغروب (٥) يحرك (٦) ترك (٧) بان (٨) ظهر

فقال : وماذا تعنى ياسيدى ؟ فنظر فى وجهه وقال : أعنى أن العدو لم يبرح ساحة القتال ، وأنه تقهقر ليظهر ثانية

فقال درويش متعجباً : أهذا هو اعتقادك ؟ فقال هذا هو اعتقادى وكيف تنتظر من رجل يضع الأغلال فى يديك ورجليك ، ويقودك إلى المشنقة ، ثم يضع الحبل فى عنقك — أقول كيف تنتظر من مثل هذا الرجل أن يترك المشهد الأخير ، وهو ألذ المشاهد وأروعها ، دون أن يمتع بصره بمرآه ، ويرى ثمار حيلته ومسعاه ؟

والآن دعنا من هذا الرجل فَلَأُطْمَئِنَّ في حَوْصه (١) إذا رُوخِيَ فى أجلى ، وأَخْبرنا عما جدّ فى مسألتنا

فقال : لم يجدّ شيء غير أني علمت علم اليقين أن الهجمة لا تكون إلا بعد أن تُسْفر مراقبتك عن نتيجة حاسمة

فقال السبع : إن صادقا بك خرج قبل مجيئك ، فهل رأيته فى الطريق ؟ فقال نعم وإنى أعلم أنه يقصِد « البندر » تلبيةً لطلب المأمور . فقال له وكيف عرفت ذلك ؟ فضحك وقال هذا سر من أسرار مهنتى الجديده لا أبيعه لأحد . فضحك السبع أيضاً وقال احتفظ بأسرارك كما تشاء ، ولكن اعلم أن رجال الضبط رجال خُدعة لا يُؤْمن جانبهم ، ولا يُعْلَمُ متى يثبون . فخير لنا أن نُفْلت قبل أن يَرْتَطِم علينا الأمر ويَنْحَصّ الذَّنَب (٢) . وإنى سأكون على أهبة الرحيل بعد دقائق قليلة ، فاستعد

---

(١) لأكيدنه ولأجهدن فى هلاكه (٢) ينقطع والمراد قبل أن نهلك

أنت أيضاً : فقال إنى لا أحتاج إلى تغيير ، فلباس الشحاذ ينكّرنى تنكيرا .

أخذ السبع يغيّر من ملابسه ومعارفه بسرعة و بمهارة حتى بدا رجلا آخر ليس بينه و بين الأول وجه شبه اللهم إلا فى البِنَاء : رأسٌ حليقٌ يغطيه طربوش مغربىّ ذو ذيل متدلٍّ كثيف ، وجبين عريض أشجَ برز فيه حاجبان أوطفان (١) يُظِلّان عينين مكتحلتين ، وعارضان أغرِى بهما المُوسَى حتى اجتثَّ نبتهما ، وشاربان أسودان غليظان قد التوى طرفاهما فوق وجنتين مبسوطتين ، ولِحْية سوداء مخروطيّة الشكل على الطراز الفرنسى ، ومَنْكِبان عريضان قد طُرِح فوقهما شال صوفى أبيض ، وجسم متين العضلَ فى ثوب صوفى فَضْفَاض فى لون الرَّماد ، يعلوه عباءة صوفية سوداء ، وحذاء أحمر قد ارتفع طرفه الأمامى إلى العلاء

تلك هى الصورة التى اختارها السبع لنفسه . وقف بعد أن أتم كل شى ، أمام مرآة صغيرة معلّقة إلى الحائط يتفقّد نفسه ، و يُعْجَبُ بفنه ، ثم صاح : فقدتنى أمى ! إن هذا لفوق ما كنت أتصور ! ألا ترى معى يا درويش أنى خَلَقْتُ من نفسى شخصا جديدا فى كل شىء ؟

فقال درويش : إن سيدى ماهر فى كل شىء ، فلماذا لا يكون ماهراً فى ميدان التنكّر أيضاً ؟

(١) غزيرا الشعر

الفصل الثانى والأربعون

انقضاض الصاعقة

فى الوقت الذى كان يتحدّث فيه المختليان كانت هذه المحاورة تجرى بين سليمان الخادم ورجل تلوح عليه مخايلُ النفوذ عند مدخل الحديقة :

هل هذا منزل صادق بك ؟ نعم . هل يسكن هنا الشيخ الصالح ؟ نعم يا سيدى . هل هو موجود الآن ؟ نعم هو موجود . اذهب اليه وأخبره أن شخصاً يحمل رسالة هامّة يريد مقابلته . إنى لا أستطيع أن أفعل ذلك. ولماذا ؟ لأن سيدى الشيخ مريض منذ مدة ، وهو يأبى مقابلة أى شخص . ولكنى مضطر إلى مقابلته الآن .

فابتسم سليمان قائلا فى شىء من التعجب : الآن ؟ إن ذلك من رابع المستحيلات . إن سيدى الشيخ فى خلوته فى هذه الآونة ، ولا يستطيع امرؤ صغيراً كان أو كبيراً ، قريباً أو غريباً ، أن يقطع عليه صلواته المقدسة . وأين مكان خلوته ؟ فى الجهة القبلية من الطبقة الأرضية . و إنك لا ترال تأبى تبليغ الرسالة ؟ إنى أنفّذ أمر مولاى . فلأذهب أنا إذن وأبلغها بنفسى.

وهمّ المستفهم بالسير نحو البناء ، ولكن سليمان اعترض طريقه ، وصاح فى غضب : إنى لن أدعك تتقدم خطوة أخرى ، ولن أسمح لك قط بإقلاق راحة الشيخ . . . .

غير أن الزائر بدل أن يتقهقر دفع سليمان بيده دفعة قوية تركته يتعثر فى ملابسه ، ومضى قُدُماً نحو غرضه .

وحينئذ ثار ثائر الخادم ، وأخذ يعدو وراء ذلك المتطفل ، ملوّحاً بقبضته فى الهواء . وما رَقِيَ الدرجة الأولى من السلم الخارجى حتى شعر بيد تجذبه من ملابسه إلى الخلف ، فقد توازنه ، وكاد يهوى على ظهره إلى الأرض ، لولا أن اليد القابضة حالت دون ذلك

نظر الخادم المأخوذ فاذا به أمام رجال من الشرطة مسلحين ببنادقهم وعصيهم القصيرة ، ففارقته حماسته ، وخانه صوته ، ووقف بين مفاجئيه موقف الطفل إذا قبض عليه مرتكبا جريمة ، ذاهلَ الفكر ، مرتعشَ الأوصال.

بينما كان هذا يجرى فى الحديقة الأمامية برز درويش من منجحره صائحاً : مَنْ هذا الوقح الذى تجرأ على الدنوّ من معبد الشيخ ، معكراً صفوَه ، وقاطعاً عليه عبادته ؟ فنظر اليه الضابط نظرة ذات معنى ، وقال فى حِلم : ومن أنتَ ؟ فقال : أنا خادم الشيخ الصالح . فصاح الضابط بصوت الآمر : يا عسكرى ! اقبض على هذا الرجل الوقح

فأسرع أحد العساكر لتنفيذ الأمر ، ولكن لم يكد يدنو من درويش حتى وقف جامداً فى مكانه ينتظر أمرا آخر .

فصاح الضابط فى حدة مخاطباً درويش : ضع هذه السكين على الأرض أيها الشقى ، وإلا أمرت برميك بالرّصاص .

ولـكن درويشا تقهقر إلى أحد أركان الرَّحْبَة ، مُبْدِياً قامة معتدلة ووقف موقف المتحدِّى صائحا : إنى أنذركم جميعا ألا تقْرَبوا منى ، و إلا فالويل من انتقام الشيخ ! إنه لا يتردد إذا غضب فى أن يَخْسِفَ بكم البيت نسفا ، أو يخسف بكم الارض خسفا ، فخير لـكم أن تنسحبوا كما جئتم ....

وهنا صاح الضابط « نار » فدوت رصاصتان فى جو الرحبة اخترقتا ساقي المسكين فخر يتخبط فى دمه . . . بين ميت وحى !

وما سكن دوىّ الرصاص حتى سُمع صوت استغاثة منبعث من الحديقة الخلفية ، تلاه صراخ فى الطبقة العليا يشقّ أجْوَازَ الفضاء

فنَطِن الضابط لما حدث ، وصاح « إلى الخلف » فجرى العساكر إلى باب الحديقة الخلفى و إذا بهم يرون أحد زملائهم — وكان موكّلا بحراسة ذلك الباب ـ فى حالة يرثى لها حقا .

فصاح الضابط : ماذا جرى يا عبد الله ؟ فقال عبد الله متأوها وكفاه إلى وجهه : لقد فرّ المجرم من هذا الباب ، بعد أن قذف وجهى بزجاجة بها سائل مُحْرق أفقدنى البصر . فصاح الضابط : وأين كانت وجهته ؟ فقال إنه مرّ نحو الحقول . فجُنّ جُنون الضابط ، وأخذ يسبّ و يلعن و إذ الحال كذلك أقبل صادق بك ، وقد طَفَا مِرْقَمُهُ [1] ، وصاح فى وجوه العساكر : مُجرمون ! كيف اجترأتم على انتهاك حرمة بيتى فى غيبتى ؟ فأجابه الضابط مغضباً : إنا لم ننتهك حرمة بيتك ، ولـكننا جئنا لنقبض

(١) اشتد غضبه

على لص هارب آويته . فقال إني أحتج بكل قواي على هذه الإهانة، وسأعرف كيف أنتقم منكم . فأجابه : احتج كما تشاء ، وافعل ما تريد ، ولكن ذلك لا يمنعنا من تأدية واجبنا ، ثم صاح بالعساكر : إلى الأمام !

أخذ الجنود يعدون هنا وهناك ، تُظِلُّهم أرْوَاقُ الغَسَق ، ويعوقهم الوَحَل والمياه المتحفِّلة (١) من الأمطار . وسار على حِفافهم عشراتٌ من الأطفال والرجال الذين جذبهم الصراخ ودويّ الرصاص ، ودفعهم حب الاستطلاع إلى متابعة الجارين في جريهم . ولو سألتهم عما حدث لأجابوك إجابات مبهمة مختلفة .

وصل العدْوُ بالعادِينَ إلى حدود المبانى غربا حيث يلتقى الطريق الفاصل بين الحقول والمبانى بطريق الجعفرية

وهنا شَبَحَ (٢) لهم شيخٌ معمَّم مشتمل بعباءة ، فما شكّوا فى أنه طريدتهم . وصاح المطاردون عساكر وأطفالا : هاهو ذا !!

وهمّ الجنود بتصويب بنادقهم نحو صدر ذلك الواقف الجامد ولكن سرعان ماصاح : قفوا ، فلست أنا من تبغون .

وتقدم الضابط خطوتين من المتكلم ، وصاح فى وجهه : من أنت إذن ؟ فقال المسكين : أنا الشيخ سعيد الحلاوى . فعرف الضابط فيه صورة رآها من قبل وقال : ولماذا تقف منزويا هكذا ؟ فقال بصوت منخفض : وقفت هنا لأرشدكم إلى مكان من تطلبون . إن المجرم الفارّ

---

(١) المتجمعة (٢) مَثَلَ

مختفٍ هناك — وأشار إلى ثلاث هضاب من الآجرّ قائمةٍ فى وسط المزارع

فتهلّل وجه السامعين فرحا ، وقال الضابط إنك جادّ فيما تقول و إنك خبير بنتيجة الخدعة ؟ فابتسم الشيخ سعيد قائلا : ولم أخدعكم وأنا خَصم مثلكم . فقال سِرْ معنا إذن .

ثم أصدر أوامره للعساكر فانبثّوا حول الهَدف ، وتقدموا منه حَذِرين مستعدّين ، ووقف التابعون على بعد ، يتوقّعون نشوب المعركة

وما زال المحاصِرون — وكانوا سبعة غير رئيسهم — يدنُون من معقِل من ظنوه مختبئاً ، حتى كانوا على بضع خطوات منه . وهنا أمرهم الضابط بالوقوف مكانهم ، وتقدم هو ومسدسه فى يده ، فطاف حول الهضْبة الأولى ، مُطلاً فى كل حفرة وفى كل جحر ، ولكنه لم يعثر على شىء . ثم طاف حول الثانية والثالثة وكانت النتيجة كذلك خيبةً مروِّعة ، ودهشة موجعة

وقف الضابط دقيقة أو اثنتين ذاهلا ، ولم تقلّ حالة جنوده عن حاله . ثم صاح ليظْهَرْ [1] أحدُكم على هذه الهضْبة — وأشار إلى إحداها . فأجيب الأمر بسرعة ، وصاح الظاهر إن السَّطح هنا مستوٍ ، وليس فيه حفرةٌ ما . ثم ألقى نظرة على سطح التالية فلم يتبين شيئا أيضا ، ثم على سطح الثالثة صائحا : إنى ألمح شيئاً أسود رابضا فوق وسط الأخيرة

---

(١) ليعلُ

وما أتم جملته حتى أبرق الجوّ ، ودَوى صوت شديد سقط العسكرى على أثره فاقد الحياة . . . .

وحينئذ أطلق الجنود بنادقهم على ما ظنوه مكمن القاتل ، ولكن إجابته لهم دلّت على أن الرُّمَاة كانوا مُصَرِّحين [1] ، اذ لم يصيبوا منه مقتلا .

أدرك الضابط حَرَج مركزه ومركز رجاله ، وقوة حصن عدوه فأمرهم بالتقهقر ثم بالإطلاق ، ولكن هذه الخطة أفقدتْ منهم رجلا آخر من رجاله وجرحت ثالثاً ولم تُدْنهم من غايتهم

وحينئذ جُنَّ جنونُ القائد وصاح : « هجوم » . فاندفع العساكر اندفاع الآساد هاجها الانتقام ، وأخذوا يتسلّقون الهضبة من جهاتها الأربع غير مبالين بالموت

وشعر المحاصَرُ بقرب مَنِيّته ، فطار عقله ، وأخذ يرمى رصاصه ، هنا وهناك على غير هدى . وفى أثناء ذلك رُئى رأس عارٍ يبرز خلف الهضبة البعيدة ، ثم لمعان يصحبهما دوى مسدس . ثم بدا صاحب ذلك الرأس فوق سطح الهضبة صائحاً : كفرا ! لقد قتلته . . .

ولقد صدق الضابط ، فإن رصاصتيه المُصْمِيتين اخْتَرقتا جمجمة السبع فهشمتاها تهشيما ، وتركتاه فى حفرته جثة مشوهة هامدة !

---

(١) صرّح رمى ولم يصب

وكان لتلك النهاية صدى دوى فى آفاق طنطا وغيرها دوى المدافع ، وقصص تناقلتها الألسن فى الأندية والمجامع !

خاتمة

لم تكن آخرة درويش خيراً من آخرة رئيسه ، فلقد قضى نحبه فى مستشفى السجن على أثر بتر ساقيه بعد أن ذاق المرّتين ، وفقد الراحتين !

أما عفيفة فقد أذبلتها الصدمة أيما إذبال ، ولم تفارق سواد الحداد حتى ضمها سواد القبر الذى ضم ولدها من قبل !

وأما الحملاوى وأهله فقد عاشوا فى هناء وسرور ، وقد سالمهم الدهر على أمل أن يكفر عما مضى ، والحمد لله أولا وآخراً .

استدراك

أرجو من القارئ الكريم أن يضع الصواب مكان الخطأ ، وله الشكر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	الأخير	السير بعد	السير لبلا
٢٢	الخامس	جفل	أجفل
٣٠	العاشر	كان	كاد
٣٧	الرابع عشر	يشربو	يشربوا
٤٣	الرابع	فواهكم	أفواهكم
٧٥	الرابع عشر	ضخمة	ضخمه
٧٧	الثامن عشر	الفلاج	الفلاح
٨٦	التاسع	حسى	حسبي
١٠٩	التاسع	مبغضا	منغضا
١١٢	التاسع	وعروا	وعزوا
١٢٩	السابع	ولكنه	ولكن
١٣١	العنوان	سفر الجبل	سفح الجبل
١٣٢	السطر الأخير	أجبي	أجتبى
١٦١	الحادى عشر	نطاقة	نطاقه
١٦١	الثالث عشر	لم يستطيع	لم يستطع
١٦٣	السادس	رأصه	راسه
١٦٣	الثامن	وتقدموه	وتقدموا
١٦٨	الرابع عشر	فأضفتم	فأضفتما

obeikandl.com